سعيد الأفغاني

أسواق العرب

في الجاهليّة والإسلام

سعيد الأفغاني

أسواق العرب

في الجاهليّة والإسلام

دار الفكر بدمشق

الطبعة الثانية

١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م

مطابع دار الفكر بدمشق

☎ ١١٠٤١

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم الطبعة الثانية من كتابي (أسواق العرب في الجاهلية والاسلام) منقحة مزيداً فيها فوائد عزيزة غزيرة ، آملاً أن يكون لي نصيب - ولو ضئيلاً - في سد فجوة من الفجوات في تاريخنا الحبيب . والحق أن الطبعة الأولى كأنها لم تكن إذ لم يطبع للبيع إلا ثلاثمائة نسخة استنفدت دمشق حينئذ كلها تقريباً .

ووددت لو استطعت الإشراف على هذه الطبعة ، ولا أظن الدار التي ستنشر الكتاب إلا باذلة جهدها في أن تفضُل هذه الطبعة سابقتها صحة وجمالاً .

ولا يسعني - في هذه المناسبة - إلا شكر العلماء والادباء من العرب والمستشرقين الذين استقبلوا الطبعة الاولى من الكتاب استقبالاً ما كنت أطمع ببعضه ، حامداً لهم عنايتهم ببحوثه وثناءهم على صاحبه ، مقدراً حسن ظنهم واقتراحاتهم المشكورة أحسن تقدير ؛ وأخص بالذكر صديقي العلامة المرحوم المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو) فقد لقيت من نبله في خدمة العلم ما أتمنى أن نتحلى به جميعاً .

هذا وقد أبقيت المقدمة على حالها وإن رغب إليّ بعض المستشرقين في حذفها لأنها تفتح العيون على حملة منظمة علينا ، متعددة الميادين ، ولهم هم أنفسهم دور ناجح في أحد ميادينها ؛ أبقيتها لانها تؤرخ نواحي اجتماعية

من الفنون الجميلة . » و « كان الاقبال على معرض الصناعات فوق ما كان يرجى وذلك لتعطش الجمهور لمثل هذه المظاهر الفنية والصناعية واهتمامه بالنهضة الاقتصادية . وقد زار المعرض نيف واربعون ألفاً في خلال ثمانية الايام (٨ - ١٥ حزيران) التي ظلت ابوابه مفتحة فيها ، منهم ثلاثة عشر ألف سيدة . » و « كانت نتائج المعرض مرضية محسوسة ، شعر بها من عرضوا مصنوعاتهم في القاعتين الخاصتين بالنفائس والاعلاق النفيسة [١] . »

والمعرض الشامي الثالث كان للصناعات الوطنية ، أقيم في صرح الجامعة السورية ، في شهر آب سنة ١٩٢٩ وعرض فيه مصنوعات المناسج على اختلافها والمصابغ والمطابع والمطاحن والمزايت والمصابن عدا النفائس الشامية من القطع الخشبية والنحاسية والمصوغات ، هذا الى ما اشتهرت به دمشق من عمل (السكاكر) والمربيات والزجاج .. الخ وكان الاقبال على هذا المعرض أكثر من سابقيه لشموله أكثر صناعات الشام واشتراك مدن سورية الشمالية . وقد تجلّت فيه مواهب العرب في سورية واستعدادهم للاسهام في الصناعات العالمية . وقوي الأمل في أحفاد من أقاموا بأيديهم وفكرهم وجهودهم ، المجد الصناعي لقرطبة وبغداد ودمشق ومصر ، يوم لم تكن صناعة إلا صناعتنا ولا حضارة إلا ماتنعم به الانسانية على يدنا وبمسعانا .

وفي ربيع هذا العام (١٩٣٦ م) قامت الاستعدادات على قدم وساق لإنشاء معرض عام يمثل ذكاء العربي وتقدمه في جميع المناحي . وقد وافق هذا التأهب كلَباً من الزمان وحرَباً من العدو ، وفقراً

(١) انظر التقرير الخامس بأعمال المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٨ ص ٣٨

عاماً ومصيبة شاملة ، فكان الناس مشغولين بذوات أنفسهم عما سواها ، فالسماء شحيحة ما تبض بقطرة ، والارض مجدبة ما تهتز عن خضرة ، والموارد ناضبة لا تسعف ، وأجزاء البلاد يُزجى فيها السموم وتبث بينها العقارب ، حتى خبطتها فتنة عمياء تنكّر فيها الساحلي للداخلي ، وتجهم العربي للعربي ، رغم الدم الصارخ في عروقهما من الفرقة ، الداعي لها الى الإلفة والاتحاد . وغذّى هذا الشر أناس أقيموا ليهدوا الناس الى الخير والاخوة والمحبة والسلام ، فكانوا دعاة الشر وعمالاً على الإفساد والتفريق والشقاء . وجعلوا من الدين الذي أنزله الله ليزيد الاواصر قوة والوشائج لحمة ، ويفيض على القربى والرحم محبة ورحمة ، وتعاوناً وعطفاً ... جعلوا من هذا الدين وسائل سافلة تستغل سذاجة العامي الغفل ، وتموه عليه السم بالدسم ، ليسعى الى حتفه بظلفه ويقتل نفسه واخاه معاً .

بهذا اشتغل الناس يومئذ وحق لهم الشغل والتفكير في هذه القطيعة المجرمة ، إذ متى عاش رأس بلا جسم وهل استغنى قلب عن وريد وشريان ، وأين شرع الله للجارين من جنس واحد أن يعملا على شقائهما معاً ، ويسعيا الى التعس السعي الحثيث ، ويزجا بأعقابهما وذراريهما من بعدهما في العذاب الاليم والانقراض المحتم . ثم يُعملان في أبدانهما سلاحاً دسه العدو في أيديهما وهو يتربص بكليهما الشر ليسود دارهما وحده لا شريك له[١] .

في غمرة هذه النزوات الطائشة ، وفي شدة مقاومة المقيد الذي شعر أنه إنمـــا يساق الى الموت وهو أشد ما يكون تعشقاً للحياة وتمسكاً

(١) أما الآن في سنة ١٩٦٠ فقد أزال الله الأجنبي فزال بزواله اكثر ما بذر من اسباب القطيعة وعاش الإخوان كل في داره جيراناً متحابين .

بجبالها ، قام « معرض دمشق وسوقها » وأعلن في أقطار الشرق موعد افتتاحه ! فاعجب إن كنت عاجباً لهذه الامة الكريمة التي تنبض عروقها قوة غريبة وحيوية عنيفة ، إنها لم تشغلها مصيبة عن واجب : فما أهاب بها الداعي حتى هبت هبة واحدة تنظم معرضها وتمده بكل ما في بقاع الوطن من تحفة فريدة في بابهـــا . وزحفت صناعات الشام تتمثل في المعرض العالمين ، وازدهى هذا المعرض بعبقرية الوطن تتجلى في الفكر الخصب واليد الصناع .

* * *

افتتح المعـــرض مساء الاحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة ١٩٣٦ م ، في مدرسة التجهيز الجديدة ، حيث أجمل بقعـة في دمشق وأنزهها وأحفلها بآثار العرب في القديم والحديث : نصروح الجامعـــة السورية الحديثـة وبناء دار الآثار ونزل « خوام » عن يمين بردى .. الى جانب القباب الاثرية والمآذن الشاهقة ، تلك تقفك على نشاط العربي ابن العصر العشرين وهذه تذكرك بعنفوان مجده في القديم .

ومن غريب الاتفاق أن تقوم معارض دمشق الثلاثة ، في المجمع العلمي العربي (كان) ، والجامعة السورية ومدرسة التجهيز : أكبر المعاهد العلمية وأعودها بالخير على البلاد ، لتثير في النـــاس أثرين مزدوجين ، يرتبطان أشد الارتباط ، ولا ينفـكان مرتبطين أبدا او يفنيا معاً : عبقرية الفكر وعبقرية اليد . لا تقوم حضارة على عـــلم وحده ولا على صناعة وحدها ، ولا بد من الاثنين معاً . وقد فهمنا هذه الظاهرة وأخذنا في العمل لتحقيقها ، وقطعنا في هذا أشواطاً نسأل الله أن يرعاها بعنايته حتى تبلغ بها الغاية .

* * *

وهناك اتفاق آخر فطن له كثيرون ، وعجبوا له العجب كله وهو افتتاح المعرض في ليلة ذكرى المولد النبوي ، في الليلة التي يستعيد فيها المسلمون ذكرى ما قدموا للانسانية من نظم وحضارة وعــدل وسعادة ، في الليلة التي ولد في مثلها قبل أربعة عشر قرناً ، خير طفل حملته الارض ، وكان له يد ومنــة على كل من نعم بسعادة وشمل برحمة وتمتع بعدل واغتبط بعرفان .

افتتح معرض دمشق وسوقها في مساء الليلة التي يقول فيها المسلم والعربي غير المسلم: كان منا هادٍ أفاض الرحمة على الانسان والحيوان والجماد ... فتفاءل الناس خيراً وأيقنوا أنهم لابد بادئون تاريخهم من جديد وقد ولد ليلة المولد هذا المعرض ، وهو فاتحة مباركة في تاريخ بعثنا الحديث إن شاء الله .

فإنا كما شرعنا نصل حلقات السلسلة التي انقطعت ، بجهادنا للحرية والحق ، والعدل والنور ، افتتحنا ليلتنا هذه بوصل حلقة مجدنا الصناعي والتجاري . وإن الانسانية لتنتظر على أحر من الجمر ، وبفارغ الصبر ، الشعبَ الذي نعمت في ظلاله ليتبوأ مكانه من جديد ويقوم برسالته في هذا العالم الذي ملىء اليوم رذيلة وعسفاً ومادية . وإن انتعاش الشعب العربي انتعاش الخير والانسانية ، ونصرته نصرة للعــدل والعمران ، وما كانت الانسانية لتنسى الذين كانت على عهدهم حقائق ملموســة فأصبحت اليوم طلاءً ودهاناً ، بل الانسانيــة اليوم - إذا دققنا في حقيقة أعمال من يدّعون حمايتها - شقاء باسم السعادة ، وظلم باسم الرحمة ، ووحشية باسم الحضارة ، ولصوصية باسم الحق ، ودناءة وحطة وإماتة ضمير وخذلان خلق وبهيمية ... باسم التمدين ..

* * *

كنت في هذا الجو من الغبطة والذكرى والتأثر ، لما عرضت في ذهني حلقات تاريخنا وأين انقطعت كل حلقة ومتى عهدنا بوصلها . فكان أول ما جال في خاطري وأنا في معرض دمشق وسوقها : أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، وكيف كانت تزخر بالناس من تجار وصناع ، وأدباء وشعراء وخطباء ، وساسة وأشراف ...

عجبت لهذه الذكرى وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا - مع مراعاة الفارق بين الزمانين - وذكرت أن المجمع العلمي بدمشق - وكان إذ ذاك اسماً على مسمى - سيقوم بمهرجان للمتنبي في آخر أسبوع من تموز ، وقد اختار لهذا المهرجان مكان المعرض وزمانه ، لتتم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافلهم فيها . فكملت بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما سيلقى فيها من أدب وشعر وعلم ، وبمن سيؤمها من العلماء والادباء من المشرق والمغرب : عرباً وأجانب ومستشرقين . وأصبح من كان يتمنى أن ينعم برأى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين ، فينظر كيف انقلب الزمن وكم قطعت الحضارة بين العكاظين من أشواط .

ولعل القارىء أحسّ مما قدمت مقدار الحاجة الى بحث يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والاسلام ، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم ، ليقف على شأنها في تاريخنا ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً . ومازالت هذه الاسواق تقتعد الذروة من اهتمام الامم مذ كان اليونان وأولمبيادهم وأعيادهم. وقد رغب إليّ من أرضى رأيه أن أسد هذه الثلمة في المكتبة العربية فعكفت على أمّات المصادر - وهي في موضوعنا هذا جد شحيحة - أنقب فيها وأفليها لاخلص منها بكل مايفيدني في بحثي حتى تمت لي مادة

هذا الكتاب الذي تنحصر بحوثه بين عهد الجاهلية والقرن الثاني الهجرة . ولعل الله ييسر لي في المستقبل أن أصل هذا البحث عصراً فعصراً في أمصار العرب حتى عصرنا الحاضر .

ومن مارس التنقيب في مصادرنا العربية ، القديمة منها خاصة ، واطلع على ماتزخر به من كنوز مبعثرة هنا وهناك ، لاتجمعها جامعة ما ، عرف مقدار العنت والنصب اللذين يتعرض لهما الباحث ، ولا سيما في موضوع كهذا لم يعالج بعد . وأنا أعفي القارىء من وصف مالقيت من عناء فما أريد أن أمن عليه وحسبي أن أكون في وجداني قد أبلغت نفسي عذرها .

وقد مهدت الكلام علي الاسواق ببحوث رأيتها لازمة ، وثيقة العلاقة بموضوعي كبيوع الجاهلية وربإها وأسهبت في الكلام على قريش لأنهم في الحقيقة هم عنوان الفريق التاجر من العرب وحرصت كل الحرص أن أنقل القارىء إلى جو تلك الاسواق فيراها كما هي .

سيكون في هذه البحوث أدب جم وتاريخ كثير كما فيها صناعة وتجارة ، وستعرض فيها عادات العرب في أسواقها ومجالسها الادبية وبلاغتها النثرية والشعرية ، حتى النحو سيكون له بعض النصيب لان إحدى الاسواق كانت تقصد من أجل مادة يستعين بها النحو في تنظيم قواعده وتبويب فصوله .

وبعض هذه الحوادث والاخبار والاشعار التي سأعرضها - وإن كان مظنة أنه مصنوع - قد اجتهد صانعه أن يقلد فيحسن التقليد ويحاكي الاصل فيحكم الحكاية ، فإن شككنا في نسبة الخبر لم نشك أبداً فيما يدل عليه أو يستخلص منه . وذكرت من هذه الاحداث هنات جوزت لنفسي نقلها في هذا الكتاب مع تصريحها بما يحتشم منه ، لانها لاتتم الصورة

إلا بها ولأني أحرص على أن يتمثل القارىء حالة الاسواق تمثلاً صادقاً صحيحاً كاملاً على قدر الامكان .

وقد عنيت بشرح ما يشكل من غريب أو معنى مغلق ، لأكون قد بلغت جهدي واستفرغت وسعي في الاجتهاد لأن يكون هذا العمل أقرب من كمال وأبعد من نقص . وأنا أشكر لمن أطلعني على عيب أو نبهني لإصلاح ، فما يزال الانسان بحاجة الى من ينبهه ويصلح عمله .

والله المستعان ومنه الرضى والمثوبة .

غرة ربيع الثاني سنة ١٣٥٥ هـ و ٢ حزيران سنة ١٩٣٦ م .

سعيد الافغاني

الباب الأول

شؤون العرب التجارية

بين الجاهلية والإسلام

تمهيد

تجارة العرب

لبلاد العرب موقع جغرافي متوسط ، بين بلاد أعظم الدول وأقدم الحضارات . فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر ، والى غربها الجنوبي وراء البحر بلاد الحبشة وفي جنوبها البحر الهندي الذي يفصلها عن بلاد الهند .

ولا نكون إلى الغلو إذا قلنا إن معظم تجارات العالم منذالقديم حتى القرون الوسطى هي بين هذه البلاد التي عددنا . فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعتاالنفوذ والسيادةفي العالم ، وهما فارس والروم، كانتا على علاقات تجارية وسياسية مع بلاد العرب في الشمال والجنوب. وقل نحواً من ذلك في علاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين ، وإن كانت علاقة أضيق حدوداً .

وكان للمواصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان أحدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس براً ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف في اسواق الشام ،

يمر التجار فيه على أسواق اليمن والعراق وتدمر وسورية ويبيعون في كل قطر ما لا يكون فيه ويأخذون منه إلى غيره مايروج ثمنه . والطريق الثاني وهو الأهم غربي يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد اليمن والحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن وا لحبشة والهند إلى الشام وبضائع الشام الى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند في البحر .

وقد أطمع هذا الموقع الجغرافي لبلاد العرب كثيراً من الفاتحين فغزاها الاسكندر فارتد عنها في غير طائل ، وطمع فيها قديماً ملوك الفرس وبابل ونينوى ومصر . والغريب أنها احتفظت بمكانتها هذه حتى العصر الأخير إذ بسط الانجليز شرقي الجزيرة وغربيها فملكوا « عدن » ميناء اليمن الطبيعي [1] حيث ترسو السفن من الحبشة ومن الهند وملكوا العقبة [2] « أيلة » محط رحال القوافل العربية في القديم وأول الثغور الرومانية التي يحلها تجار العرب ، ففازت إنجلترا بمناطق نفوذ على هذين الخطين التجاريين ضماناً لطريق الهند وتجارتها .

كان من المعقول أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً

(١) وبه يسمى البحر فيقال بحر عدن ـ انظر طبقات الامم لصاعد: ص٧١

(٢) كان ذلك قبل أن يستقل شرق الاردن باسم المملكة الاردنية الهاشمية

ونساء ، وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من إحدى هاتين الطريقين ، ومن لم يتاجر منهم أفاد من التجارة بالواسطة فعمل في هذه القوافل إما دليلاً وإما سائقاً وإما منتظما في جملة حماتها الذين يؤجرون أنفسهم وسلاحهم ودوابهم فيها .

ولم يبعد اسطرابون حين قال : « العرب تجـــار وسماسرة » و « قوم تجارة وبيع وشراء ولذلك لم يكونوا أمـة حرب لا بالبر ولا بالبحر »[1]

وقد شغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبـــأ والمعينيين ، المراكز الممتازة في تجارة الشرق حتى ذكرتهم التوراة ووصفت ثروتهم وتجارتهم . وحمل أهل تدمر في القديم إلى مصر وجنوب أوربة صادرات بلاد العرب والعراق والهند وكانت النفائس التي يحملهـا التدمريون من بلاد الشرق أثمن مايتغالى به الملوك القياصرة .

توسط تدمر بين الدولتين الفارسية والرومانيـة ، بين العراق والشـام وجزيرة العرب جعلها محطة القوافل جميعاً بين هذه الاقطار منذ أقدم العصور ، فازدهرت تجارتها وعظم غناها واشتهرت أسواق

(١) انظر مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٦٤/٢

حتى أصبحت « قبلة التجار من الهنـــد والفرس (وجزيرة العرب) والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوربة ...

وكانت روما التي خضع لنيرها أغلب العالم القـديم تهاب قبائل تدمر وتتودد اليها وتقدم لها الهدايا وتوفد اليها الوفود ... وعرفت تدمر كيف تستثمر في ظروف كثيرة منافسة الدولة الفارسية والدولة الرومانية لمصلحتها التجارية »[١]

ولما ازدهرت الدولة المعينية في اليمن تعاطى أهلها التجـــارة وساعدهم عليهـا امتداد نفوذهم حتى شواطىء البحر المتوسط وموانى خليج العجم.

أما سبأ فليس مكان غناها وتجارتها بالمجهول فقد ذكرت التوراة أن ملكة سبأ « قدمت الى سليمان (١٢٠) وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة »[٢] وحسبك هذا دليلاً على وفرة مالها وخيراتها. والسبئيون قديماً أغنى العرب ثروة وأوسعهم تجارة ، يحملون ما يأتيهم من بضائع الحبشة والهنـد إلى مصر والشام والعراق فبسطوا بذلك

(١) انظر (تاريخ اللغات السامية) لإسرائيل ولفنسون ص ١٢٧ ، ١٢٨

(٢) انظر سفر الملوك الاول من العهد القديم : الإصحاح العاشر

نفوذهم التجاري واستأثروا بالتجارة بين تلك الاقطار المذكورة .

جاء في تاريخ العرب الأدبي ا (نيكلسون)[١] :

« قال مولر : قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين مواني بلاد العرب الشرقية والهنـــد ، محملة بالبضائع وكانت منتجاته الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقـــردة والطواويس) تنقل الى ساحل عمان ، ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليـــج الفارسي حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون فراعنتها وأمراءها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة في البحر الاحمر سبـــباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسورية ، وكانت القوافل تقوم من « شبوت » في حضرموت وتذهب الى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه شمالاً الى مكرُبة (مكة فيا بعد) وتظل في طريقها من بتراحتى غزة المطلة على البحر الابيض المتوسط » وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحر على طول شواطيء حضرموت وخلال مضيق باب المندب . وكانت نتيجة هذا التغير - الذي يظهر أنه حدث في القرن الاول

(١) ترجمة حسن حبشي في العدد (١٧٥) من مجلة الرسالة

للميلاد - أن أخذت قوتهم تتضعضع شيئاً فشيئاً ،

وحل محل هؤلاء ، الحميريون الذين جعلوا عرب الحجاز تحت سيطرتهم فاستخدموهم في نقل تجاراتهم إلى أن تخلص الحجازيون منهم وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبيل البعثة .

قام اليمنيون في القديم إذاً بنقل المتاجر بين بلاد العرب والبلاد المجاورة وظل ذلك دأبهم على اختلاف دولهم في الأزمان التي تقدمت القرن السادس الميلادي ، فاستأثروا بتجارة الجزيرة مع غيرها من الممالك ، يحملون التمر والزبيب والأدم والبخور والحجارة الكريمة والمنسوجات من مواطنها ثم يستبدلون بها بضائع أخرى ، مع ما يصنعون هم أنفسهم من الأطياب والعطور التي يتخذونها في بلادهم ويبيعونها في أسواق العالم القديم : آسية وإفريقية وأوربة . فكانوا حيناً غير قصير مشرفين على تجارة العالم كله .

وقد نشأت مع الزمن وسط هذه الطريق التي كثيراً ما سلكوها قبل الميلاد ، محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكة والمدينة [1] . وعظم

(١) وقبل هذا الزمن ازدهرت تيماء وأيلة (العقبة) وسلع شمالي الحجاز فكانت محط القوافل الكبرى ومراكز ممتازة للتجارات وبيوت المال ، منها يتسوق العالم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج إليه .

أمرهما وصار أهلها يشاركون في الاتجار قبائل اليمن . فلما كان القرن السادس انتقلت التجارة من أيدي اليمنيين بالتدريج ، الى قريش القبيلة المكية التي ارتفع أمرها وقويت ونشطت وبدأت تحل محل الأولين في الاستئثار بتجارة جزيرة العرب ، ولاسيما عند اضطراب الأمن وتعذر المرور على الأحباش والأنباط ، وكان وقوع الحروب والأزمات والمنافسات بين فارس والروم من أعظم العوامل في نشأة التجارة المكية وازدهارها . إلا ما كان من تجارة فارس ، فإنها بقيت في أيدي عرب الحيرة وهم يمانون .

كانت أقطار العرب غير متساوية في الخصائص والمرافق ، فبينا نجد نجداً أرضاً قاحلة رملية لازراعة لأهلها ، نجد في اليمن مزارع خصيبة تفيض بالخير الواسع. ونجد بعض مدن الحجاز كمكة تشبه نجداً في جدبها وبعضاً آخر فيه مزارع ونخيل كالمدينة والطائف وان لم تكونا بدرجة اليمن ، قال الألوسي : « وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة ، لما في بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى . وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة لما ان الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون

بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة . « على أن لطيء ومنازلها أواسط نجد شهرة في الاتجار شمالي جزيرة العرب هذا عدا أخلاطاً من أمم شتى تتسرب تجارهم الى الجزيرة ، وأكثر هؤلاء هم الأنباط فقد بقوا حتى بعد ظهور الاسلام يجلبون الزيت من الشام الى المدينة .

ولا بد لنا من التنبيه على حدة : الى العنصرين التجاريين اللذين عملا في بلاد العرب وهما الأنباط واليهود ، فقد كان الأولون يختلفون بين بلاد الشام والحجاز والعراق في الجاهلية . وكان أكثر مايحملون من بضائع على ماعلمت الزيت والدرمك« دقيق الحُوّارى [1] » يحملونها من الشام الى الحجاز والى العراق ويرجعون من هذين القطرين بالأدم والتمر وغيرهما من الحاصلات ، فكانوا يشاركون القوافل العربية في تجاراتها ويقيمون لأنفسهم أسواقاً في البلاد العربية ذاتها ؛ فابن سعد يذكر أن هاشماً في بعض أسفاره الى المدينة « نزل بسوق النبط فصادف سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . [2] » ولما

(١) الحُوّارى : لُباب الدقيق وكل ما حُوِّر أي بُيِّض من طعام .

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٥ ، وانظر شرح المواهب ج ٣ ص ٢٣

كانت الفتوحات والغزوات قام الأنباط التجار بمهمة نقل الأخبار بين الشام والحجاز [1] .

وأما اليهود فقد « كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبي رافع الخيبري الذى أرسل بضاعته بوساطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة . ويمكن أن يقالَ إن تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال الحجاز . [2] »

لكن شأن اليهود فاق شأن الأنباط لاستيطانهم في جزيرة العرب فاستفحل أمرهم وزاحموا السكان الأصليين على مرافقهم وكانت لهم خبرة في الزراعة والتجارة وتنمية المال فاستغنوا وبنوا لأنفسهم القرى والمزارع والحصون ، وأشهر مراكزهم العامة في المدينة وخيبر .

ومما تجدر ملاحظته أنهم بعد أن شاركهم في مغانمهم التجارية

(١) ومن هؤلاء الانباط التجار علم الرسول بتجمع الروم على الحدود فأخذ أهبته وأخفى جهته في الغزوة المشهورة غزوة تبوك ـ انظر شرح الزرقاني للمواهب ٣/٦٣

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨

أهل يثرب وخاف اليهود هذه المزاحمة وكانوا عاجزين عن التغلب على اليثربيين قوة وعنوة ، لجؤوا الى الايقاع بين الحيين الأوس والخزرج فلما وقعت العداوة واتصلت الحروب جعل اليهود يضرمون نارهـا كلما خمدت ، فشغلوا بعضاً ببعض وانصرفوا هم الى تجاراتهم وإنماء ثرواتهم . فلما هاجر المسلمون الى المدينة وأسلم أهلها ، بغى اليهود الغوائل لهم وصاروا يحرضون عليهم المشركين من قبائل العرب وينقضون عهودهم للنبي ، ويطعنون المسلمون من خلفهم ، إزاء ذلك رأى النبي ضرورة التخلص منهم فأجلى بني قينقاع ثم بني النضير فحطوا بأذرعات من أرض الشام ثم تخلص من بني قريظة [1] أيضاً ، فخلت المدينة وماحولها من جماعاتهم وتحولت تجاراتها الى أيدي أهلها من العرب .

لا بدع في أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش للحجازيين فعكفوا عليها وتمادحوا بكسب المال وأخذوا يضربون في الأرض يبتغون الرزق من هذه المهنة ، فعرفوا قبل الاسلام بكثير ، كثيراً من مدن الشام كبصرى وغزة وأيلة والمشارف ، ومدن العراق

(١) انظر أسباب جلاء هذه القبائل اليهودية في كتب السيرة النبوية .

واليمن وحتى مصر فقد رووا أن نفراً من بني مالك أجمعوا على الوفود إلى المقوقس وأهدوا له هدايا[1] وذكروا أن ابن جدعان أتى مصر ببضاعة فباعها ورجع الى عكاظ .

ولم يحاول انتزاع تجارتهم هذه منهم أحد، إلا ماذكروا من أمر الحبشة التي أرادت الاستيلاء على مكة نفسها ، المركز التجاري العظيم في جزيرة العرب . وقدر بعضهم مايشتريه العالم الروماني من طيوب بلاد العرب والفرس والصين بقيمة مئة مليون من الدراهم ... وكانت صيدون (صيدا) من أشهر الأسواق العطرية [2] .

« ووصل المكيون قبيل الاسلام ـــ عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه ـــ إلى درجة عظيمة في التجارة ، وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفهون به ـــ كالحرير ـــ وحتى استظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية والتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحابيش ينظرون في مصالح قومهم التجارية »[3]

---

(١) طبقات ابن سعد

(٢) مجلة الشرق (السنة ٣٥ ص ٣٢٤)

(٣) فجر الاسلام ص ١٥

واشتهر كل قطر بما يصنع أو يصدر من متاع ، فالسيوف والبرود لليمن قال الأصمعي : « أربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون إلا في اليمن : الورس والكُنْدُرو الخِطْر [١] والعقيق » وقالوا « برود اليمن وريَط الشام وأردية مصر [٢] »

ولعل ماذكر الثعالبي من غنى الحجاز في الاسلام ، صحيح الى حد بعيد فيما كان عليه من قبل ، قال [٣] : « وكان يحمل من مكة والمدينة والحجاز كل عام الى السلطان من العنبر [٤] ثمانون رطلاً ومن المتاع أربعة آلاف ثوب ومن الزبيب ثلاثمائة راحلة » وكان من أعجب ما يأتي النجاشي من مكة الأدم [٥]

(١) الكندر: ضرب من العلك نافع لقطع البلغم جداً « القاموس » ـ أما الخطر فنبات يختضب به .

(٢) ثمار القلوب ، ص، ٤٢٤ ـ هذا وقد يجد الباحث في مطاوي الاخبار كثيراً من الاشارات العارضة لصنوف البضائع والحاصلات التي عرف بها كل قطر من مثل قول ابن عساكر في ترجمة طلحة : « روى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما ارتحل الى المدينة لقيه طلحة جائياً من الشام في عير ، فكسا رسول الله وأبا بكر من ثيـــاب الشام ، وخبره أن من بالمدينة من المسلمين استبطؤوه .. الخ ـ تهذيب ابن عساكر ٧ /٧٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٢٦

(٤) مدح الاعشى سلامة ذافائش فأعطاه كرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً ، فباعها الاعشى بثلثمائة ناقة حمراء ـ الاغاني ٩/ ١٢٥ طبعة دار الكتب .

(٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٠٣

ويذكر اخرون ان مكة اصبحت أكبر سوق للرقيق[1]

هذا وهناك أيضاً بلدان اختصت بضرب من العروض أو الصناعة فتقصد لما عرفت به كالطائف فإنه يحمل إليها الأدم فيدبغ فيها ،قال الهمداني : « الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة .[2] » ثم يصدر عنها الى الحبشة وغيرها ، وكهجر والبحرين حيث التمر الجيد المنقطع النظير ، وكالشام ومشارفها حيث يحمل الزيت والزبيب والخمر وغيرها .

ومما ضمن استمرار الحركة التجارية الداخلية والخارجية في جزيرة العرب ، اختلاف أقطارها هذا الاختلاف في المحصول الصادر والوارد وما أحسن قول الهمداني في ذلك :

« ولولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الاقاليم بشيء منعه غيرهم ، لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ، ولما تغرب أحد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي وذهب الشراء والبيع والاخذ والعطاء . إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات ومنع الآخرين ليسافر هذا إلى بلد هذا .

---

(١) مجلة الشرق . السنة ٣٥ ص ٨٣ فما بعد

(٢) الإكليل ج ٨ ص ١٢٠

ويستمتع قوم بأمتعة قوم ليعتدل القسم وينتظم التدبير . قال الله عز وجل : « نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ في الحَياةِ الدُّنيا ورَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا »[٢] ، وقال الله تعالى : « وقَدَّرَ فيها أقْواتَها »[١] اه

★ ★ ★

مما يجب أن يقف عليه النظر والتأمل إشارات عارضة في صدد جدل القرآن الكريم لمشركي مكة ، فإن المتأمل ليجد فيها دلالات بعيدة على عظم ما شغلت أمور التجارة من أفكارهم وخواطرهم ، وذلك عند مثل قول الله : « قُلْ لا أمْلِكُ لِنَفسي نَفعاً ولا ضَراً إلا ما شاءَ اللهُ ، ولوْ كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستَكْثَرْتُ من الخير وما مسَّنيَ السُّوءُ إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشير لقومٍ يؤْمِنون[٣] » فالمفسرون يذكرون في سبب نزول الآية أن المشركين قالوا : « لِمَ لا يوحي إليه ربه أثمان السلع فنشتريها حين ترخص ونبيعها حين تغلو فتزداد أموالنا .. »

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٢

(٢) سورة السجدة ، الآية ١٠ . كتاب البلدان « ليدن » ص ٢٥١

(٣) سورة الاعراف ، الآية ١٨٨ وانظر الكلام عليها في : لباب النقول في اسباب النزول للسيوطي وتفسير الخازن وغيرهما .

هذا ولم يخفف الإسلام كثيراً من شغف العرب بالتجارة[1] فقد استمروا فيه على ما كانوا عليه في الجاهلية ، وإذا استثنينا فترة الفتوح التي شغلتهم كانت أحداثهم التجارية في الاسلام امتداداً لأحداثهم في الجاهلية مع مراعاة الظروف التي تغيرت كل التغير وشغل القرشيون بالجهاد فكان منهم عمال ومنهم قواد ومنهم قضاة الخ ... وخير مايدلنا على بقاء ولوع القوم بالتجارة آية الجمعة :

كان المسلمون يجهزون العير إلى الشام - كما في الجاهلية - فتذهب بأموالهم ومتاعهم فتباع هناك ثم تحمل الى الحجاز فتأتي المدينة ، وكانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها ، فذكر المفسرون أن دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة ، فاستقبلها الناس كعادتهم

(١) جاء في الفائق للزمخشري : « قال قيس بن أبي غرزة : كنا نسمي السماسرة على عهد رسول الله ﷺ ، فأتانا ونحن بالبقيع ، فسمانا باسم هو أحسن فقال : « يا معشر التجار » فاستمعنا اليه فقال : « إن هـذا البيع يحضره الحلف والكذب فشوبوه بالصدقة » اهـ

فلعل (السماسرة) كانت تطلق على صنف من مزاولي بعض أعمال التجارة الصغيرة كما تطلق لعهدنا هذا ، ولكن الرسول كان من خلقه أن يخاطب الناس بما يحبون .

بالفرح والطبول والتصفيق ، وخشي المصلون أن يسبقوا الى العير فيفوتهم الربح فتركوا الرسول يخطب وبادروا اليها في البقيع ولم يبق مع الرسول إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله تعالى في ذلك :

« وإذا رَأوا تِجارَةً أو لَهواً انفَضُّوا إلَيْها وَتَرَكوكَ قَائِماً » .[1]

وفي القرآن الكريم إشارة الى فاصل تاريخي في حياة مكة التجارية ، وذلك حين نزل قول الله تعالى : « يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا إنَّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرامَ بَعْدَ عامِهِم هٰذا ، وَإنْ خِفتُمْ عَيلَةً فَسَوفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إنْ شَاءَ إنَّ اللهَ عَليمٌ حَكِيمٌ . »[2]

فلما حرم دخول مكة على المشركين سنة تسع للهجرة خشي الناس الفقر بسبب انقطاع تجارة المشركين عنهم في المواسم ، فوعدهم الله بغنىً عن غير طريق التجارة ، فكان العوض - على ماذكر المفسرون - في المغانم والفتوح العاجلة .

(١) سورة الجمعة ، الآية ١١
(٢) سورة التوبة ٩ الآية ٢٩

كان لا بد من أن تدخل أحوال العرب التجارية في طور جديد فاهتم الاسلام بأمر تجارتها وشرع لهم فيها ما يحتاجون إليه ، وطفح الحديث الشريف بأحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا الخ .. وعني الخلفاء بعد الرسول عناية خاصة بالتجارة بعد أن هدأت مشاغل الفتوح أيام ابي بكر وعمر وعثمان ، ولنلاحظ أن فترة الفتوح نفسها لم تكن لتخلو من الاتجار حتى من عمال الخليفة أنفسهم ، وهذا خير مايفسر لنا حرص القوم على حرفتهم ، واشتد عمر على عماله فلم يقبل منهم الاشتغال بالتجارة أبداً وصار يؤاخذ كل من فشا لهم غنىً في قومهم فيدقق عليهم فإن اعتذروا بتجارة تجروها فربحوا منها صادرهم ولم يلق لعذرهم بالاً ، وكأنه يقول لهم: بعثتكم عمالاً ولم أبعثكم تجاراً .

ومن حسن الاتفاق أن الخلفاء الثلاثة الأولين كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين ، وعمر تجر في الجاهلية واستغنى في غزة ، وكان مُبَرْطِشاً [يكتري للناس الإبل والحمير يأخذ عليه جُعْلاً][1] أما علي فلم نعرف أنه تجر وقد ظهر الإسلام وهو صبي ومع هذا فقد

---

(١) انظر مادة برطش في (تاج العروس)

كان على علم من التجارة وأحوالها لأنها مهنة قومه جميعاً ولما ولي الخلافة لم يكن يجهل خطر التجارة وقيمتها . ومن الطريف حقاً أن ننقل بهذه المناسبة مرسوماً أصدره إلى عامله الأشتر في التجار والصناع فإنه يدل على إحاطته بأسرار التجار وأخلاقهم ويعلمنا من جهة ثانية منزلة هذه الطبقة بين بقية الطبقات وما كان يعلق عليها من مهام ، قال من كلام له للأشتر :

ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً ، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح ، في برك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها . فإنهم سِلْم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته . وتفقّد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله ﷺ منع منه . وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارفَ

حكرة بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقبه من غير إسراف [1] . »

* * *

ولنا أن نستأنس بشيء آخر له خطره في الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال فإنها تكشف لنا الى حد بعيد ما كان عليه القوم من عادات وأحوال : وأول ما نلاحظ في هذا الباب غنى اللغة بالألفاظ التي تتعلق بالاسفار وما إليها من حط وترحال ونزول على الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها ولسنا مبالغين اذا قلنا إن أكثر القصائد في الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع ، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة . ولما كانت الخلافة ، لم يجد العرب لفظاً يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة [2] فا شتقوا لهذه الحال المستجدة

(١) شرح نهج البلاغة : لابن ابي الحديد ج ٤ ص ١٣٩

(٢) اتباعاً القرآن الكريم حين عبر بهذه الكلمة التجارية عن معاهدة الصحابة رسول الله يوم الحديبية على الثبات وعدم الفرار بقوله : « إن الذين يبايعونك =

كلمة من كلمات التجارة التي كانت الشغل الشاغل لهم . ونظرة واحدة الى مادة « باع » مثلا في اللسان أو التاج توضح لنا المواضع التي استعيرت لها هذه الكلمة لتشبه أحوالا مختلفة بحال من حالات البيع والشراء فقالوا مثلا :

« بايعه بالخلافة ، وأخذ منه البيعة ، وباعه من السلطان اذا سعى به إليه ... الخ .

وكذلك اذا نظرنا الى مادتي « سام » و « سوق » وأمثال قولهم : نفقت السوق اذا راجت ، وانحمقت اذا كسدت . وبعته تاجزاً بناجز ويداً بيد عدا ألفاظ أخرى سيمر بعضها بك حين الكلام على بيوع الجاهلية .

وهذا القالي قد عقد في أماليه فصلا في « مايقال في وصف الرجل لايملك شيئا[1] » من مثل قولهم : ماله سَبَد ولا لَبَد ، ومطلباً

ـ إنما يبايعون الله .. » سورة الفتح ١٠/٤٨ وسميت البيعة بيعة الرضوان وهناك أيضاً بيعة النساء : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا ... فبايعهن واستغفر لهن الله . » سورة الممتحنة ١٢/٦٠

(١) ج ١ ص ٩٠

آخر فيما يقال « لمن يصلح المال على يديه[1] » كقولهم : هو ترعيةُ مال ، مِخْجَن مال .. الخ . واقرأ ان شئت الفصل الذي كتبه في « دعاء العرب[2] » فستجد جملاً كثيرة في حرمان من يدعون عليه من ضروب المال .

أما الأمثال التي تتعلق بأمورهم التجارية وأحوالهم فيها فكثيرة وإليك طائفة منها تمثل لنا شيئاً من تجاربهم واحوالهم في أسفارهم :

عند الصباح يحمد القوم السُرى - لاتدرك الراحة إلا بالتعب - قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض جاهلها - أن ترد الماء بماء أكيس - لايرحل رحلك من ليس معك - إن يَدْمَ أظلُك فقد نَقِبَ[3] خُفي - إن المنبتّ لاأرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[4] .. الخ .

وأكثر من هذا ما أرسلوه في المال نفسه وفي السعي للرزق وفي الربح والخسارة والبيع والشراء فإنهم يستعيرون ألفاظها لكثير من احوالهم كما في هذه الأمثلة :

الحمد مغنم والذم مغرم - خير مالك ما نفعك - لم يضع من مالك

(١) ج ٢ ص، ٣٢٢ (٢) امالي القالي النوادر ص ٥٥، ٧٥

(٣) الأظل : ما تحت منسم البعير ، وأخفافه قوائمه ، والمعنى : أشكو من مثل ما تشكو .

(٤) الذي يجد في سيره حتى ينقطع أخيراً عن أصحابه في السفر ، الظهر : الدابة

ماوعظك ـ خير المال عين ساهرة لعين نائمة ـ من العجز تُنتجت الفاقة ـ كلبٌ طواف خير من أسد رابض ـ حظ جزيل بين شدقي ضيغمٍ افتح صدرك تعلم عُجرك [1] ـ لاترسل الساق الاممسكاً ساقاً ـ كمستبضع التمر إلى هجر ـ ما عنده خير ولا ميْر ـ سواء هو والعُدم ـ البضاعة تيسر الحاجة ومن اشترى فقد اشتوى ـ إن الجواد عينه فراره ـ أعطاه اللقاء غير الوفاء ـ أحشفاً وسوء كيلة ـ أخسر صفقة من شيخ مهو [2] ـ صفقة لم يشهدها حاطب الخ [3] .

أما الحث على السفر في طلب المال فقد استفاض في أشعارهم جاهليين وإسلاميين ولست بحاجة إلى أن أشير إلى ماقالوا في فوائد المال من حِكم وما يصون المالُ من حسَب ويجلب من هيبة فأمـــره معروف ، وما أكثر ماقالوا في هـذا الموضوع من مثل قول عروة ابن الورد :

(١) العُجْرة : العقدة وشبهها ، والعُجر : العيوب

(٢) هو من عبـد القيس اشترى عار الفسو من إيادي (وكانت إياد تعيّر به) ببردين فضرب بصفقته المثل وسيأتيك خبرها في أحداث عكاظ .

(٣) حاطب بن أبي بلتعة كان حازماً فطناً في أمور البيع ؛ فباع بعض أهله في غيبته بيعة غُبن فيهـــا ، فضرب هذا المثل لكل أمر يُبرم دون حضور ماهر فيه ـ انظر مجمع الأمثال للميداني ١/٢٦٦

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وقوله :

دعيني أطوِّف في البلاد لعلني ... أفيد غنى فيه لذي الحق محمل

وقول الآخرين :

سأُعمل نصَّ العيس حتى يكفني ... غنى المال يوماً أو غنى الحدثان،

سأكسب مالاً أو أموت ببلدة ... يقل بها قطر الدموع على قبري ،

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً ... من المال يطرحْ نفسه كل مطرح ،

فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا الخ

ويذكر المشتغلون باللغات القديمة السامية وغيرها قضية الكلمات الأجنبية الأصل في اللغة العربية ، وقد أداهم بحثهم الى ان اللغة الفارسية والحبشية والآرامية « كانت لغات العلائق التجارية أيضاً فإن تجار مكة مثلاً كانوا يتجرون مع الآراميين في دمشق ، ومع الفرس في الحيرة والمدائن ، ومع سبأ وحمير في اليمن ، وقوافل هذه الأقوام كانت تجتاز جزيرة العرب من جهة الى أخرى [1] » ويعدد

(١) ص ١٤٢ من سلسلة محاضرات (التطور النحوي للغة العربية) ألقاها سنة ١٩٢٩ بالجامعة المصرية الاستاذ (برجستراسر) أستاذ اللغات السامية بجامعة ميونخ بألمانيا .

هؤلاء الباحثون هذه الكلمات فإذا في أولها كلمات تجارية وهي أسماء البضائع التي يجلبها التجار من بلاد الفرس من مثل : « الصنج والصولجان والفيل والجاموس والمسك وخصوصاً أنواع النسائج كالديباج والاستبرق والإبريسم والطيلسان .. الخ[1] » .

ولا ريب في ان اختلاط القوافل والتجار العرب منذ الزمن الاقدم بعرب الشام وغيرهم سرّب الى اللغة العربية كثيراً من الكلمات اليونانية التجارية والحضارية ، حتى أتى عهد الجاهلية وكانت هذه الكلمات قد تعربت وصقلها الاستعمال الطويل ، وقد عد أحد الباحثين عشرات منها لايظن لأول نظرة عجمتها مثل :

إقليد (مفتاح) وإقليم وإكسير وبرج وبيطار وبوص (حرير أبيض) وترف وجزية ودرهم ودكان ودمقس ودينار وزبرجد وزنار وسرق (شقة حرير) وسفود وسفين وسندس وسير (قدة جلد) وسيمياء وطاووس وفرصة وفص وفندق وقارب وقالب وقربوس وقرنفل وقصدير وقلس (حبل السفينة) وقمقم وقميص وقنب وقنينة وكركي وكوب وكورة وكيس ولص ومرجان ومصطبة ومنجنيق ومنديل ونافورة وناموس ونقرس ونوتي وياقوت ويانسون (آنسون)[2] .

(١) المصدر السابق ص ١٤٣

(٢) سرد هذه الكلمات بهذا الترتيب المعجمي بندلي جوزي ، انظر بحثه بعنوان (بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية) في مجلة مجمع اللغة العربية ٣/٣٣٠

بل مالنا لا نعمد إلى القرآن الكريم نفسه وفيه على ذلك أوضح الأدلة: يقرب لهم المعاني بما تفيض به حياتهم ويضرب لهم الأمثال على الضلالة والهدى والمؤمنين والكافرين من التجارة نفسها، فهو يقول في المؤمنين المطيعين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة: إنهم «يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ»[1] ويشبه الذين شغلتهم الضــلالة عن الهدى بالخاسر في تجارته فيقول:

«أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَما رَبِحَت تِجَارَتُهُمْ»[2]، «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَــاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ»[3]، «بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ»[4].

ومدح آخرين سعوا في مرضاة الله فقال: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ»[5]، وقال: «إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَموَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا

---

(١) سورة فاطر ٢٩/٣٥ (٢) سورة البقرة ١٦/٢
(٣) سورة البقرة ٨٦/٢ (٤) سورة البقرة ٩٠/٢
(٥) سورة البقرة ٢١٧/٢

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [١] »

ولأن التجارة والبيع أهم مايشغل العرب لم يذكر الله غيرهما من المشاغل حين أثنى على أناس لايغفلون عن ذكره فقال : « رِجَالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ [٢] » .

وقال في تأنيب الذين اشتغلوا بالتجارة عن الصلاة : وَإِذَا رَأَوا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا [٣] »

ولما أراد تشويق قوم الى الايمان قال :

« ... هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ : تؤمنون بالله ... [٤] »

وكثيراً ماتتكرر كلمات التجارة والربح والخسران في القرآن.

وأحسب أن هذا القدر كاف في بيان الحيز الذي شغلته التجارة من حياة العرب في جاهليتهم واسلامهم حتى ان صعصعة بن صوحان لم يذكر للعرب من الحرف غيرها . جاء في أمالي القالي : « قال معاوية لصعصعة بن صوحان : « صف لي الناس » فقال : « خلق الناس

(١) سورة التوبة ١١٢/٩ (٢) سورة النور ٣٧/٢٤

(٣) سورة الجمعة ١١/٦٢ (٤) سورة الصف ١١،١٠/٦١

أخيافاً : فطائفة للعبادة ، وطائفة للتجارة ، وطائفة خطباء ، وطائفة للبأس والنجدة ؛ ورِجْرِجة بين ذلك يكدرون الماء ويغلون السعر ويضيّقون الطريق [1] ».

ولعلك تتساءل بعد هذا قائلا : إن التجارة تستلزم إلماماً بقيود وحسابات والعرب أمة أمية لاتقرأ ولا تحسب فكيف كان ذلك ؟ والجواب ان هذا الحكم على العرب حكم على مجموعهم لا على جميعهم [2] :

(١) ج ١ ص ٢٥٧ والاخياف الاخلاط. والرجرجة شرار الناس ورذالتهم

(٢) ومع هذا فقد كان العرب وتجارهم خاصة نقلة ثقافة تاريخية سياسية ، جاء في طبقات الامم لصاعد (ص ٦٩) : قال ابو محمد الهمداني : ليس يوصل الى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم ؛ وذلك ان من سكن بمكة من العمالق وجرهم وآل السميدع بن هونة وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار اهل الكتاب. وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاوروا الاعاجم من عهد أسعد أبي كرب وبختنصر حروا على الاعاجم وأخبارهم وأيام حمير ومسيرها في البلاد ، وعنهم صار أكثر ماروا عبيد بن شرية ومحمد بن السائب الكلبي والهيثم ابن عدي ، وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان خبيرٌ بأخبار الروم وبني اسرائيل واليونانيين ، ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإيادفعنه أتت أخبار طسم وجديس ، ومن وقع من ولد نصر من الازد بعمان فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند وشيء من اخبار فارس . ومن وقع بجبلي طيء فعنه أتت أخبار آل أذينة والجرامقة ، ومن سكن باليمن فإنه علم أخبار الامم جميعاً : =

فنهم من كان يقرأ ويكتب ويحسب،وقد تعلم القرشيون الكتابة منذ القديم في الحيرة والأنبار ، وكذلك فعل أهل الطائف . وسترى في أحداث عكاظ أن عمرو بن الشريد دعا فيها بصحيفة وكاتب وسجّل على نفسه صكاً أشبه بسند التمليك (طابو) الذي نألفه اليوم . كان هناك إذن صحف وكتاب وصكوك عند العرب وعند اليهود ؛ بل إنا لنجد في آيات سورة البقرة الاخيرة مايجعلنا نذهب الى معرفة العرب بتقييد المعاملات التجارية ، وليس من المعقول ان يخاطبهم الله بشيء لايألفونه من الإملاء والكتابة بالعدل وإشهاد الشهود في قوله:

« يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ..الخ . »[1]

= لأنه كان في دارمملكة حمير وفي ظل الملوك السيارة الى الشرق والغرب والجنوب والشمال . ولم يكن ملك منهم يغزو إلا عرف البلاد وأهلها . » اه .

واذا تجاوزت عن جانب المبالغة في هـذا الكلام بقي لك ان العرب لم تقتصر فائدتهم في ترحالهم على الاتجار ، بل كانوا يستفيدون من رقي أهل الحضارات المجاورة ويحملون منهم آثراً من تقدمهم وثقافتهم.

(١) سورة البقرة ٢/٢٨٢

وفوق هذا كله كان لهؤلاء العرب ذوي الملكة التجارية الراقية اهتمام بما حولهم من الاقطار التي يتاجرون فيها ومراقبة لما يجري هناك من أحداث ، دفعهم إلى ذلك طبيعة التجـــارة وماتتطلب من درس وإلمام بالأسواق وأمنها وأحوال المسيطرين على شعوبها ، وأنت تعرف ذلك من الحرب التي كانت بين الفرس والروم في مشارف الشام قبل الهجرة بست سنين وكيف كان مشركو مكة فرحين بانتصار الفرس إذ كانوا مثلهم غير ذوي كتاب ، وقد شمتوا بهزيمـــة الروم إذ كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سمـــاوي ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الظاهرة ظاهرة اهتمام المكيين بما يجري حولهم من شؤون الفرس والروم في الآية الكريمة أول سورة الروم :

« غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنى الأرضِ وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُونَ . في بِضْعِ سنين، للهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بعْدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصر الله يَنْصُرُ مَنْ يشاء وهو العزيزُ الرحيمُ »

وأدنى الارض : بصرى وأذرعات وهما سوقان من أسواق العرب .

والتجار منذ القديم نقلة ثقافة من حيث لايشعرون [1] فيجب

---

(١) ذكروا : أن قصص لافونتين نقلت إلى أوربة على ألسنة التجار والمسافرين . انظر (مجلة الرسالة : السنة الخامسة ص ١٠٣٥)

أن يحسب حسابهم فيما يكون بين الشعوب من تمازج وتفاعل ، وليس العرب بيدع بين الشعوب ، فقد أفادوا من اتجارهم واختلاطهم بالرومان والفرس وخضعوا لما يخضع له غيرهم من آثار الاختلاط وكثرة العلائق حتى إنا لنرى اسماء رومانية [٢] وفارسية تخللت لغتهم .

ولنا أن نعد انتشار النصرانية في الشام والمجوسية في العراق واليمن أثراً من آثار التجارة فقد ذكروا ان « تنصر العباد بالحيرة لكثرة ترددهم الى بلاد الروم للتجارة » [٣] .

وستعلم بعد قليل أن العرب وقريشاً خاصة أحسنوا العلائق مع دولتي فارس والروم إذ كانت تجاراتهم الى بلاد تحت سيطرة هاتين الدولتين أو نفوذهما، فالشام ومصر ولايتان رومانيتان ، والحبشة على على علائق خاصة بالرومان. والعراق واليمن تحت سيطرة الفرس، والعرب تتاجر صيفاً الى مصر والشام والعراق وشتاء الى اليمن والحبشة .

هذا مجمل ما أردت أن أعرض له من بيان اهتمام العرب في التجارة

(٢) في كتاب (أمثال الضبي وأسرار الحكماء ـ طبع الجوائب) ما يفيد أن (دختنوس) من اسماء العرب انظر ص ٦

(٣) تاريخ ملوك الحيرة للأعظمي ص ١٤٠

ولم أقصد فيه إلى شيء من التطويل لأن الكتاب ليس في تاريخ تجارة العرب وإنما هو في أسواقها والتجارة أحد مواضيع الاسواق ، وحسبها هذه الإلمامة الموجزة نمهد بها قبل الشروع في الموضوع لتتم لنا الصورة التي نريد أن يتمثلها القارىء مستوفاة في غير نقص ولا زيادة .

* * *

بيوع الجاهلية

ألف العرب في جاهليتهم أنماطاً خاصة من البيـع يتخذونها في أسواقهم ، وهي في جملتها مما يثير استغرابنا ودهشتنا لأن أكثرها مما يُغبن فيه البائع أو المبتاع . وتصور لناتلك البيوع ما كان عليه تفكير فريق منهم . ولا بدمن التنبيه إلى أنها لم تكن تتخذ فيجميع الأسواق، بل منها ماتمتاز به سوق من سوق وجماعة من جماعة ، وإليك ماعثرت عليه من بيوعهم :

١ ـ الرمي بالحصاة (أو القاء الحجارة) :

ذكروا لهذا البيع صوراً كثيرةتجري في سوق دومة الجندل منها :

١ ـ أن يقول أحد المتبايعين للآخر : « ارم هذه الحصاة ، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم . »[1]

٢ ـ أن يقول البائع : اذا رميت هذا الثوب بالحصاة فهو مبيع « منك بكذا . فيجعل الرمي بالحصاة نفسه بيعاً . »[2] ، أو يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاةويقول « أي شاة أصابتهافهي لك بكذا».

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي . (٢) شرح مسلم ٦/٣٥٥

٣ ــ أن يقول : « بعتك من السلع ماتقع عليه حصاتك » أو « بعتك من الأرض الى حيث تنتهي حصاتك[1] »

٤ ــ أن يقبض المشتري على كف من حصىً ويقول : « لي بعدد ماخرج في القبضة من الشيء المبيع[2] ».

٥ ــ أن يبيعه سلعة ويقبض على كف من حصىً ويقول : « لي بكل حصاة درهم[2] » .

٦ ــ أن يقول للمشتري : « بعتك على أنك بالخيار إلى أن أرمي بهذه الحصاة فإذا نبذتها وجب البيع[3] » .

٧ ــ « أن يجتمع النفر منهم على السلعة يساومون بها صاحبها فأيهم رضي ألقى حجره .

وربما اتفق في السلعة الرهط فلا يجدون بدأ من أن يشتركوا وهم كارهون ، وربما (اتفقوا)[4] فألقوا الحجارة جميعاً (اذا كانوا عدداً على أمر بينهم[4]) فيوكسون صاحب السلعة اذا تظاهروا عليه .»

---

(١) لسان العرب وتاج العروس . (٢) بلوغ الأرب

(٣) المصدر السابق وشرح مسلم

(٤) الزيادة عن كتاب المحبر لمحمد بن حبيب ص ٢٦٤ وقد طبع سنة ١٩٤٢ بعد صدور الطبعة الاولى لكتابنا هذا بست سنين . ولا شك أن المرزوقي قد نقل عبارته .

انفرد بهذه الصورة الأخيرة المرزوقي في كتابه « الأزمنة والأمكنة » (٢ : ١٦٢) نقلاً عن محمد بن حبيب فيما أظن ، وسماها إلقاء الحجارة بدلاً من رمي الحصاة ونص على شيوعها في سوق دومة الجندل .

أقرب هذه الصور الى الرضى أن يكون رمي الحصاة إيذاناً بوجوب البيع وانقطاع الخيار . أما بقية الصور فهي من بيع الغَرَر وهي إلى القمار أقرب وبه أشبه ، وقد عد الاسلام هذه البيوع فاسدة كلها لما فيها من الجهالة والضرر بالبائع او المشتري .

٢ - المنابذة :

ولهم في هذا النوع من البيوع ثلاث صور :

١ - أن تقول : « انبذ إلي الثوب او أنبذه اليك وقد وجب البيع بكذا وكذا »[1] فيكون النبذ إيذاناً بالبيع وقطعاً للخيار .

٢ - أن يرمي الرجل الى الرجل بثوبه وينبذ الآخر اليه ثوبه ولم ينظر واحد منهما إلى ثوب صاحبه فيكون ذلك بيعهما عن غير نظر ولا تراض[2]

(١) القاموس المحيط : مادة (نبذ) (٢) شرح مسلم ٦/٣٥٦

٢ ـ نبذ الحصاة وقد تقدم

يقال في هذا البيع ماقيل في رمي الحصاة وقد نهى الاسلام عنه وأبطله .

٣ ـ الملامسة :

وهي على أوجه ثلاثة :

١ ـ أن يأتي البائع بثوب مطوي ، أو في ظلمة فيلمسه المستام فيقول له صاحب الثوب : « بعتكه بكذا بشرط أن يقوم المسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . »[1] فلا يقلب المشتري الثوب لا ليلاً ولا نهاراً .

٢ ـ أن يجعل المتبايعان اللمس نفسه بيعاً بغير صيغة ، كما تقدم في المنابذة ورمي الحصاة .

٣ ـ أن يجعلا اللمس شرطاً في قطع خيار المجلس وغيره .

وقد ألحق الاسلام هذه الصور بسابقتها وأبطلها ونهى عنها فقد جاء في صحيح مسلم : « نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين : الملامسة والمنابذة[2] » .

(١) المصدر السابق

(٢) وانظر أيضاً تيسير الوصول ١ / ٦٢ ، ٦٣

وذكر الألوسي مع الملامسة الايماء والهمهمة (وهي الكلام الخفي وكل كلام معه بحح) وعلّل اتخاذهم لها بخوف الحلف والكذب. وهو طريف في الأقوال غريب .

ثم اطلعنا في كتاب المحبر لمحمد بن حبيب على هذا النص في الكلام على سوق المشقر :

« وكان بيعهم فيها الملامسة والهمهمة : أما الملامسة [فهي] الإيماء: يومىء بعضهم الى بعض فيتبايعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا إيماء ، وأما الهمهمة فكيلا يحلف أحدهم على كذب إن زعم المشتري أنه قد بدا له[1] .

٤ ـ المعاومة :

أو بيع السنين وهو أن يبيع ثمر الشجرة عامين أو ثلاثة أو أكثر . وقد أبطله الاسلام لأنه من الغَرر فهو بيع معدوم ومجهول وغير مقدور على تسليمه وغير مملوك[2] .

٥ ـ المزابنة :

هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلاً . وكذا كل

(١) المحبر ص ٢٦٥ (طبعة حيدر آباد ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢)

(٢) شرح مسلم ٦ / ٣٦٨

تمر يبع على شجر بثمر كيلاً وقد روى صاحب القاموس : «أنه كل جزافٍ لايعلم كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود ، أو بيع معلوم بمجهول من جنسه ، أو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هي بيع المُغابنة في الجنس الذي لايجوز فيه الغبن . » اه . والمزابنة المدافعة وسمي هذا البيع مزابنة لأن أحد المتبايعين إذا ندم زبن صاحبه عما عقد عليه . وسبيله في نهي الإسلام عنه سبيل ماتقدمه لما فيه من الغَرر [1] .

٦ ـ المحاقلة :

هي في الزرع على نحو المزابنةفي التمر فيباع الزرع القائم بالحب كيلاً . وقد نهى الرسول عن المحاقلة كما نهى عن المزابنة [1] .

٧ ـ المخابرة :

وهي ـ وإن كانت بالزراعة ألصق لأنها معاملة على الأرض ببعض مايخرج منها من الزرع كالثلث ونحوه من الأجزاء المعلومة ـ تتعلق بموضوعنا لأن أحد أعلام العربية فسرها تفسيراً يجعلها بهذا الباب أشبه . جاء في شرح مسلم للنووي : قيل إن المخابرة مشتقة من الخُبْرة وهي النصيب وقال أبو عبيدة : هي النصيب من سمك أو لحم

---

(١) وانظر تيسير الوصول ١/٥٨

يقال : تخبّروا خُبْرة إذا اشتروا شاة فذبحوها وتقاسموا لحمها . وقال ابن الأعرابي : هي مأخوذة من (خيبر) لأن أول هذه المعاملة كان فيها اه. والذي يظهر أن ابن الأعرابي يشير الى المزارعة لا الى الاشتراك بالشاة الذي فسّر المخابرة به أبو عبيدة ، لأن لأهل خيبر أرضين وعلماً بالزراعة .

٨ ـ حبل الحبلة :

كان بيعاً يتبايعه أهل الجاهلية: كان الرجل منهم يبتاع الجزور إلى أن تُنتج الناقة واحياناً إلى أن تُنتج التي في بطنها فإذا نُتِجت حَمَلها . فالحبَل الاول يراد به مافي بطن النوق من الحمْل ، والثاني حبَل الذي في بطون النوق .

فنهى رسول الله ﷺ عن هذا البيع . « وإنما نهي عنه لمعنيين : (أحدهما) أنه غُرورٌ وبيع شيء لم يخلق بعد ، وهو أن يبيع ماسوف يحمله الجنين الذي في بطن الناقة على تقدير أن تكون أنثى فهو بيع نتاج النتاج . (والثاني) : أن يبيعه إلى أجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة وهو أجل مجهول ولا يصح »[1] والحَبلة بالتحريك جمع حابل .

١) انظر شرح مسلم ٦ : ٣٥٩ ، والنهاية لابن الأثير : مادة (حبل)

٩ - التصرية :

كان من عادة بعض العرب إذا أراد بيع شاة او ناقة امتنع من حلبها أياماً فيحتفل اللبن في ضرعها فيعظم . فإذا كان ذلك منها عرضها للبيع فيظن المشتري أن كثرة لبنها واحتفال ضرعها عادة مستمرة لها فلا يلبث أن يتبين خطأه بعد شرائها . والتصرية الجمع ، يقال صرّى الماء في الحوض إذا جمعه . جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ « لاتصرّوا الإبل والغنم ، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، فإن رضيها أمسكها وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمر .[1] »

١٠ - السرار :

لم أجد هذا الضرب من البيع في جميع المصادر التي بيدي ، لم يذكره أحد غير محمد بن حبيب بقوله : « وكان بيعهم بهـــا (أي بعكاظ) السرار ، فإذا وجب البيع عند التاجر ألف رجل ممن يريد الشراء ولا يريده فله الشركة في الربح .[2] »

وقد رجعت في هذه الكلمة إلى المعـــاجم التي في يدي وهي :

(١) شرح مسلم ٦ : ٣٦٠ ، البخاري (ليدن) ٣٤ كتاب البيوع رقم ٢٧

(٢) انظر كتاب المحبر ص ٢٦٧ . وقـــد عزوناه في الطبعة الاولى الى المرزوقي ولم يكن طبع كتاب المحبر ، فلما طبع تبين ان المرزوقي نقل عبارته ولم يعزها .

الصحاح ، تاج العروس (شرح القاموس) ، لسان العرب ، المجمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية) الجمهرة لابن دريد ، الفائق ، أساس البلاغة ، النهاية لابن الأثير ، المصباح ، فلم أجد أحداً تعرض لهذا الضرب من البيوع ثم تحريت في شروح الحديث و كتب الفقه مظنّة أن أجد فيها تعرضاً له في صدد كلامهم عن البيوع الفاسدة أو المنهي عنها فلم أظفر . إلا ما وجدت في كتاب (المغرب في ترتيب المعرب) للمطرزي ، وعنه نقل صاحب محيط المحيط [1] .

قال المطرزي :

« وفي المنتقى : بيع السرار ان تقول : أخرج يدي ويدك ، فإن أخرجت خاتمي قبلك فهو بيع بكذا ،وإن أخرجت خاتمك قبلي فبكذا ، فإن أخرجا معاً أو لم يخرجا جميعاً عادا في الاخراج !؟ [2] ».

---

(١) لم أطلع في الطبعة الأولى إلا على محيط المحيط ، والفضل في تنبيهي إلى كتاب المطرزي الأب (بويج) من بيروت فقد تفضل و كتب لي به .

(٢) أرسل الي الاستاذ كرنكو المستشرق المعروف عقب صدور الطبعة الاولى يقول : ولأرجع الى بيع السرار في عكاظ وأظن ان أمر البيع والشراء كان مراً لاجتماع القبائل التي بينهم عداوات ودماء في هذه السوق . وعلى هذا تدل قصة طريف العنبري التي ذكرتموها وقد كانوا يتلثمون عند حضور السوق مخافة أن يراهم عدوهم وهذا رأيي والله أعلم - اه وما زال النص على صورة هذا النوع من البيع يعوزنا ، أما التلثم الذي ألمع اليه المستشرق الفقيد فلا علاقة له بنوع هذا البيع .

١١ - الناجز :

وهو البيع العام المعروف لجميع الناس بادين وحاضرين ، وذلك إذا كانت المبـــادلة يداً بيد وقالوا : بيع السوق ناجزاً بناجز أي حاضراً بحاضر .

١٢- الجس:

نص عليه محمد بن حبيب في كتابه المحبر (ص ٢٦٦) فقـال في الكلام على سوق صنعـاء : « وكان بيعهم بها الجّس جس الأيدي » ولعله نوع من بيع الملامسة المتقدم .

* * *

جرى العرب في جاهليتهم على ما علمت من أنواع البيـــع التي تعرض أحد المتبايعين للغَبْن والضرر بلا مسوغ ، فلما أكرمهم الله بالاسلام رفع عنهم ضيم الجاهليةونهاهم عن بيع الغَرَر بجميع صوره وأشكاله ليكون لكل من المتبايعين محض الاختيار فلا يتم بيـع إلا إذا كان واضحاً معلوماً للمتبـايعين ، وبالرضى الكامل . ولقد تتبـع الاسلام معاملات الجاهليين فأبطل كل مافيـه غش وضرر كما في بيع حبَل الحَبـلة وفي التصرية . وشرع لهم في التجارة والبيوع ما ضمن خير الناس جميعاً بائعهم ومشتريهم ورفع عنهم الحيف الذي كان يحيق بهم مما اعتادوه في جاهليتهم .

لم يقتصر الجاهليون في تجارتهم على ما قدمنا من بيوع فاسدة وعادات ضارة. فلهم الى ذلك مساوىء لاتقل قبحاً عما تقدمها : فمنها النَجْش وهو ان تواطىء رجلاً اذا أراد بيعاً أن تمدحه ، أو أن يريد الانسان أن يبيع بياعة فتساومه بها بثمن كثير لينظر إليك ناظر فيقع فيها وكذلك في الاشياء كلها [١] .

ومن عاداتهم المَكْس وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية ويقال للعشّار أيضاً صاحب المكْس . والمكس لغة النقص ، والمماكسة في البيع انتقاص الثمن وانحطاطه [٢] .

ولعل ذلك يكون بعد الاتفاق على ثمن معين قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق إتاوةٌ وفي كل ما باع امرؤ مكْس درهم

وظاهر أن المقصود بالمكس أشبه بالضرائب التي تجبيها حكومات اليوم على البضائع .

وقد امتد تحكم تجار العرب إلى القوت الضروري فكانوا يحتكرونه على الفقراء فيتلقون الركبان ويشترون منهم الطعام وربما باعوه في مكانه قبل أن يبلغ السوق وقبل أن ينقلوه . ومنهم من كان يشتري ويبيع لحساب أهل البادية فيلحق بهؤلاء الضرر البالغ لجهلهم أمور التجارة ولأنهم في كل حال مغلوبون على أمرهم ، بعيدون عما

---

(١) ، (٢) المخصص والقاموس .

يباع ويشترى لهم ، ولعلهم إن حضروا البيع رفعوا عن أنفسهم بعض الحيف . فلما كان الاسلام نهى عن جميع هذه المفاسد جملةً فقد جاء في صحيح البخاري [1] : قال رسول الله ﷺ :

« لاتلقّوا الركبان ، ولا يبعْ بعضكم على بيع بعض ، ولا تناجشوا ، ولايبع حاضرٌ لبادٍ ، [2] ولا تُصَرّوا الغنم . ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، إن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر . » وقد فسر ابن عباس قوله (لايبع حاضرلباد) بقوله : لايكن له سمساراً .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر : ان رسول الله ﷺ قال : « من اشترى طعاماً فلا يبعه حتى يستوفيه ويقبضه » قال ابن عمر : « وكنا نشتري الطعام من الركبان جزافاً (اي بلا كيل ولا وزن ولا تقدير) فنهانا رسول الله ﷺ ان نبيعه حتى ننقله من مكانه . »

ثم شرع لهم السهولة في المعاملة والتبيين في البيع كما في حديث :

« البيّعان بالخيار مالم يتفرقا ،فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما . »

وهناك مَبيعاتٌ خاصة لأهل الجاهلية حرّمها الاسلام وحرّم

(١) طبع ليدن ٣٤ كتاب البيوع ٢٧
(٢) للحديث زيادة من رواية جابر : دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض

ثمنها ، اهمها الخمر ، فسيأتي ان الخمر من اهم ما كان يتجر به العرب وقد اشتهرت مدن معينة في الجاهلية بخمرها الطيب اللذيذ ،ولا مندوحة عن ذكر غـزة وأذرعات وأندرين وهجر والحيرة .. وغيرهن من البلدان التي تحمل خمرها قوافل العرب التجارية وقد قال الشاعر :

إذا ذقت فاها قلت طعم مُدامـة
مُعتَّقةٍ ممـا يجيء به التَّجْرُ [١]

وهي مورد تجاري عظيم لم يكن يستغني عنه العرب ، فلما حرّم الله على المسلمين الخمرة حرّم أيضاً ثمنها حسماً للداء ، فلا يجوز بيعها ولاشراؤهـا كما نهى عن ثمن بقيـة المحرمات ففي صحيح البخـاري : « نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن.»

و « أن رسول الله ﷺ حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام [٢] »وعن عائشة قالت : « لما نزلت آخر البقرة قرأهن النبي في المسجد ثم حرّم التجارة في الخمر . »

لكن التجارة الممقوتة جداً ،التي يصم عارها بعض أهل الجاهلية هي البغـاء : كانوا يؤجرون إماءهم للرجال ويأخذون هم مايكتسب لهم جواريهم من هذا الكسب المرذول . واستمرت هذه العادة حتى

(١) التجار (٢) كتاب البيوع (٤٣) طبعة ليدن

جاء الاسلام وكانت الهجرة . ذكر المفسرون أن لعبد الله بن أبي بن سلول جاريتين يقال لهما مُسيكة ومُعاذة ، وكان يكرههما على الزنى لضريبة يأخذها منهما (وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية) . فلما جاء الاسلام قالت مُعاذة لمسيكة : « إن هذا الأمر الذي نحن فيه لايخلو من وجهين : فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه . » لكن عبد الله هذا قال لهما : « ارجعا فازنيا . » فقالتا : « والله لانفعل ، قد جاء الاسلام وحرم الزنى . » فأتتا رسول الله ﷺ وشكتا إليه أمرهما فأنزل الله هذه الآية :

« وَلا تُكْرِهوا فَتَياتِكُمْ عَلى البِغاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغوا عَرَضَ الحَيوةِ الدُّنيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكْراهِهِنَّ غَفورٌ رَحيمٌ [1] . »

(١) سورة النور ٢٤ الآية ٣٣

ربا الجاهلية

لست هنا بصدد بيان الربا وأنواعه ومضاره على التجارة والعمران والأخلاق ، وما يعقب من خراب البيوت وتقويض الأسر وفقدان الثروة والشقاء والدمار ، فذلك معروف أمره ، مستوفى شرحه في مظانه من كتب الحديث والتفاسير ،عدا مايعاين الناس في حياتهم من شروره على المرابين أنفسهم قبل غيرهم ، فحوادثه نشاهدها في كل يوم بالعشرات . وإنما أريد الاشارة الى مااستفاض منه في الجاهلية حتى أتى الاسلام فاجتثه من جذوره .

يرجح أن الذي أشاع الربا في جزيرة العرب هم اليهود الطارئون عليها ، الذين اتخذوا من بعض قراها ومدنها مستعمرات عالجوا فيها الزراعة فأصابوا منها الغنى ولم يكن لعرب الحجاز فيها كبير نصيب . فكان العربي إذا أعوزه المال اقترض ورهن عند دائنه درعه أو ثيابه أو سلاحه ، وأحياناً تشتد به الحاجة ويشتط الدائن فيرهن ولده

إلا أن الربا لم يقتصر على اليهـــود ، بل مازال ينتشر في مكة والطائف وخيبر ووادي القرى ويثرب حتى ألفه النـاس وصاروا يأخذون به ويعطون .

اشتهرت الطائف بربأها ولعل هذه الشهرة كانت لمكان اليهود منها فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري (ص ٥٦) أنه «كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية ..»

ويذكر المفسرون «أن أربعة أخوة من ثقيف كانوا يداينون بني المغيرة بن عبد الله بن عمير بن عوف الثقفي، وكانوا يرابون، فلما ظهر النبي ﷺ على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة بنو عمرو الثقفي وطلبوا رباهم من بني المغيرة. فقال بنو المغيرة: «والله مانعطي الربا في الاسلام وقد وضعه الله عن المؤمنين.» فاختصموا الى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة فكتب الى النبي بقضية الفريقين وكان ذلك مالا عظيماً فأنزل الله: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ..»[1]

هذا وقد كانت ثقيف صالحت النبي ﷺ على أن مالهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع، وثقيف هم أهل الطائف.

ولم تقتصر علائق أهل مكة مع أهل الطائف على المرأباة والتجارة بل كان لأهل مكة أملاك بالطائف يصلحونها ويستغلونها فقد «كان

(١) سورة البقرة ٢/٢٧٨

للعباس أرض بالطائف وكان الزبيب يحمل منها فينبذ بالسقاية للحاج وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها .. وصارت أرض الطائف مخلافاً من مخاليف مكة[1] »

وكان بالمدينة ـ وفيها كثير من اليهود ـ ربا منتشر، وعرف من مرابيها من أصبح ذا غنى فاحش :

جاء في خزانة الأدب : «كان أُحَيْحة بن الجُلاح كثير المـال شحيحاً عليه ، يبيع بيع الربا بالمدينة ، حتى كاد يحيط بأموالهم ؛ وكان له تسع وتسعون بئراً كلها ينضح عليها وكان له .. الخ[2] »

ومن مراجعة كتاب الصلح الذي كتبه رسول الله ﷺ لأهل نجران نعلم أن غير اليهود لهم نصيب يحملونه من أمر الربا هذا ، فقد شرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به « ومن أكل منهم ربا من ذي قِبَل فذمتي منه بريئة . » ولعل نصارى نجران كانوا قد بلغوا من التعامل به مبلغاً صعب عليهم فيه تنفيذ هذا الشرط ، لما تأصل فيهم من اعتياده ، حتى استفحل أمره فيهم أيام خلافة عمر بن الخطاب وشاعت لهم أموال أفادوها منه وخاف عمر العاقبة فأجلاهم[3]

(١) البلاذري ج١ ص ٥٦ (٢) خزانة الأدب ٣/٢٣٧ (المطبعة السلفية)
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ١/٦٦

تسرب الربا إلى أهل مكة وتعاملوا به وعُرف رجال منهم من أهل الشرف والرئاسة بتعاطيه كالعباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان[1] وغيرهم . ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فشوّها قبحها فلم يترفع عنها أحد ، وكانت الضرورة والحاجة شر معوان على تعاطيه وبذلك انحصر الغنى في طائفة معينة وعم الفقر من عداهم .

بلغ اليهود في هذا الميدان شوطاً لم يلحقهم فيه لاحق قط ، لما تركز فيهم من الثراء وما حذقوا من حسن التأتي في تثمير أموالهم ، واستغلال الفقر والسذاجة في العرب ، فاعتقدوا الأرضين وبنوا الحصون ثم دأبوا في جمع المال وتنميته وإدانته حتى كثرت الرهائن عندهم واشتطوا في طلبها وافتنوا في تنويعها افتناناً شائناً ، فصاروا يرتهنون الأولاد ويطلبون النساء أيضاً ولا يرعون في سبيل المادة حلفاً ولا آصرة : جاء في سيرة ابن هشام (٢: ٣٤١) أن أبا نائلة سلكان بن سلامة أتى أحد أشراف اليهود وأغنيائهم ، كعب بن الأشرف وكان أخاه من الرضاعة فقال له : « إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك . » فقال كعب : « أترهنوني نساءكم ! »

(١) انظر تفسير الخازن عند قوله « وذروا ما بقي من الربا » من سورة البقرة

قال : « كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم ؟ » قال كعب « أترهنوني أبناءكم ؟ » قال : « لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة مافيه الوفاء . »

يريد أبو نائلة بقوله : « على مثل رأيي » : تضايقهم من مجيء الرسول والمسلمين ومزاحمتهم في بلدهم (المدينة) على العيش ، فلينظر امرؤ كيف لم يشفع شيء عند كعب في سبيل المادة ، لامشايعة القوم له (ظاهراً) في هواه وعداوته لرسول الله ، ولا أخوة الرضاعة ، لاشيء إلا المال والربح ، المال وحده هو معبود اليهود منذ خلقوا إلى يوم يبعثون .

هذا الغلو من اليهود في الربا وتعاطيه منذ القديم هو السبب في تشنيع القرآن الكريم لفعلتهم وتعنيفهم عليها حين يقول :

« فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً[1] » .

---

(1) سورة النساء ٤/١٥٨ ، ١٥٩

أتى الإسلام وطعمة كثير من الجاهليين ومأكلهم من الربا فامتنع قسم منهم من الاتجار لأن الربح قد حصل لهم بأخف مؤونة وأيسر مشقة : فلا أسفار ولا تعرض لأخطار ولا جهد ولا سعي . وكف أكثرهم بطبيعة الحال عن الإقراض بلا فائدة واعتاد المدين إعطاء الربا راضياً ، غير واجد فيه غبناً ولا شناعة وقال كثير منهم : «سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير .» هونوا بذلك على أنفسهم ورأوا البيع والربا سواء في الزيادة حتى أكذبهم الله وعنفهم أشد تعنيف بقوله : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوا . »[1]

ولما حرم الإسلام الربا جملة واحدة كان لا بد من تشريع حاسم للعلاقات التي سبقت إسلام المتعاملين بالربا التي كانت لا تخلو من الارتباط بينهم من كان يتعاطى التجارة وغيرها من شؤون الكسب ووقف الناس بإزاء مشكلة جديدة : هل يعطون نقودهم على ما اتفقوا قبل الإسلام إذا حل الأجل أم يتقيدون بالأحكام الجديدة لأن ما كان منه فاسداً حسب هذه التعاليم ؟ وإذا كان الأمر الثاني فلا بد حينئذ من

(١) سورة البقرة ٢/٢٧٥

غبن - في زعمهم - يلحق الدائن . وقد عرضت قضية من هذا الشكل فنزل الوحي بالحل القاطع :

ذكر الطبري في تفسيره : أن العباس ورجلاً من بني المغيرة (لعله خالد بن الوليد المصرح به في تفسير الخازن) كانا شريكين في الجاهلية ، سلّفا في الربا الى أناس من ثقيف وهم بنو عمرو بن عمير فجاء الاسلام ولهما أموال عظيمة في الربا . وذكر الخازن أن عثمان ابن عفان والعباس بن عبد المطلب كانا أسلفا في التمر فلما كان وقت الجُذاذ قال صاحب التمر لهما : « إن أنتما أخذتما حقكما لم يبق لي مايكفي عيالي ، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ؟ » ففعلا ، فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهما .

وسواء أكانت الحادثة الأولى أم الثانية سبباً في نزول الآية ، إن من المعقول أن تتعدد الحوادث على هذا النسق لتفشي المعاملات فيما سبق على الربا ، وحلول الآجال أجلاً بعد أجل ، وتحير الدائن والمدين معاً بين إمضاء التعاقد السابق للتحريم ، والاذعان والكف عما نهى الله عنه ، أيٌ كان فقد نزل قول الله فاصلاً في هذه المسائل وأشباهها بهذا التشريع الحاسم الذي لاهوادة فيه :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَتَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (١) » .

فسمع العباس وخالد وعثمان وغيرهم وأطاعوا وأخذوا رؤوس أموالهم . وكتب رسول الله يجيب عتاباً عامله على مكة بهذه الآية وقال له في آخرها : « إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب . (٢) »

هذا ما كان من الربا في الجاهلية عامة : يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى فاذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء ، زاده أو خر عنه . إلا أن هنالك رباً خاصاً كان من أثقل الأعباء على المعسرين وهو ربا الأضعاف الذي أشار القرآن الكريم إليه بقوله : « لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً .. الآية (٣) » وذلك أن الرجل منهم في الجاهلية يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حل الأجل وكان الذي عليه الدين ضائقاً لايجد مايؤدي به دينه قال صاحب المال : « زدني في المال حتى أزيدك في الأجل . » فيقول الآخر : « أخر عني دينك وأزيدك على مالك كذا . » فيفعلان ويكون الدين

(١) سورة البقرة ٢/٢٧٨، ٢٧٩ (٢) انظر تفسير الطبري
(٣) سورة آل عمران ٣/١٣٠

مئة فيصير الى قابل مئتين مثلاً ، وربما حل الأجل الثاني والذي عليه الدين في إعساره ذاك ، لم يتخاص منه ، فيؤجله الدائن أجلاً ثالثاً ، ويزيد المال عليه وربما فعلوا ذلك مراراً حتى تصير المئة بعد سنين مئات.

وذكر ابن حجر في الزواجر مايفيد أن ربا الجاهلية كان الإنساء فيه بالشهور ، وعلى ذلك يسهل علينا إدراك هذا التضعيف فيه قال : « وربا النسيئة الذي كان مشهوراً في الجاهلية لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره الى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ورأس المال باق بحاله . فإذا حل الأجل طالب برأس ماله ، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل . »

ذ تضعيفهم في العين (النقود) ، وأما تضعيفهم في أسنان الابل فقد شرحوا ذلك بما يأتي :

« إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول : (تقضيني أو تزيدني) فإذا كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله الى السن التي فوق ذلك : ان كانت ابنة مخاض (وهي التي دخلت في السنة الثانية) يجعلها ابنة لبون (وهي التي دخلت في الثالثة) في السنة الثانية ثم حقة (وهي التي تدخل في الرابعة) ثم جذعة (وهي التي دخلت في الخامسة) ثم رباعياً ، وهكذا .. الى فوق »

* * *

بدأت العلائق التي نشأت عن تعامل الجاهلية تضمحل بقاياها مع الزمن . وقد تشدد الاسلام بما يرتبط منها بالربا تشدداً حازماً ، وورد فيها من الوعيد والتهديد مالا مجال لبسطه هنا . وكان خاتمتها ماجهر به رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، في خطبته البليغة المأثورة التي كانت فاصلة بين آثار الجاهلية وعهد جديد ، والتي بيّن فيها أهم الأمور الجسام التي يريد من أمته التمسك بها . وكان في طليعتها دون شك ، الربا فقال فيه :

« ألا وإن كل ربا الجاهلية موضوع كله ، وأول ربا أبتدىء به ربا عمي العباس بن عبد المطلب « لكُمْ رؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاتَظْلِمُونَ وَلاتُظْلَمُونَ »[1] » .

(١) تيسير الوصول ٦٩/١

المحلون والمحرمون والحمس

كان العرب يعظمون أمكنة خاصة وشهوراً معينة ، لا يسفكون فيها دماً ، ولا يتجاوز بعضهم على بعض حتى يزايلوا المكان الحرام ، أو ينقضي الشهر الحرام .

وكان من بعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الاشهر الحرم ، فكانت سوق حُباشة وسوق صُحار في رجب ، وحضرموت في ذي القعدة ، وعكاظ ومجنة وذو المجاز في ذي القعدة وذي الحجة ، ومعلوم أن الاشهر الحرم أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، تضع فيهن العرب سلاحها فلو لقي المرء قاتل أبيه ماوسعه التعرض له بسوء ، حتى إن تلقيبهم رجب بالأصم ، كان لأنه لا ينادى فيه : (ياصباحاه)[1] ولا (يالَفلان) ، فينقطع فيه صوت الأسلحة .

وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام . ولهذا سمت العرب حروب قريش وهوازن في عكاظ بحروب الفجار لفجورهم باقتتالهم في الشهر الحرام .

---

(١) انظر القاموس .

ولما ترصدت سرية عبد الله بن جحش عير قريش وكانت تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارتهم فيها عمرو بن الحضرمي ، بنخلة بين مكة والطائف ، وظفرت بالعير وقتلت ابن الحضرمي بعد أن هاب قوم الإقدام على القتل لأنهم كانوا في آخر يوم من رجب ، وأقبلوا على رسول الله ﷺ بالعير وبأسيرين ، امتنع رسول الله ﷺ عن أخذ الخمس وقال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام[1] . » وسُقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا .

وأيقنت قريش أنها وقعت على ما تعيب به محمداً وأصحابه عند العرب عامة لما انتهكوا من حرمة الشهر فجعلت تشيع قولها :

« قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . » وأكثروا من ذلك لما فيه من تهييج العرب وتغيير قلوبها على صاحب الدعوة وتصويرها له في صورة المستحل الذي لا يرعى حرمة للشهر المحرم كما لم يرعَ من قبل حرمة آلهتهم . وتناست قريش ما كانت صنعت مع النبي وأصحابه من إيذاء وتعنيف حتى اضطروهم الى الهجرة الى الحبشة ثم

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٩٤

الى المدينة . ثم تناست ماعاملت به المستضعفين من المسلمين من إقامة في الهاجرة تصهرهم الشمس ، ومن إلقاء الصخور عليهم ، وتهافتهم على هؤلاء ضرباً وإيلاماً حتى يفتنوهم عن دينهم . ثم تنويعهم أساليب العذاب لهم ولأهليهم . فلما أشفق المسلمون من صنيع سرية عبد الله ابن جحش واستطالة ألسنة قريش فيهم أنزل الله هذه الآية :

« يَسْئَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فيهِ كَبيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ... الآية[1] » .

وقال عبد الله بن جحش يردّ على قريش :

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودكُمْ عما يقول محمد ... وكفرٌ به ، والله راءٍ وشاهد ،
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يُرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دماً وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غل من القد عاند[2]

(١) سورة البقرة ٢/٢١٧
(٢) ذكر ابن هشام أنها تنسب أيضاً لأبي بكر ، ومهما يقل في نسبتها =

قال المرزوقي : «كانت هذه الاسواق منها ما يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها ، ومنها مالا يقوم في الاشهر الحرم ويقوم في غيرها ، لكنه لا يصل إليها أحد إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير .»

ولا يخفى أن الأمن من أوكد الاسباب في انتظام أمور التجارة ، فلولاه ما أخرج بائع بضاعة ، ولا تظاهر مشترٍ بملك نقود. ومن هنا كان لقريش تلك الزعامة التجارية لأنها تسكن الحرم حيث الأمن والسلم ، وحيث لا تحدث أحداً نفسه بالبغي والعدوان . فكانت تجارات العرب أروج ما تكون حيث يستتب الأمن وتعم الثقة.

رعاية هذه الحرم على ما تقدم ليست مطردة على إطلاقها ، بل هي كذلك في الأعم الاغلب ، إذ ان هناك قبائل معدودة لا تعرف لهذه المحرمات حقاً ، فكانت تسفك الدم ولو في الشهر الحرام أو البلد الحرام . علمت قريش أمر هذه القبائل فكانت تسلك في طريقها على القبائل التي تحفظ لها حرمتها وإذا وردت على من لا يرعاها تخفرت بخفير.

ونحن مدينون للمرزوقي الذي له الفضل باطلاعنا على ما لقريش من منزلة سامية في نفوس قبائل العرب وخاصة الذين يكونون على

= فإن فيها الجواب الطبيعي الذي لا يعقل إلا أنهم أجابوا به قريشاً .

واقد : هو ابن عبد الله التميمي الذي رمى ابن الحضرمي فقتله ؛ وعثمان ابن عبد الله : أحد الأسيرين ؛ والغل : ما يشد على العنق . والقد . السير من جلد.

طريقها ، كما علمنا منه القبائل التي لاتجتاز بهـــا قريش إلا متخفرة . كانت قريش في خروجها من مكة قاصدة دومة الجندل إذا « أخذت على الحزن لم تتحفز بأحد من العرب حتى ترجـع . وذلك أن مضر عامتهم لاتتعرض لتجار قريش ولا يتهجمهم حليف لمضري ، مـع تعظيمهم لقريش ومكانهم من البيت . وكانت مضر تقول : قد قضت عنا قريش مذممةماأورثنا أبونا إسماعيل من الدين . وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم . فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد . حتى يخرجوا على طيء فتعطيهم وتدلهم على ماأرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد . فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فيجيز لهم ذلك ربيعة كلها . »

هذا هو نظر أغلب العرب إلى قريش : تعظيم لهم واحترام ، لمكانهم من البيت ولأنهم سدنته والقائمون بأمور الحاج أيام الحج . أذعنت لهم بذلك العرب وعرفوا لهم حقوقهم لأنهم قوّام الدين الذي دان به العرب قبل الإسلام وهم لهم تبع . وقد استغل القرشيون هذه المكانة القدسية ، فضربوا في جزيرة العرب شمالاً وجنوباً متاجرين لايعرض لهم ولا لأموالهم أحد .

وكانوا بطبيعة الأمر مسيطرين على الاسواق الثلاث الكبرى التي تقوم قريباً من مكة وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز . وفيها يجتمع أكبر حفل من بلاد العرب من جميع أطرافها لوقوع هذه الأسواق في أيام الحج وقريباً من أمكنته .

ويظهر أن قريشاً لم تكتف بما لها من نفوذ في قبائل العرب بل أرادت أن تصبغ نفسها صبغة تمتاز بها منهم في الدين نفسه ، كأنهم طبقة خاصة تتمتع بحقوق ليس لغيرهم أن يتمتع بها ، ورمت من وراء ذلك إلى أن تمكن هيبتها في نفوس الأعراب الغفل . أقصد بذلك مايعرف في كتب السير بحديث (الحُمْس) :

مادة (حمس) في اللغة تفيد الشدة والصلابة في الدين والقتال . تلقبت قريش بالحمس هي وأحلافها من كنانة ، وخزاعة ، وجديلة ، وكلاب وكعب وعامر بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة [1] . ومن تبعهم في الجاهلية ، وخلاصـــة هـذا الحديث في بدعتهم تلك أنهم قالوا فيما بينهم .

« نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنـــا ، ولا تعرف له

(١) العقد ١١٨/٣ ، لأبي عبيدة : « كتاب الحمس من قريش » ـ الفهرست لابن النديم ص ٨٠ . وانظر تعدادهم أيضاً في (المحبر) لمحمد بن حبيب ص ١٧٨

العرب مثل ما تعرف لنا . فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحَرَم فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم وقالوا : قد عظموا من من الحِل مثل ما عظموا من الحَرَم . » فأجمعوا على هذا الرأي وتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها كما يفعل سائر العرب . وهم مع إقرارهم أن الوقوف بعرفة من مشاعر الحج ودين إبراهيم ، ومع أنهم يأمرون العرب عامة بالوقوف والافاضة ، ابتدعوا لأنفسهم البقاء في الحرم واعتذروا لذلك بقولهم : « نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس . » و« لا نفيض إلا من الحرم ، نحن قطين الله فـــلا نخرج من حرمه »[1] وجعلوا لأنفسهم حق تمييز غيرهم بما ميزوا به أنفسهم . ثم ترقوا في الامتياز فحرموا على أنفسهم ائتقاط الأقط وسلء[2] السمن ماداموا حُرُماً ، كما حرموا الاستظلال بغير بيوت الأدم مُحْرمين ، وكما حرموا على أنفسهم أن يدخلوا بيتاً ماداموا محرمين . ثم حظروا على غيرهم الأكل من غير طعام الحرَم ، فمن جاء بطعام من غير الحرم ، وكان حاجاً أو معتمراً حرم عليه الأكل منه . ولم يقتصر تحكمهم بغيرهم على هذا ،

(١) تيسير الوصول ١/٣٠٥ ، والقطين : الجيران

(٢) سلأ السمن طبخه وعالجه ، والأقط : شيء يتخذ من المخيض الغنمي وأقط الطعام : عمله به . « القاموس »

بل تعداه إلى الثياب فحجروا على كل إنسان من غيرهم الطواف بالبيت أول مايقدمون إلا بثياب الحمس ، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا عراة ومن طاف في غير ثياب الحمس حرمت عليه بعد الطواف فألقاها ولم ينتفع بها قط [1] .

وكانت العرب إذ أحرمت لم تدخل البيوت من أبوابها وإنما تنقب في ظهورها نقباً فتدخل منه وتخرج ويزعمون أن ذلك من البر ، إلا الحمس فإنهم امتازوا من بين سائر العرب بدخول البيوت من أبوابها وهم محرمون . وجروا على ذلك حتى في الاسلام وكانوا يستنكرون من غير الحمس أن يدخل أحد بيته محرماً من بابه ، فيذكرون أنه « بينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري فقالوا يا رسول الله إن قطبة رجل فاجر وإنه خرج معك من الباب !! فقال له : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : « رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت » قال : « إني رجل أحمسي » قال له : « فإن ديني دينك » ورووا مثل هذا الحادث لصحابي اسمه رفاعة لما خرج مع النبي من الباب قالوا « يا رسول الله نافق رفاعة » [2]

(١) انظر تفصيلاً أوفى من هذا في (المحبر) لمحمد بن حبيب ص ١٨٠
(٢) انظر لباب النقول في أسباب النزول

استغلوا سذاجة من حولهم من الأعراب لينفردوا بالحرمة والتقديس فيأمنوا بعدها على تجارتهم ويستفيدوا من هذا التمويه ثراء وبسطة عيش . فلما جاء الاسلام دكت الامتيازات كلها جملة واحدة ونزل قول الله لقريش :

« ثُمَّ أفيضُوا منْ حَيْثُ أفاضَ النّاسُ »[1] كما نزل قوله تعالى في نسخ إتيان البيوت من ظهورها : « ولَيْسَ البرُّ بأن تأتُوا البيوتَ مِنْ ظهورها ولكنّ البرَّ مَنِ اتَّقى ، وأتُوا البيوتَ مِنْ أبوابها »[2] فشعائر الدين بعد هذه الآية يذعن لها الناس جميعاً بلا تمييز .

واستوى في الحج القرشي وغيره بعد أن كانت قريش تنفرد دون جميع الحجاج إذا خرجوا من مكة يوم التروية وترووا من الماء ، فتنزل الحمسُ أطراف الحرم من نِمَرة يوم عرفة ، وتنزل الحِلة عرفة . وقد أجمع أصحاب السِّيَر أن رسول الله ﷺ وقف مع الناس بعرفة في سنته التي دعا فيها قبل الهجرة ولم يقف مع الحمس في طرف الحرم . فكان هذا مما جلب نظر الناس ، وروى ابن هشام عن جبير[3] بن

(١) سورة البقرة ١٩٩/٢

(٢) سورة البقرة ١٨٩/٢ وانظر المصدر السابق

(٣) كان جبير هذا من أصحاب التجارات المشهورين ، ولما انقضت بيعة ـ

مطعم أنه قـال : « أضللت بعيراً في يوم عرفة « فخرجت أقصه وأتبعه بعرفة إذ أبصرت محمداً بعرفة ! فقلت : هذا من الحمس ، فما يقفه هاهنا؟! فعجبت له[1] . »

تزيد قريش في دينها أو في ابتداعها على الأصح ، علّم بعض الاحتيال ، ومازال الدين ـ كما عليه الوطنية في أيامنا ـ مبتلى بكثر المرتكبين والمحتالين ورواد المنافع . فكان إذا أحدث أحـد العرب حدثاً وخاف على نفسه وجد في حرمة الشهر وحرمة الحرم خير معاذ يعتصم به من ان يناله القصاص . والظاهر أن أمثـال هذه الحوادث تكررت حتى حلت من حياة العرب الاجتماعية محل العادات المستحكمة فقد ذكر الأزرقي أنه كان « من سننهم أن الرجل يحـدث الحدث : يقتل الرجل أو يلطمه أو يضربه فيربط لحاء من لحاء[2] الحرم قلادةً في رقبته ويقول : « أنا ضرورة . » فيقال : « دعوا الضرورة بجهله وإن رمى بجَعْره[3] في رحله . » فلا يعرض له أحد . فقـــال النبي

ـ العقبة وعرفت قريش أمرها وأرسلت تتعقب اليثربيين ، ووقع في قبضتها سعد ابن عبادة ، أجاره جبير بن مطعم والحارث بن أمية ، إذ كان سعد يجير لهما قوافلها التجارية كلما مرت بالمدينة .

(١) انظر ج٢ ص ١٩٤ (٢) اللحاء ما على العود من قشر، بالمد والقصر لغة .

(٣) الجعر ما يبس من العذرة

ﷺ « لا ضرورة في الاسلام ، وإنه من أحدث حدثاً أخذ بحدثه . »[1] اهـ

إذاً أضفت هذه التزيّدات الى مافي نفوس العرب من نفرة للخضوع حتى للدين ، استطعت أن تستسيغ وجود قبائل تستهين بالحرمات وتتجاهل مكان قريش فتراها كغيرها من سائر العرب دماء وأموالا ، بل تذهب أبعد من ذلك فلا ترعى حرمة شهر ولا أيام حج . ومن هنا تخوّف الناس بعض التخوف من ورود الأسواق عزلاً ، ولو كانت مواسمها في الأشهر الحرم . فإن كنت علمت أن عكاظ ومجنة وذا المجاز ، الاسواق الكبرى للعرب تقام في الاشهر الحرم تعلم أن الامن فيها هو أكثر حالها والاغلب من أيامها وأن ما وقع فيها من أحداث استحلت فيها حرمتها ، صادر ممن لا يرى لها حرمة ، وهم قلة قليلة قلما يقيم المؤرخون لها حسابا .

انقسم العرب إزاء حرمة هذه الاسواق أقساماً ثلاثة :

١ ـ فأما قسم فقد استحلوا المظالم فيها في أشهر الحج ، ففعلوا المناكر وأحلوا الحرام وفتكوا وسرقوا ولم يحفظوا للمكان ولا للشهر ولا لقريش حرمة ما ، فسموا [المحلّين] لما استحلوا من الحرم

(١) اخبار مكة ص ١٣٢ .

وهم قبائل من أسد وطيء وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة [1] وأناس من خثعم وقضاعة . وغير هؤلاء أيضاً : ذؤبان وصعاليك وخلعاء ، ممن نفاهم قومهم وتبرؤوا منهم .

٢ ـ وأما القسم الثاني فأقوام حفظت للمكان قدسه وللشهر حرمته وللقوّام على البيت منزلتهم ، فكفت عن الفتك والسرقة وسائر المظالم وأنكرت على المحلين استخفافهم ، ونصبت أنفسها لنصرة المظلوم وحقن الدماء ومنع الأذى فسموا : [الذادة المحرمين] وهم أغلب العرب .

٣ ـ والقسم الثالث « أهل هوىً شرعه لهم صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم ، فإنه أحل قتال المحلّين [2] . » فيلبسون سلاحهم ليدفعوا عن الناس أذى المحلين من الفريق الاول . وكان في هؤلاء أيضاً قبائل من طيء وخثعم ، وناس من بني أسد بن خزيمة .

أما سائر العرب ممن لم نعدّ ، فهم في صف المحرّمين : يضعون أسلحتهم في الأشهر الحرم و «كان الرجل إذا خرج من بيته حجاً أو داجاً (والداجّ التاجر في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم قلّد

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢

(٢) الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢

وأشعر [١] فيكون ذلك أماناً له في المحلين . وكان الداجّ إذا انفرد وخشي على نفسه ولم يجد هدياً ، قلّد نفسه بقلادة من شعر أو وبر ، وأشعر نفسه بصوفة فيأمن بها . وإذا صدر من مكة تقلد من لحاء شجر الحرم . وكان الداج وغيره إذا أمّ البيت وليس له علم بذلك ولا هو في سيماء المحرم أخذ المحلون ما معه . وكانت العرب جميعاً تنزع أسنتها في الأشهر الحرم ، غيرَ المحلين والذين يقاتلونهم ، فإنهم كانوا يقاتلونهم حتى في الأشهر الحرم . [٢] »

خير تلك الطوائف الطائفة الثالثة التي نعتها المرزوقي بأنها أهل هوًى : إذ لا يكفي أن يكون الانسان محرّماً يرعى ذمام الشهر والمكان ، كافّاً أذاه عن غيره وهو ينظر إلى المحلّين يسفكون الدم الحرام وينهبون المال الحرام . ليس من البر أن يترك هؤلاء وانتهاكهم بل البر كل البر أن يكون المرء محرّماً ثم مدافعاً عن المحرّمين شر هؤلاء المعتدين . وبذلك تستأصل شأفتهم ويحسم ضرهم . أما كف

(١) أهدى ساق الهدْي وهو ما يهدى إلى الحرم من النَّعَم . وأحرم دخل بالحج . وقلّد : من تقليد الهدْي وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم أنه هدْي فيكف الناس عنه . وأشعر البدَنة (الناقة) إشعاراً حزّ سنامها حتى يسيل منه الدم فيُعلم أنها هدي .

(٢) الأزمنة والأمكنة ١٦٦/٢

اليد والاقتصار عليه بينما العين تنظر مكان المستيحين ومدى أذاهم في الآمنين البريئين ، فإنه إن لم يكن إثماً لم يكن براً وإن دان به أكثر العرب، ولعل خير ما يمثل هؤلاء كلمة الزبير بن عبد المطلب أحد الحمس وكان شاعراً خطيباً سيداً جواداً :

ولولا الحُمْس لم يلبس رجال ... ثياب أعـــزة حتى يموتوا
ثيابهم شِمـــال أو عَباء ... بها دنس كما دِنس الحميت[1]
ولكنا خلقنا إذ خلقنا ... لنا الحِبَرات والمسك الفتيت
ويقطع نخوة المختال عنا ... رُقاق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لا عيب فيــه ... إذا لقي الكريهة يستميت[1]

بقي أمر ، وهو أي الحرمتين العربُ أكثر رعاية لها : آلشهر أم الحرم ؟ فإن المرء ليحب أن يعرف الواقع ليستطيع أن يتمم فكرته عن مفاضلتهم بين الحرمتين . ومن يتتبع ما وراء الحوادث يعرف أن العرب أرعى لحرمة الحرم منها لحرمة الشهر ، ولنا على ذلك أدلة :

١ ـــ منها أن حرمة الحرم لا تكلفهم إلا رعاية مكان محدود مدة إقامتهم فيه فهي ميسورة لهم وقلَّ أن حفظ التاريخ انتهاكاً لحرمـــة

(١) ص ٧٢ رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ، الحميت : الزق الصغير ، وعاء السمن مُتَّن بالرُبّ ـ القاموس

الحرم . وليس كذلك حرمة الشهر فإن أمد رعايتها طويل جداً وهو ثلث السنة فيجب عليهم أن يكفوا عن الاعتداء مدة أربعة أشهر في أي بقعة كانوا وهو قيد صعب على طبيعة العربي النفور من القيود .

٢ — كثير من القبائل انتهكت حرمة الشهر ولم تجرؤ على انتهاك حرمة الحرم على حين أن ثأرها وشرفها — وأنت تعلم قيمتهما عندهم — كانا يتقاضيانها غض النظر عن حرمة الحرم . كان من هؤلاء القبائل قريش نفسها . فسيمر بك في حرب الفجار التي كانت بين قريش وأحلافها من جهة وهوازن وقيس وأحلافهما من جهة أخرى ، أن القوم اقتتلوا بعكاظ في الشهر الحرام فاستووا جميعاً في انتهاك حرمته مع أن قريشاً هي القيّمة على دين العرب بحكم مكانها من البيت .

إلا أن قريشاً لما انسلت من عكاظ حين أتاها نبأ اعتداء أحد أحلافها على هوازني ، خوفاً من هوازن التي كانت متكاثرة في السوق ، علمت هوازن بالأمر فاتبعت قريشاً فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فامسكت عنهم هوازن رعاية لحرمته . فهم جميعاً يرون للحرم من الرعاية مالا يرون للشهر .

٣ — للعرب أساطير تقص العقاب الشديد الذي نزل بمن لم يبال

حق الحرم ، وليس لهم في قوتها أساطير تعاقب من انتهك حرمة الشهر . واقرأ إن شئت حديث إساف ونائلة[1] اللذين مسخا صنمين لأنهما لم يحفظا للبيت حرمة ، واقرأ إن شئت الأحداث التي ترويها سيرة ابن هشام (١ : ١٨ فما بعد) في ذلك والأشعار ، وكلها متضافرة في بيان تعظيم حرمة البيت والعقاب الشديد الذي حل بمن أراد انتهاكها .

٤ ـ أمر النسيء وهو تلاعب محض بالتقاليد التي تخص الشهر ، ولم يؤثر لهم مثله ولا قريب منه فيما يخص الحرم . جاء في أمالي القالي :

[أنهم كانوا إذا صدروا عن منى قام رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال : « أنا الذي لا أعاب ولا يرد لي قضاء . » فيقولون له : « أنسئنا شهراً » أي أخّر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر . وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم) لا تمكنهم الإغارة فيها . لأن معاشهم كان من الإغارة : فيحلّ لهم (نعيم بن ثعلبة) المحرم ويحرم عليهم (بدلاً منه)

(١) في كتاب الأصنام للكلبي : أن إساف رجل من جرهم يقال له إساف ابن يعلى ، ونائلة بنت زيد من جرهم وكان يتعشقها في أرض اليمن ، فحجا فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجر بها فيه ، فمسخا . فأصبحوا فوجدوهما ممسوخين فوضعوهما ليتعظ بهما الناس . فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها . اهـ . ثم صارت قريش تنحر عندهما النسائك

صفراً ، فإذا كان في السنة المقبلة حرّم عليهم المحرّم وأحل لهم صفراً ، قال الله عز وجل : « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ .. الآية[1] »

وقال الشاعر :

ألسنا الناسئين على معـــد شهور الحل نجعلها حراماً][2]

هذا وقد وقر في نفوس العرب « أن مكة لا تقر فيها بغياً ولا ظلما ، لا يبغي فيها أحد إلا أخرجته ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه[3] . » وذهب الزرقاني إلى أنها سميت (بكة) لأنها تبكّ (تدقّ) أعناق الجبابرة .

فللحرم في صدورهم رهبة لا يدانيه فيها غيره .

رأيت أن اسم الحرم الذي تضاف إليه قريش ، كان خير حارس لتجارتها وعيرها . تسير بفضله آمنة مطمئنة ، تتمتع بالرعاية والحرمة إلى اليمن وإلى العراق وإلى الشام .

وقد ذكر النيسابوري في تفسيره (عند الكلام على الإيلاف)

(١) سورة التوبة ٩/٣٨

(٢) ١ : ٤ طبع دار الكتب المصرية وانظر مروج الذهب للمسعودي ١/٣٦٧

(٣) شرح المواهب (للزرقاني) ١/٩٢

أن أشراف مكة لما كانوا يرتحلون للتجارة في الشتاء والصيف كانوا «يأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب . وإن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وقطّان حرمه ، فلا يجترىء عليهم أحد . » وظاهر أن المقصود بملوك النواحي أمراء العرب في اليمن والعراق والشام . فإن هؤلاء هم الذين يعظمون البيت ، لا قيصر و كسرى .

هذا مكان قريش من العرب في الأعم الأغلب ، ولا حكم للنادر . ولو لم يكن ذلك مستتباً لقريش ما كان هناك من معنى لسعي هاشم في طرق أبواب الأسواق الخارجية يفتحها لقبيله ، بينما تجارته المحلية غير آمنة . فهو وإخوته ما شرعوا بمفاوضاتهم التجارية مع دول الرومان والفرس واليمن والحبشة إلا وقد فرغوا من الاطمئنان إلى الطرق الموصلة إلى هذه الممالك .

الباب الثاني

أحداث قريش التجارية

أ — قريش التجار
ب — ايلاف قريش
ج — حرب الفجار
د — حلف الفضول

١- قريش التجار

- ١ -

في سبب تسمية هذه القبيلة قريشاً أقوال مبثوثة في كتب السيرة والأدب تبلغ العشرين عداً . أما القَرْش في اللغة فهو الجمع وإليك زبدة هذه الأقوال :

١ ــ سموا قريشاً لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم في البلاد ، وذلك حين غلب على مكة[1] قصي بن كلاب الذي سمي مجمّعاً لذلك ، وقال فيه الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمّعاً   به جمع الله القبائل من فهر

٢ ــ أو لأنهم كانوا أهل تجارة وتكسُّب وضرب في البلاد ابتغاء الرزق ، يتقرشون البياعات فيشترونها ولم يكونوا أهل زرع

---

(١) اكبر محطة تجارية داخل جزيرة العرب قبل الإسلام ، لوقوعها وسط إحدى الطريقين التجاريين الكبيرين لجزيرة كما مر بك أول هذا الكتاب، ثم لاتصالها بنجد والعراق ثم الفرس بطرق القوافل ، ومينائها جدة يصلها بالبحر الأحمر وإن كانت رحلات قريش البحرية هي إلى الحبشة فقط عن طريق اليمن .

وضرع : من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه .

٣ ــ أو لأنهم كانوا يفتشون الحاج فيسدون خلتها : فمن كان محتاجاً أغنوه ومن كان عارياً كسوه ، ومن كان معدماً واسوه ، ومن كان طريداً آووه ، ومن كان خائفاً حموه ، ومن كان ضالاً هدوه الخ ..

٤ ــ أو لأن أباهم النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا : تقرّش .

٥ ــ أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا : كأنه جمل قَرِيش أي شديد .

٦ ــ أو لأن قُصياً كان يقال له القرشي .

٧ ــ أو سميت القبيلة بمصغر القِرْش وهي دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها[1] .

٨ ــ أو سميت بقُريش بن يَخْلُد بن غالب بن فِهر وكان

(١) نسبوا هذا القول إلى ابن عباس . جاء في خزانة الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية) : (سأل عمرو بن العاص عبد الله بن عباس : بم سميت قريش ؟ قال : « بدابة في البحر تسمى قريشاً ، لا تدع دابة إلا أكلتها ، فدواب البحر كلها تخافها . »
قال المشمرخ بن عمرو الحميري :
وقريش هي التي تسكن البحـ ــر بها سميت قريش قريشاً) اهـ
وكأن هذا البيت تعريف لغوي منظوم كما تنظم المتون، وزاد آخرون بعده :
قال المشمرخ بن عمرو الحميري :
تأكل الغث والسمين ولا تتــــرك فيه لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد شأن قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا
انظر حواشي الكشاف للزمخشري عند الكلام على سورة « لإيلاف قريش »

صاحب عيرهم أو دليلها ، فكانوا يقولون : قدمت عير قريش ، خرجت عير قريش[1] .

فهذه ثمانية وجوه في هذا الاسم . وكل وجه منها معه شفيع من معنى أو مناسبة ، ينفذ به إلى القبول .

إلا أن منها جميعاً قولين يظفران على التمحيص ، أما الأول فهو أنه أطلق على النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي . وهناك مذهب آخر له شأنه من حيث رواته الثقات ، يرمي إلى أن هذا اللقب أطلق على حفيده « فهر بن مالك ابن النضر » نقله صاحب المصباح عن السهيلي وشارح القاموس عن ابن الكلبي وقال : « إنه مرجع في هذا الشأن . » ، وذكر أيضاً في سيرة ابن هشام . ونحن إذا دققنا في صيغة الرواية عند ابن هشام وصاحب المصباح وجدناها مبنية للمجهول : « ويقال . » وبهذا نعلم أن الراويين ضعفاها فكفيانا بذلك المؤونة[2] . وقول الشاعر :

(١) انظر مادة قريش في القاموس وشرحه تاج العروس وفي لسان العرب وخزانة الأدب ١ : ١٨٩ (السلفية) .

(٢) ومع ذلك فقد قال في العقد الفريد (٢ : ٢٠٣) : « إنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك ، فجد قريش كلها فهر بن مالك ، فما دونه قريش وما فوقه عرب . »

وجاء في خزانة الأدب ١ : ١٩٠ : « قال عبد الملك بن مروان : سمعت أن قصياً كان يقال له القرشي ، لم يسم قرشي قبله . »

أبوكم قُصَي كان يدعى مجمّعاً ‏ ‏ به جمع الله القبائل من فهر[1]

المتقدم الذكر لا يمنع أن يكون ولد النضر جميعاً من قريش والنص على فهر لا يخرج إخوته وأولاد عمه من القرشية .

ولا بد من التنبيه هنا على حجة قوية ولعلها قاطعة ، جاءت في سيرة ابن هشام وهي كفيلة بالفوز بطمأنينة الباحث ، فقد ذكر بيتاً لجرير في مدح هشام بن عبد الملك يعني فيه برة بنت مر أخت تميم بن مر وهي أم النضر هذا ، وذلك قوله :

فما الأم التي ولدت قريشاً ‏ ‏ بمُقْرِفة النجار ولا عقيم

وما قرم بأنجب من أبيكم ‏ ‏ وما خال بأكرم من تميم[2]

وجرير من تميم .

وأما الثاني ففي بيان السبب في هذه التسمية وأي التفاسير هو الأرجح :

يستبعد الذهن أن تكون دابة البحر هي التي أوحت هذا الاسم ولو روي هذا القول عن ابن عباس : لبُعد العرب حول مكة عن البحر وجهلهم حيوانه . ففي هذا الشرح تكلف ظاهر كالذي في اشتقاقه من الجمل القَريش . الذي لا يجد المرء غيره مذهباً يرتضيه هو أن

(١) البيت لحذافة بن غانم العدوي انظر طبعة لجنة التأليف العقد الفريد ٣/٣١٢

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٩٠ ، والإقراف : أن تكون الأم عربية والأب غير عربي ، والقرم : السيد والفحل .

تكون (قريش) من القَرش بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع[1] المال إذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة . ذكر ابن هشام أن التقرش: التجارة والاكتساب ، وأن القروش (أيضاً) التجارة والاكتساب وأتى على ذلك بشاهد من كلام العرب . لكن الجاحظ أزال اللبس في ذلك وأحسن الإيضاح حين قال في صدد كلامه عنهم :

« وبالتجارة كانوا يعرفون ، ولذلك قالت كاهنة اليمن : « لله در الديار ،لقريش التجار » وليس فوقهم قرشي كقولهم هاشمي وزهري وتميمي لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشاً فينتسبون إليه ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش .[2] »

وقد تقدم الدليل آنفاً على أن النضر هو قريش ولا داعي لتسميته بذلك إلا معنى التجارة والكسب .

وقريش في الأصل طبقتان : قريش البطاح وقريش الظواهر[3]

(١) انظر مروج الذهب المسعودي ١ / ٣٦٩ حيث يقول: « وأخذت قريش الايلاف من الملوك.. وتقرشت، والتقريش : الجمع، ومنه قول ابن حلزة اليشكري :
إخوة قرّشوا الذنوب علينا في حديث من دهرنا وقديم » .

(٢) رسائل الجاحظ ص ١٥٦

(٣) عدّ المسعودي في قريش البطاح : بني عبد مناف وبني عبد الدار وبني =

أما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها وهم سادة القرشيين، فيهم بنو هاشم وبنو أمية ومنازلهم الشعب بين أخشبي مكة [1] وهم صُبابة قريش وصميمها وساداتها وأغنياؤها، اختطوا منازلهم في البطحاء ونزلوها.

وأما قريش الظواهر فهم الذين لم تسعهم الأباطح فنزلوا أعلى مكة خارج الشعب، فانتشروا حولها في ظواهرها وهم دون أولئك شرفاً وغنىً وشأناً. قال في لسان العرب: «وقريش البطاح أكرم وأشرف من قريش الظواهر.» واستشهد لذلك بقول الشاعر [2]

فلو شهدتني من قريشٍ عصابة ... قريشِ البطاح لا قريشِ الظواهر

ويقول الفرزدق في مباهاته جريراً:

تنحَّ عن البطحاء إن قديمها ... لنا، والجبال الراسيات الفوارع [3]

= عبد العزى، وبني زهرة وبني مخزوم وبني تيم بن مرة وبني جمح وبني سهم وبني عدي وبني عتيك بن عامر بن لؤي.

وعد في قريش الظواهر: بني محارب والحارث بن فهر، وبني الادرم بن غالب بن فهر وبني هصيص بن عامر بن لؤي، ـ الصفحة السابقة، والعمدة ١٨٤/٢ والمحبر ص ١٦٧

(١) أخشبا مكة جبلاها: أبو قبيس والذي يقابله

(٢) هو ذكوان مولى عبد الدار يقوله للضحاك بن قيس الفهري. انظر مروج الذهب للمسعودي ٣٦٩/١

(٣) شرح شواهد المغني ص ٣

وقول الكميت :

فحللتَ معتلج البطـــا ح ِ وحلّ غيرك بالظواهر(١)

وهناك قرشيون استوطنوا الطائف وغيرها حيث اتخـــذوا الأموال والمزارع فلم ينسبوا إلى ظواهر ولا إلى بطاح . روى صاحب تاج العروس أن « في قريش من ليس بأبطحية ولا ظاهرية . »

* * *

أول بانٍ لمجد قريش وموطد لنفوذها هو قُصي بن كلاب ، إذ استنقذ أمر مكة وولاية البيت من جُرهُم وخزاعـــة بعد حرب شديدة وجمع أشتات قومه فأنزلهم حول الحرم وملك أمرهم « فكان أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكا أطاع له به قومه . فكانت إليـــه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله وقطع

(١) انظر لسان العرب وتاج العروس مادتي : بطح ، ظهر .
والكميت يخاطب هنا هشام بن عبد الملك ، وقبل هذا البيت :

يابن العقائل للعقـــا ئل والجحاجحة الاخاير
إن الخلافـــة والإلا ف برغم ذي حسد وواغر
دلفا من الشرف التليـ د إليك بالرفـــد الموافر
فحللت ...

مكة رباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها .. فسمته قريش مُجمِّعا لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره الخ .. »[1]

فأنت ترى أن قصيّاً مكّن دعائم قريش ونظم أمورهم ثم جعل من داره التي اتخذها لنفسه وجعل بابها إلى الكعبة مجلس شورى لقريش ودار حكومة معاً وسماها دار الندوة . وكانت قريش بعده لاتقضي أمراً إلا فيها ، فيها ينظمون عيرهم الى الشام أو اليمن فلا تخرج عير إلا منها ولا يقدمون إلا نزلوا فيها ، ويتفاوضون في أمر تجارتهم وحربهم وسلمهم . وفيها كان معظم المؤامرات التي ائتمروا بالنبي وأصحابه في بدء الدعوة ، وكانت لهم محكمةٌ يلجأ إليها المتخاصمون ويقضي فيها شيوخهم المقدمون . ولا ريب أن أمور التجارة القرشية بعد الذي صنع قصي لهم اطرد تقدمها وازدهارها فاتسعت ونمت .

وأراد قصي تثبيت هيبة قريش في نفوس العرب ففرض عليهم

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١١٨

خرجاً يخرجونه في كل موسم من اموالهم ، فإذا كان الحج قال قصي:

« يامعشر قريش : إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد[1] من الحجاج وأهل مكة . وهذه هي الرفادة .

امتدت أيام قصي حتى كبر فعهد الى ولده عبد الدار باللواء والسقاية والرفادة ، لأنه لم يشرُف في حياته وكان بكره ، فقد بطأ به عمله عن أن يلحق بأخيه عبد مناف الذي بلغ في الشرف والسيادة شأواً بعيداً ، فخص قصي عبدَ الدار بذلك جبراً له حتى يلحق بأخيه . ثم تنازع على الشرف بنو عبد الدار وبنو عبد مناف وتحزب لكل من الفريقين أقوام وأفضى النزاع الى الاستعداد للحرب، وتعاهد عند الكعبة بنو عبد الدار وحلفاؤهم على النصرة فسموا الأحلاف ، وتعاقد بنو عبد مناف وغمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً فسموا المطيَّبين ، ثم كان سعي بين الفريقين انفرج عن صلح بينهما على أن

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٢٢

يكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وأن يكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار . فتحاجز الناس على ذلك حتى أتى الاسلام وهم عليه .

ازدهر مجد قريش التجاري وبلغ أوجه في الحقيقة ، بهاشم بن عبد مناف ، لأن تجارة قريش قبله لم تكن تعدو مكة « وإنما كان يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب . »[1] حتى جاء هاشم ففتح في وجوههم مافتح . كانت لهاشم دون إخوته الرفادة والسقاية فقام بأمرهما إذ كان أخوه عبد شمس رجلاً سفّاراً مقلاً ذا عيال . وهاشم موسر طماح بعيد النظر ، وقد ضرب القرشيون على عهده في الأرض فأكثروا الأسفار التجارية . ومن الغريب ان أولاد عبد مناف كلهم حليفو أسفار طوحتهم الغربة فمات كلٌّ بناحية : أما هاشم فمات بغزة من ارض الشام فسميت به غزة هاشم ، وأما اخوه المطلب فقد مات بردمان من ارض اليمن ، وأما أخوه نوفل فمات بسلمان من ارض العراق ، وعبد شمس مات بمكة .

اضطلع هاشم بأعباء الأمور وأكثر من الأسفار وهو أول من

(١) الامالي ج ٣ ص ١٩٩

عقد المعاهـدات التجارية لقريش (كما سيأتي قريباً عنـد الكلام على الإيلاف) فثمّر الأموال وارتفع له ذكر نابه بين قومه واستفاضت له مكارم سار بها الركبان[1] قال ابن سعد :

« كان اسم هاشم عمْراً فأصابت قريشاً سنوات ذهبن بالأموال فخرج هاشم الى الشـام فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله في الغرائر[2] على الإبل حتى وافى مكة فهشم ذلك الخبز يعني كسره وثرده ونحر تلك الإبل ثم أمر الطهاة فطبخوا . ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة . فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشماً وقال ابن الزِبَعْري في ذلك :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وقال وهب بن عبد قصي في ذلك :

تحمّل هـاشم ما ضاق عنه وأعيا أن يقوم به ابن بيضْ
أتاهـم بالغرائر متْأقـات من ارض الشام بالبُر النقيض
فأوسع أهل مكة من هشيم وشاب الخبز باللحم الغريض
فظـل القوم بين مكللات من الشيزاء حائرها يفيض[3] اهـ

---

(١) الطبقات لابن سعد ج ١ ص ٤٣ طبعة ليدن

(٢) ، (٣) الطبقات ١ : ٤٤ ، الغرائر جمـــع غرارة وهي : الجُوالق (العدل) . متأقات : ممتلئات . الغريض : الطري . والشيزاء ممدود شيزى : وهو الخشب الاسود يعمل منه القصاع . والحائر : الودك (الدهن) .

والظاهر ان هاشماً لقي مجداً وعزاً ومكانة لم يحظ ببعضها أحد ، فأثار بذلك حسد الأقران له لمّا انقطعوا دون بلوغ شأوه وأورثوا هذا الحسد أبناءهم من بعدهم ، ولم يشفع لهاشم ماقدم لقومه من خير وما رفع لهم من ذكر وما وطد لهم من تجارات ؛ فإن ابن سعد يروي لنا بعد ماتقدم من صنع هاشم ، اول مازرع الشر بين بني أمية وبني هاشم قال : « فحسد هاشماً أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش فغضب ونال من هاشم ودعاه الى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره ، فلم تدعه قريش وأحفظوه . فقال لأمية : فإني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ؛ فرضي أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي . فنفّر هاشماً عليه ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أمية الى الشام فأقام بها عشر سنين فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية . »[1]

جرى بنو قصي على سنة أبيهم في إطعام الحاج إلا أن هاشماً

(١) الطبقات ١ : ٤٤

امتاز منهم جميعاً فسار بهذه السنة الى شوط بعيد لم يبلغه احد قبله ولا بعده ، ولا غرو فقد كان من الغنى بالمكان المشهور وأسعفه في التجارة حظ قلما أتيح لغيره . وعلى يده وأيدي إخوته فتحت لقريش أسواق في بلاد الروم وفارس والحبشة ، فصنع للحاج مالم يصنعه أحد . ونحن عارضون لك من ذلك ماوصفه ابن ابي الحديد ومنبهوك خاصة على شرف هاشم وكمال مروءته في حرصه على ألا يطعم الحـــاج إلا ما حل كسبه :

كان يقوم أول نهـار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره الى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول : « يامعشر قريش أنتم سادة العرب ، أحسنهـا وجوهاً وأعظمها أحلاماً وأوسطهـا أنساباً وأقربها أرحاماً ، يامعشر قريش أنتم جيران بيت الله أكرمكم بولايته وخصكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ماحفظ منكم جارٌ من جاره فأكرموا ضيفـه وزوار بيته فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد : فوربِّ هذه البنية ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله مالم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرام فواضعه ، فمن شـاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل . وأسألكم بحرمة هـذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله

لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب ، فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ماتحتمله أحوالها وتأتي به الى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج [١] .اه .

والمرء ـ وإن حدثته نفسه فيما روى ابن ابي الحديد ـ موقن أن هاشماً في الغاية من النبل والشرف وتحري الطيب من المكاسب . كان إذا جمع الأموال من قريش يأمر بحياض [٢] من أدَم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من آبار مكة فيشربه الحاج وكان يطعمهم أول مايطعم ، قبل التروية بيوم ، بمكة وبمنى وجمع [٣] وعرفة . وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى ـ والماء يومئذ قليل ـ في حياض من الأَدم الى ان يصدروا من مني فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم .

لم تكن أمور قريش وخدمة الحجيج لتصرف هاشماً عن تجاراته وأسفاره بل كان بين هذا وذاك يقود قوافل قريش الى الشام وقد تزوج قبيل وفاته في إحدى هذه الرحلات . والفضل لابن سعد في وقوفنا على بعض تفاصيل للعير التي خرج بها هاشم ، كما له الفضل في

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٥٤

(٢) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٤٥ (٣) المزدلفة

معرفتنا بممارسة المرأة العربية للتجارة ومشاركة الرجال في الجاهلية بالخروج الى الاسواق والاتجار فيها قال :

« خرج هاشم في عير لقريش ، فيها تجارات . وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها . فباعوا واشتروا ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق ، فرأى امرأة تأمر بما يشترى ويباع لها ، فرأى امرأة حازمة جلدة ، مع جمال . فسأل هاشم عنها : أأيم هي أم ذات زوج ؟ فقيل له : « أيم كانت تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمراً ومعبداً ، ثم فارقها . » وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، فإذا كرهت رجلاً فارقته . وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار . فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ودخل بها وصنع طعاماً ودعا من هناك من اصحاب العير الذين كانوا معه وكانوا أربعين رجلا من قريش فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم ، ودعا من الخزرج رجالا وأقام بأصحابه أياماً . وعلقت [منه] سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيبة فسمي شيبة . وخرج هاشم في أصحابه الى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى فأقاموا عليه حتى مات فدفنوه بغزة

ورجعوا بتركته الى ولده .»[1]

ذكر ياقوت أن قبر هاشم بغزة حيث مات ، وأنها لذلك يقال لها غزة هاشم وروى لمطرود الخزاعي في رثائه :

مات الندى في الشام لما أن ثوى   فيـه بغزة هـاشم لايبعـد

قال ياقوت : « مات هاشم بغزة وعمره خمس وعشرون سنة وذلك الثبت وقيل عشرون .» وفي النفس من هذا التقدير شيء لأن ماحفلت به حياة هاشم وما تم لقومه على يديه يندر أن يكمل لابن خمس وعشرين .

قام بأمر قريش بعد هاشم أخوه الأصغر المطلب بن عبد مناف وكان ذا شرف في قومه وفضل وكانت قريش إنما تسميه الفَيْض لسماحته[2] وفضله وقد ضم إليه ابن أخيه شيبة بن هاشم في أحد أسفاره فدخل به مكة مردفاً إياه على بعيره فظنت قريش انه غلامه فقالوا : عبد المطلب،فقال المطلب : ويحكم إنه شيبة ابن أخي : هاشم ، قدمت به من المدينة . ولما خرج المطلب في رحلة له الى اليمن مات بردمان ، وكان آخر من مات من بني عبد مناف : نوفل الذي تقدم أنه مات بسلمان من أرض العراق ، فذكرهم مطرود بن كعب الخزاعي في رثائه فقال :

---

(١) الطبقات : ١ : ٤٥   (٢) ابن هشام ١ : ١٢٨

أربعــة كلهم سيد أبنــاء سادات لسادات
ميت بردمان وميت بسلـ ـمان وميت بين غزات[١] .. الخ

ثم انتهت السقاية والرفادة من بعده إلى عبد المطلب بن هاشم فأدار أمور قومه وأهم ماصنع لهم حفر بئر زمزم . وقد كان في قريش ذا هيبة ومكانة .

وفي أيامه هددت مكة وتعرضت مكانتها التجارية للهبوط ، إذ قصدها أبرهــة « يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها[٢] » فاعتصمت قريش في شعف الجبال وفي الشعاب تخوفاً من معرة الجيش وأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة مع نفر من قريش يستعدي رب البيت على الأحباش بما لا غرض لنا بذكره هنا ، إلا أننا لانرى مندوحة

(١) ومن الغريب الطريف أنه أصــاب أولاد العباس بن عبد المطلب ماأصاب إخوة هاشم هؤلاء حتى قالوا : أبعد قبور إخوة على الارض قبور اولاد العباس : فعبد الله بن عباس الحبر دفن في الطائف ، والفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ مات في طاعون عمواس بالشام أيام عمر ، وعبيد الله بن عباس الجواد مات بالمدينة ، وقثم بن عباس شبيه النبي ﷺ مات بسمر قند زمن معاوية ، وعبد الرحمن بن عباس قتل بإفريقية زمن عمر . اه ملخصاً عن النوادر القالي ص ١٩٧

(٢) تاريخ العرب الادبي للاستاذ رينولد نيكلسون ترجمــة محمد حسن حبشي في الرسالة عدد ١٨٩ : ٦٤

عن التعرض للتقدمة التي قدّم بها أنيس (سائس فيل أبرهة) ، عبد المطلب إلى أبرهة إذ قال له : « أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال . [١] » وكان أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعير أصابها خارج مكة فأتاه يستردها . وإذا كان مئتا بعير مما يملك مثل عبد المطلب وأضفت إلى ذلك ما يذكر الرواة من أن عبد المطلب أمهر امرأته ، فاطمة بنت عمرو مئة ناقة ومئة رطل من الذهب [٢] ، وهو لم يشتهر بكثرة الأسفار كما اشتهر غيره من القرشيين ، أمكنك أن تتصور الغنى الذي تمتع به هذا البطن من العرب .

وعبد المطلب هذا هو الذي رأس وفد قريش الذي ذهب إلى سيف بن ذي يزن ليهنئه بالملك وبالظفر . وقد لقي الوفد ورئيسه خاصة من إجلال الملك وإكرامه ما تجد تفصيله في العقد الفريد (١:١٧٥)

---

(١) المصدر السابق . هذا وقد كان أبرهة بنى بيتاً مقدساً باليمن ليصرف الناس عن قصد الكعبة والحج اليها ، فلما رأى اليمنيين وسائر العرب لا تنصرف عن الحج الى مكة والطواف بكعبتها غاظه ذلك وعزم على هدمها . والحافز له على ذلك - فيما أرى - تجاري قبل كل شيء . إذ في إقامة الحج في اليمن ونقل أسواق العرب الكبرى اليها ما يجلب الحياة والانتعاش والنشاط للحركة الاقتصادية باليمن ، وذلك بالطبع يستتبع عمرانها وتقدمها وغناها .

(٢) إنسان العيون ١/٤٨

فارجع إليه ثمة ، وكان قبيل ذلك قد وفد الى معد يكرب حين ملك على اليمن[١] . وينسب إلى عبد المطلب هذه الأبيات يذكر فيها حرمة البيت ويعرض لجيش أبرهة :

نحن آل الله في ذمته ... لم نزل فيها على عهد قدمْ
إن للبيت لرباً مانعاً ... من يردْ فيه بإثم يُخترم
لم تزل لله فينا حرمة ... يدفع الله بها عنا النقم[٢]

ثم أفضى الأمر من بعده إلى أصغر أولاده العباس بن عبد المطلب ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثماني سنين . وبقي الأمر في يده حتى جاء الاسلام .

ومن تمام الوصف أن نختصر هنا عن العقد الفريد توزيع (الوظائف الرسمية) على بطون قريش ، في هذه الجمهورية التجارية في مكة ، التي شبهها « لامنس » بجمهوريتي البندقية وقرطاجة ، لسيطرة الماليين من أرباب التجارة وأصحاب رؤوس الأموال[٣] :

---

(١) مروج الذهب ٢/١٠

(٢) هذا وقد جاء في فهرست ابن النديم ص ٧ « أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم ، فيه ذكر حق عبد المطلب ابن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل ؟ صنعاء ؛ عليه ألف درهم كيلًا بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه ؛ شهد الله والملكان . »

(٣) مجلة المشرق سنة ١٩٣٦ ص ٥٣٩

قال ابن عبد ربه(١)

« من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجُمح وسهم :

١ ـ فكان من هاشم : العباس بن عبد المطلب : يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام .

٢ ـ ومن بني أمية : أبو سفيان بن حرب : كانت عنده العُقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العُقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ ـ ومن بني نوفل : الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة .

٤ ـ ومن بني عبد الدار : عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة .

٥ ـ ومن بني أسد : يزيد بن زمعة بن الأسود ، وكانت إليه المشورة . وذلك أن قريشاً لاتجتمع على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه والاهم عليه ، وإلا تخير وكانوا له أعوانا .

(١) العقد الفريد ٣/٣١٣ فما بعد (مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٢هـ)

٦ - ومن بني تيم : أبو بكر الصديق . وكانت إليه في الجاهلية الأَشناق وهي الديات والمغرم . فكان اذا احتمل شيئاً من الدماء فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٧ - ومن بني مخزوم: خالدبن الوليد ، وكانت إليه القبة والأعنة ، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب .

٨ - ومن بني عدي : عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة في الجاهلية . وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به .

٩ - ومن بني جُمح : صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهي الأزلام يستقسم لهم بها إذا أرادوا أمراً من أمورهم العامة .

١٠ - ومن بني سهم : الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجّرة التي سموها لآلهتهم .

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية وهي السقاية والعمارة[١] والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة

---

(١) سيشرحها ابن عبد ربه بعد أسطر .

والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجّرة ، الى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت في أوليتهم ، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر .

وجاء الاسلام فوصل لهم ذلك . فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم . والعِمارة هي ألا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهُجر ولا رفث ولا يرفع صوته ، فكان العباس ينهاهم عن ذلك . وأما حلوان النفر : فإن العرب لم تكن تملّك عليها في الجاهلية أحداً فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً ، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجن . »

* * *

- ٢ -

هذا أمر سراة قريش ورؤسائهم فأما عامتهم فقد أخذوا يشغلون مركزاً ممتازاً بين قبائل العرب ساعدهم على بلوغه مقامهم في مكة حيث البيت والحرم ، إذ كانوا يقومون بسدانه البيت وما يحتاج إليه من خدمة وعناية . فكانت العرب تعرف لقريش شرفها ومكانتها وغناها كما تعرف لها زعامتها الدينية وسيطرتها على مكة وادارتها ،

« ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها : أهل الله [١] . » ، وأبلغ تعبير عما بلغته قريش في نفوس العرب من منزلة في الجملة قول رسول الله ﷺ فيما بعد : « الناس تبع لقريش في الخير والشر » [٢]

والقرشيون من بين عامة سكان الحجاز أغنيـــاء مهرة في أمور التجارة لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار « ومن لم يكن من قريش تاجراً فليس بشيء » ، فكانوا ينظمون عيرهم في الشتاء الى اليمن حيث يتبايعون سلع الهند والحبشة المستفيضة هناك فيحملونها إلى الحجاز ، وعيراً في الصيف إذ يرحلون بما حملوا من الحبشة والهند وما عندهم ايضاً من محصول بلادهم كالتمر والأدم ، إلى الشام فيفرغون في أسواقها : غزة وبصرى وغيرهما ، ما في أحمالهم ويأخذون بدلاً منها ما في الشام مما لا يكون بالهند ولا بالحبشة .

وكانوا يسيرون قوافل عظيمة معها حامياتهـــا وأدواتها ومعهم الأدلاء يسيرون بين أيديهم . أما الحاميات فأكثر ما تكون من بني غِفار ومن إليهم ، ممن يتقاضون على مرافقة العير وحمايتها جُعلاً من قريش ، هذا عدا عن عبدان قريش ومواليها وأحلافها .

اختلاط القرشيين بالروم والفرس والحبشان بسبب التجارة

(١) الصاحبي ص ٢٣ (٢) تيسير الوصول ٣/٣٠٤

جعلهم يتميزون من سائر العرب بميزات أفادوها من هذا الاختلاط ، فتعلم فريق منهم الكتابة من الحيرة ونشروها لما رجعوا إلى بلادهم فكان في مكة والطائف عدد يسير يحسنون الكتابة [1] ويذكرون أنه كان لبشر أخي أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل صحبة بحرب بن أمية التاجر القرشي الكبير ، لتجارته عندهم في بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة ثم سافر معه بشر الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب ، فتعلم منه جماعة من أهل مكة فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبل الاسلام . ولذلك قال رجل كندي من أهل دومة الجندل يمن على قريش بذلك :

لاتجحدوا نعماء (بشر) عليكمُ ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمُ ... من المال ماقد كان شتى مبعثرا
وأتقنتمُ ما كان بالمال مهملاً ... وطا منتمُ ما كان منه منفرا
فأجريتم الاقلام عوداً وبدأة ... وضاهيتمُ كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمْ عن مسند الحي حمير ... ومازبرت في الصحف أقيال حميرا [2]

---

(١) انظر بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ وما بعدها . ولما دوّن عمر الديوان أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتّاب قريش فكتبوا ديوان الجند ، فلولا التجارة ما كان لقريش هؤلاء الكتاب المخضرمون .

(٢) انظر المزهر للسيوطي (النوع الثاني والاربعون ٢/٣٤٦ طبعة عيسى الحلبي) الأولى

ومهما يكن فقد كان أكثر كتاب الوحي لرسول الله ﷺ منهم ومن هنا كان القرشيون أقرب العرب من عـــلم وثقافة وتهذيب ، لمخالطتهم هؤلاء الأجانب المتحضرين وقبسهم شيئاً من تعاملهم في بيوعهم وأنظمتهم في تجارتهم حسبما كانوا يرون في الاسواق التي كانوا يحطون رحالهم فيهـــا . وهذه الاسواق وإن لم تكن في الدرجة الاولى بين أسواق الرومان ، ولا كان أهلها سابقين في مضمار الحضارة كثيراً ، لم تخل من آثار بعيدة في التحضر استفاد منها تجار مكة شيئاً يعتد به في السياسة والاقتصاد .

بل لقد تأثروا برحلاتهم هذه ببعض المعتقدات أيضاً فقد ذكروا أن عبادة الاصنام طارئة على أهل مكة من الشام ، وان عمرو بن لحي - فيما زعموا - اول من نشر عبادة الاصنام حول الكعبة حين حمل معه صنماً من اصنام وجدها في جنوب الشام فنصبه في الكعبة [1] .

وفشت في جماعة من قريش زندقة حتى قال صاعد : « كانت الزندقة في قريش أخذوها عن أهل الحيرة » [2]

فأنت ترى أن هـذه الرحلات أثرت حتى في معتقدات العرب

---

(١) انظر مثلًا : مروج الذهب للمسعودي ١/٣٦٧

(٢) طبقات الامم لصاعد ص٦٧

ومن القريب المألوف أن يحمل الرحالون من البلاد التي ينزلونها شيئاً من طرائفها في العـــادات والدين والأخلاق والعروض والازياء يتحدثون عنه إذا ردّتهم أسفارهم إلى بلادهم ، فيُعجبّون منه ذويهم وجيرتهم ممن لم يكن له بتلك البلاد عهد ، وما أكثر مايحاول الانسان تقليد من يملأ عينه .

أفادت قريش من هذه الرحلات وهـذا الاختلاط بالامم التي سبقتهم ، كثيراً من اللبـاقة والكياسة إلى ما عرفت به من الفصاحة المشهود لهم بها ، حتى إن العرب كانت تعرض شعرها على قريش . وعرض علقمة الفحل عليهم شعره فوصفوه بِسِمْطِ الدهر[١]،وثقفت ألواناً من الدهاء والاحتيال ، لا يحسنها إلا من رسخت قدمـــه في التجارة وأسبابها وضروب تعاطيها ، حتى إذا دار الزمان وقضي للعرب أن تكون لهم دولة ذات سياسة داخلية وخارجية ،كان أقطاب هذه الدولة وأركانها أولئك التجار الذين يعرفون كيف يتأتّون للأمور ويتلطفون لمواجهة الصعاب وتذليل العقبات وحل المشكلات من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وأبي سفيان ومعاوية وعمرو بن العاص وزياد والمغيرة ، وتلك الطبقة الممتازة من أكابر التجار[٢] في الجاهلية

(١) الاغاني ١١٢/٢١

(٢) من المهم أن نلاحظ هنا أن أكثر تجار قريش أمويون ، وقد طال –

وكبار أهل الحل والعقد في الإسلام .

ومتى رميت برجل ذي ذكاء ومواهب ، في قطر تجاري كالشام أو العراق (قبل الإسلام) فاختلط بالتجار ، وقاسى محيطاً غير محيطه ، تفتحت تلك المواهب ، وانجلت عن نبوغ كبير ما كان لينكشف لو جمد صاحبه في محيطه الضيق ، بين شعاف مكة وبطاحها . إن شئت فانظر إلى هذا الاحتيال المضاعف الذي أتاه المغيرة بن شعبة وضحك به على كل خمّار في الحيرة (إن كان ليعجز عن أقل منه أقطاب فضائح « ستافسكي » رغم ما يجهزهم به العصر العشرون من وسائل وعدد .) ولعل في هذه القضية التي سأوردها لك بياناً شافياً لهذا الدهاء التجاري الذي تمرست به قريش وامتازت به من العرب قاطبة :

قال المغيرة بن شعبة :

« أول ما عرفني به العرب من الدهاء والحزم ، أني كنت في ركب من قومي ، في طريق لنا إلى الحيرة فقالوا لي : « قد اشتهينا الشراب وما معنا إلا درهم زائف . » فقلت : « هاتوه وهلموا زقين ». فقالوا : « وما يكفيك لدرهم زائف زق واحد ! » قلت : « أعطوني ما طلبت وخلاكم دم . » ففعلوا وهم يهزؤون من قولي .

= ترداده ولبثهم في الشام ، فاطلعوا على أصول السياسة والحكم ، وكان نجاحهم فيما بعد من ثمة .

فصبيت في أحد الزقين شيئاً من ماء ثم جئت إلى خمّار فقلت له : « كِل لي ملء هذا الزق . » فملأه . فأخرجت الدرهم الزائف فأعطيته إياه . فقال : « إن ثمن هذا الزق عشرون درهماً جياداً ، وهذا درهم زائف ! » فقلت : « أنا رجل بدوي وظننت أن هذا يصلح كما ترى ، فإن صلح وإلا فخذ شرابك . » فاكتال مني ما كاله وبقي في زقي من الشراب بقدر ما كان فيه من الماء ، فأفرغته في الزق الآخر وحملتهما على ظهري وخرجت ، فصبيت في الزق الأول ماء ودخلت إلى خمار آخر فقلت : « إني أريد ملء هذا الزق خمراً فانظر إلى ما معي منه ، فإن كان عندك مثله فأعطني . » فنظر إليه (وإنما أردت ألا يستريب بي إذا رددت الخمر عليه) فلما رآه قال : « عندي أجود منه . » قلت : « هات » فأخرج إليّ شراباً فاكتلته في الزق الذي فيه الماء ثم دفعت إليه الدرهم الزائف ، فقال لي مثل قول صاحبه فقلت : « خذ خمرك » فأخذ ما كال لي وهو يرى أني خلطته بالشراب الذي أريته إياه . وخرجت فجعلته مع الخمر الأول .

ثم لم أزل أفعل ذلك بكل خمّار في الحيرة حتى ملأت زقي الأول وبعض الآخر . ثم رجعت إلى أصحابي فوضعت الزقين بين أيديهم ورددت درهمهم .

فقالوا : « ويحك ! أي شيء صنعت ؟ » فحدثتهم فجعلوا يعجبون وشاع لي الذكر في العرب بالدهاء حتى اليوم[1] »

هذا احتيال لايخترعه إلا عقل تاجر ماهر ، ملم بحرفته وأسرارها وبالغش وضروبه ، أحسنته قريش وشركاؤها كما أحسنت ضرباً آخر من اللباقة وحسن التأتي مع الدول المجاورة التي تاجروا في بلادها ، فكانوا بهذه الكياسة . ينجون من عقاب المخالفات التي يرتكبونها وعواقب المغامرات التي يقتحمونها . ولما أرادت قريش أن تفتح لها أسواق فارس ولم تكن ترتادها كما ترتاد أسواق الشام ، كان لا بد في سبيل الوصول إلى ذلك من مغامرات ومخاطرة وتعرض للأذى وكانت الحاجة تخلق لها مغامرين أذكياء منها أو من شركائها يصلون برفقهم ودهائهم إلى ما يريدون مع السلامة والغنيمة . ونحن ذاكرون لك هنا شاهداً ، مهما يكن حظ التزيد فيه فإن ما يخلص منه بعد الامتحان صالح لأن يعطيك صورة صحيحة عن فطنة القوم في أمور التجارة والاحتيال لها والجرأة فيها :

ذكر الرواة أن أبا سفيان خرج في جماعة من قريش يريدون العراق بتجارة ، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال لهم : « إنا من

---

(١) الاغاني ١٤ : ١٣٥

مسيرنا هذا لعلى خطر ، ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر ؟ ولكن أيكم يذهب بالعير فإن أصيب فنحن بَراء من دمه وإن غنم فله نصف الربح ؟ »

فقال غيلان بن سلمة : « دعوني إذاً فأنا لها . » فدخل الوادي فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول :

ولو رآني أبو غيلان إذ حسرت عني الأمور إلى أمر له طبق
لقال رغبٌ ورهب يجمعان معاً حب الحياة وهول النفس والشفق
إما بقيتَ على مجد ومكرمة أو أسوة لك فيمن يُهلك الورِق

ثم خرج في العير ، وكان أبيض طويلا جعداً ضخماً فلما قدم بلاد كسرى تخلّق ولبس ثوبين أصفرين وشهر أمره وجلس بباب كسرى حتى أذن له ، فدخل عليه فخرج إليه الترجمان وقال له : : « يقول لك الملك : ما أدخلك بلادي بغير إذني ؟ » فقال . « قل له : لست من أهل عداوة لك ، ولا أتيتك جاسوساً لضد من أضدادك ، إنما جئت بتجارة تستمتع بها ، فإن أردتها فهي لك وإن لم تردها وأذنت لي بذلك رددتها . » فتكلم كسرى فلما سمع صوته غيلان سجد ، فقال الترجمان : « يقول لك الملك لم سجدت ؟ » فقال : « سمعت صوتاً عالياً حيث لا ينبغي لأحد أن يعلو صوته إجلالاً للملك ، فعلمت أنه لم يقــدم على رفع

الصوت هناك غير الملك فسجدت إعظاماً له . » فاستحسن كسرى ما فعل وأمر له بمرفقة توضع تحته ، فلما أتي بها رأى عليها صورة الملك فوضعها على رأسه ، فاستجهله كسرى واستحمقه وقال للترجمان : « قل له إنما بعثنا بهذه لتجلس عليها . » قال : « قد علمت ، ولكني لما أتيت بها رأيت عليها صورة الملك ، فلم يكن حق صورته على مثلي أن يجلس عليها ، ولكن كان حقها التعظيم ، فوضعتها على رأسي لأنه أشرف أعضائي وأكرمها عليّ . » فاستحسن فعله جداً ثم قال له : « ألك ولد ؟ » قال : « نعم » قال : « فأيهم أحب إليك ؟ » قال : « الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ والغائب حتى يؤوب » فقال كسرى : « زهْ ، ما أدخلك عليّ ودلك على هذا القول والفعل إلا حظك ، فهذا فعل الحكماء وكلامهم ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم ، فما غذاؤك ؟ » قال : « خبز البُر » قال : « هذا العقل من البرّ لا من اللبن والتمر . » ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وكساه [وبعث معه من الفرس من بنى له أطماً بالطائف فكان أول أطم بني بها[1]] . فهذا نمط مما بلغ إليه القوم .

(١) انظر الاغاني ١٢ : ٤٦ ولغيلان هذا شأن في العرب ، فمحمد بن حبيب في (المحبر ص ١٣٥) وتبعه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة [٢ : ٢٧٤] عده من حكام قيس وذكر أن له ثلاثة أيام : يوم ينشد الناس بشعره ويوم —

حتى الأجيال التي انقطعت عن التجارة من القرشيين كانت ألفاظ التجارة وحساباتها أسرع إلى أفكارهم وعلى ألسنتهم حين التعبير، فهذا إسماعيل بن علي بن العباس يقول لطلحة بن عمر بن عبد الله : « أنت أتجر الناس ! » فيقول طلحة : « والله ما عالجت تجارة قط ! » فيجيبه « بلى حين تزوجت فاطمة بنت القاسم بأربعين ألفاً فولدت لك إبراهيم ورملة ، فزوجت رملة بمئة ألف دينار فربحت ستين ألفاً وإبراهيم » في خبر طريف(٢)

* * *

مكانة قريش من العرب وقيامها على الدين كلفاها مغارم كانت تؤديها عن طيب نفس ، ويتعاون أفراد هذا الحي على الإنفاق في كل ما يعود على مكة والبيت وأهله بالفخر والتكرمة . ولنا على ذلك دليلان مشهوران هما خير ما يمثل لنا تضامن هذا الحي في المكارم ، وما يتكلف من بذل وخدمة في سبيل تقوية منزلته من نفوس العرب وفي سبيل تعظيم حرمة البيت وأهله وحفظ قدسيته في قلوب القبائل كافة :

= يحكم بين الناس ويوم يقعد للناس فيه فيُزار وينظَر إلى سروره وجماله . فلا تعجب بعد هذا إن حدثتك نفسك بتزيد أضيف الى أخباره .

(٢) انظره في كتاب (أخبار النساء) لابن قيم الجوزية ص٧٣ [مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣١٩هـ]

أما الاول فالرفادة التي كانت من مناقب قريش خاصة ، مما تفاخر به أحياء العرب قاطبة وهي - كما ذكرنا في موضع آخر - « شيء تترافد به قريش في الجاهلية تخرج فيما بينها مالاً تشتري به للحاج طعاماً وزبيباً» ولعل في هذا الامر شيئاً وراء إكرام حجاج البيت الحرام ، وما إلى ذلك من أمور تتصل بشعائر وعقائد تمت الى الدين ، وهذا الشيء هو إغراء العرب بحج تلك الاسواق التجارية والاقبال عليها حتى تغص بالبائعين والشارين ، فتأمن قريش على أرباحها وتكفل من ذلك رواج تجاراتها التي هي قوام أمورها في الحياة . فالغرض الحقيقي - فيما يبدو لي - تجاري أكثر منه دينياً . ولا يفسر ذلك أحسن تفسير إلا الحوادث التي رافقت البعثة ، وما لاقى رسول الله ﷺ أول أمره من الألاقي والاذى . وما كانت قريش - وهي ماهي حصافة عقول - لتعمى عن نور الإسلام لولا أنها خافت على زعامتها التجارية والدينية أن يدكها الإسلام ويذهب ريحها ، وإنما تسلطت قريش على نفوس العرب السذج بتلك الخرافات التي جعلت من أصنام الكعبة آلهة مقدسة لُفّق حولها أباطيل وقصص اتخذت مع الزمن شكل العقائد ، وجعلت من قريش قُوّاماً على هذا الدين الذي دانته العرب في الجاهلية .

وأما الأمر الثاني فما كانت تتشارك فيه من كسوة الكعبة جاء في (أخبار مكة للأزرقي ص ١٧٤) :

« إن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى شتى ، كانت البدنة تجلل الحبرة والبرود والأكسية ، وغير ذلك من عصب اليمن ، وكان هذا يهدى للكعبة سوى جلال البدن ، هدايا من كسى شتى خز وحبرة وأنماط تعلق فتكسي فيه الكعبة ويجعل ما بقي في خزانة الكعبة . فاذا بلي منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيء من ذلك ، وكان يهدي اليها خلوق ومجمر ، وكانت تطيب بذلك في بطنها ومن خارجها » .

ويظهر أن الحرص على شرف هذه الكسوة كان بالغاً ، وكان مما تباهي به قريش سائر العرب حتى كان في الافراد من اشرأب للاستئثار بهذه المكرمة وحده بلا شريك ، ففي ص١٧٥ من الكتاب المذكور :

كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة ابن المغيرة بن عمرو بن عبد الله بن مخزوم ، وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها ، فأثرى في المال فقال لقريش :

« أنا أكسو وحدي الكعبة سنة ، وجميع قريش سنة . » فكان يفعل ذلك حتى مات : يأتي بالحبرة الجيدة من الجند (احدى قرى

اليمن ومن أسواق العرب) فيكسوها الكعبة فسمته قريش (العَدْل) لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها ، فسموه الى اليوم العدل ويقال لولده بنو العدل . »

والحق أن الامر لم يقتصر على هذه (المكارم الرسمية) من الرفادة وكسوة الكعبة وما إليها ، بل كان ذلك من أخلاق قريش اللازمة لهم في حلهم وترحالهم ف« لم يكن أحد يتزود مع قريش في سفر ، وكانوا يطعمون كل من يصحبهم » وعرف ثلاثة نفر منهم لمبالغتهم في هذه الخصلة بـ (أزواد الركب) وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية وزمعة بن الاسود ، وابو أمية بن المغيرة . »[1]

لم تنج قريش من ألسنة العرب ، ولم تخل ممن نفس عليها مكانها أو حقد عليها استئثارها بالغني من أفناء العرب الذين يقدمون مكة فيعانون من تجارتها عنتاً وإرهاقاً ، عدا مايسامون من الهزء أحياناً ومن أداء الربا المضاعف لهؤلاء . وكان اشتغال التجار بتجارتهم وانكبابهم على شؤونها قد صرفهم بعض الصرف عن معالجة شؤون الحرب كما يعالجها أمثالهم من غير التجار . ولاحظ ابن سلام ان الذي

(١) الاغاني ٩/٤٩ (طبعة دار الكتب) ، وانظر في هذه الصفحة الحاشية المنقولة عن كتاب (مايعول عليه في المضاف اليه) .

قلل شعر قريش عدم اشتغالها بالحروب « فلم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان وأهل الطائف[1] « وعمان والطائف أيضاً بلدان تجاريان . ولما أرادت أن تباهي الانصار ولم يكن لها أيام ولا أشعار جعلت « تزيدفي أشعارها[2] » . عرف بعض العرب ذلك من أمرها والبدو يحقرون التجارة بطبعهم ككل الأمم التي تعيش من الغزو والسلب ، فصاروا يعيرونهم بها ، وطارت لهم أشعار في ذلك ، منها مايحقر التجارة نفسها ، ومنها مايقصد الى قريش مباشرة ، وانظر إن شئت قول القائل يريد مكة :

ولا مرتع للعين أو متقنّص ولكنّ تجْراً والتجارة تحقر

وقول ابن الزِبَعري :

ألهى قصياً عن المجد الاساطيرُ . . . .

. . . . وقولها: رحلت عيرٌ أتت عيرُ

ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة وشغلها عن الحروب من دون سائر العرب ، عرف ذلك من امرهم القاصي والداني ، جاء في تاريخ الطبري عند كلامه على فتوح سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الاسلامية في العراق مايأتي :

(١) طبقات الشعراء ص ١٠٢ . (٢) ص ٩٨ المصدر نفسه .

« سأل النعمان بن قبيصة الطائي ، وكان على مرابطة كسرى عن سعد بن أبي وقاص فقيل له : « رجل من قريش » فقال : « أما إذ كان قرشياً فليس بشيء ، والله لأجاهدنه القتال ، إنما قريش عبيد من غلب ، والله ما يمنعون خفيراً ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير[1] » إلا أنه لما عانى من شدة بأسهم ما عاناه علم أن في جلود أولئك التجار مغاوير حرب ومذاويد حق .[2]

كان لهؤلاء القرشيين معارف في بلدان الشام واليمن وفارس وكانت قريش تنظم وفوداً تفد على ملوك النواحي ، ونحن نعلم أن عمرو بن العاص كان يعرف مصر وغزة والشام تمام المعرفة ويعزى نجاحه في فتح مصر إلى عوامل منها إجادة معرفته بها . ولما كان أمام غزة دخل على حاكمها بصفة موفد وعرفه الحاكم وأمر حاجبه سراً بقتله لولا أن نبهه عربي نصراني كان يعرف عمراً في الجاهلية حين كان يتاجر والقصة مشهورة . وعرف من القرشيين تجار كبار ذوو أسفار بعيدة

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٣٥٠ (طبع ليدن) .

(٢) ليس غريباً أن يحقر بعض العرب حينذاك التجارة ، وإنما الغريب أن تستمر هذه النغمة في النفوس حتى القرن الرابع الهجري وقد تبدلت الارض غير الارض فيقول شاعر مثل المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعها نفض النعال

كثيرة ، فأبو سفيان كان « تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى أرض العجم[1] » ولعل أول عير طرقت بلاد فارس العير التي كان هو صاحبها ، والتي دخل بها غيلان مخاطراً كما تقدم . ثم كانت له عودات إلى فارس، ودخل وافداً مرة على كسرى وأهدى إليه « خيلاً وأدماً فقبل الخيل ورد الأدم » قال أبو سفيان : « أدخلت على كسرى فكأن وجهه وجهان من عظمه . فألقى إلي مخدة كانت عنده فقلت : واجوعاه! هذه حظي من كسرى بن هرمز ؟ » فخرجت من عنده فما أمر على أحد من حشمه إلا أعطيها حتى دفعتها إلى خازن له فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب[2] . »

وكان يخرج إلى اليمن أيضاً ويتصل بطبقات أهلها وأحبار يهودها كما يتصل غيره فيعلمون من الأخبار والسياسة ما لا يعلمه غيرهم، واقرأ في الأغاني كيف يشرح لك الحرب بين هرقل وفارس وكيف انتصر هرقل ، وكيف خرج من حمص ليصلي ببيت المقدس شكراً لله . وهو حديث طويل مستوفى في كتب السيرة هو والحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان في شأن بعثة النبي ﷺ ، ولا بأس في أن أنقل هنا أول هذا الحديث لعلاقته بموضوعنا قال أبو سفيان :

« كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا . فلما كانت الهدنة [هدنة الحديبية]

(١) الأغاني ٦ : ٣٤٣ دار الكتب . (٢) العقد الفريد ١ / ١٧٤ .

بيننا وبين رسول الله ﷺ ، خرجت في نفر من قريش إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة ، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس .. الخ[1] »

واقرأ أيضاً ما كان بينه وبين العباس وحبر من أحبار اليهود في متجرهم باليمن (الأغاني ٦ : ٣٤٩) فستعرف من كل ذلك أن هؤلاء التجار كانوا على اتصال بما كان يجري في زمنهم من أحداث سياسية ، شديدو الاهتمام بذلك لما يعود على علائقهم بالبلدان وعلى تجاراتهم . وكانوا ينقلون إلى بلادهم بعض ما يجدون في متاجرهم الخارجية من طرف وغرائب ، ولعلهم استفادوا من بعض الأنظمة الاجتماعية التي وجدوا عليها الروم أو فارس . بل ما يدرينا أن دار الندوة نفسها اقتباس مغيّر مصغر ، عن مجامع الروم الدينية والمدنية فقد كان مجلساً منظماً « لتشاور قريش وعقد الألوية في حروبهم . ولا ينكح رجل من قريش إلا فيها ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم إلا فيها ، ولا يعذر غلام إلا فيها[2] ولا تدرّع جارية من

(١) الأغاني ٦ : ٣٤٥ [دار الكتب]

(٢) مدنية العرب في الجاهلية والاسلام ـ محمد رشدي : ص ٥٨ ويعذر غلام : يختن .

قريش إلا فيها يشق عليها درعها ثم تدرع وينطلق بها إلى أهلها ولا تخرج عير من قريش إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها.» وهذا عبد الله ابن جدعان أتى العرب بطعام لا عهد لهم به: وفد على كسرى فأطعمه الفالوذج فسأل عن صنعه وحمل معه غلاماً يحسن له عمله، فصار يطعم أهل مكة منه. وهو من سراة مكة وأجوادهم وأحد أغنيائهم الكبار و «وضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى مناديه: ألا من أراد الفالوذج فليحضر، فحضر الناس[1]» وقال فيه أمية بن أبي الصلت يصف طعامه هذا:

له داع بمكة مشمعلٌّ ... وآخر فوق دارته ينادي
إلى رُدُحٍ من الشيزى مِلاءٍ ... لُبابُ البُرِّ يُلبك بالشهاد[2]

(١)،(٢) الاغاني ٨: ٣٣٠ اشمعلّ القوم في الطلب إذا بادروا فيه وتفرقوا، ورُدُح جمع رَداح وهي الجفنة العظيمة. والشيزى. خشب أسود تتخذ منه القصاع.

جاء في الأمالي ٣: ٣٨: قال أمية بن أبي الصلت: أتيت نجران فدخلت على عبد المدان بن الديان، فاذا به على سريره، وكأن وجهه قمر، وبنوه حوله كأنهم الكواكب، فدعا بالطعام فأتي بالفالوذج فأكلت طعاماً عجيباً ثم انصرفت وأنا أقول:

ولقد رأيت القائلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بني الديان
ورأيت من عبد المدان خلائقاً ... فضل الأنام بهن عبد مدان
البرُّ يلبك بالشهاد طعامه ... لا ما يعللنا بنو جدعان =

وممن كان يواصل أسفاره في التجارة أبو طالب والعباس عما النبي ﷺ وقد أخرج أبو طالب ابن أخيه محمداً مرتين إلى الشام في تجارة : مرة وهو فتى لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة ومرة وهو شاب في سن الخامسة والعشرين .

وقد تجر أبو بكر إلى الشام وتجر عمر إلى غزة وفيها استغنى في الجاهلية على ما قال ابن حوقل[1] ، واستمر عمر مشتغلاً بالتجارة في الإسلام وأسف على اشتغاله هذا إذ حرم من علم كثير ، وجهل في خلافته مسألة في الاستئذان فلما رويت له عبّر عن أسفه بقوله : « أخفي عليّ [هذا] من أمر رسول الله ؟! ألهاني الصفق بالأسواق » يعني الخروج إلى التجارة[2] .

وقلّ أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان

= فبلغ ذلك عبد الله بن جدعان ، فوجه الى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج بالعسل ، فكان أول من أدخله مكة ففي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت :

« له داع ... البيتين »

ولعل الفالوذج الذي كان صنعه الغلام الفارسي بمكة لعبد الله بن جدعان لم يكن لذيذاً في فم الشاعر أمية كما كان فالوذج نجران .

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٣ طبع ليدن .

(٢) الأدب المفرد للبخاري ، الباب ٤٩٢ ص ٢٧٤ [المطبعة السلفية سنة ١٣٧٥ هـ]

تاجراً[1] واستفاض لهم غنى عريض وثروة واسعة حتى كثر منهم الأجواد وغزرت عطاياهم وقصدهم العفاة وأصحاب الحاجات وكان من ذلك ما نقرؤه من أخبار جودهم الكثيرة في العقد الفريد والأغاني وغيرهما من الأمهات .

ولم تكن النساء القرشيات لتقصر عن الرجال في هذا المدى بل كان منهن من اتسعت ثروتها من التجارة حتى فاقت كثيراً من الرجال . ولعل السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين خير مثال نقدمه على ذلك: فقد كانت من أكبر تجار قريش وأكثرهم مالاً وأوفرهم غنى ، وكانت في حسب ومقام رفيع في قومها ، مع مزايا في أخلاقها طيبة . كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم . ترسل بأموالها إلى الشام وإلى عكاظ وحباشة وغيرهما من أسواق العرب . وكثيراً ما كانت ترجع هذه الأموال بربح وافر . وذكروا أن عير

(١) وفي كتب الأدب تقع على مكاسب كثير منهم ، وفيهم من صاروا أعلام الإسلام فيما بعد ، فابن قتيبة في كتابه المعارف يذكر أن أبا سفيان كان يبيع الزيت والأدم ، وأمية بن خلف يبيع البرم ، وعقبة بن أبي معيط كان خماراً ، وأبو طالب كان يبيع العطر وربما باع البز ، وأبو بكر وعثمان بن عفان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا يبيعون البز .. المعارف ص ٢٤٧ (المطبعة الرحمانية ١٩٣٥)

خديجة كعامة عير قريش[١] . ولما بلغها عن محمد بن عبد الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج إلى الشام ، ولعل الحقيقة ما ذكره الزرقاني شارح المواهب من أن الرسول نفسه استشرف للسفر بمال خديجة فقد ذكر :

[أن أبا طالب قال له : « يا بن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتدالزمان علیناوألحت علينا سنون منكرة وليس لنامادة ولاتجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك . » فقال محمد : « لعلها ترسل إليّ في ذلك . » فقال أبو طالب : « إني أخاف أن تولي غيرك . »]

وبلغ خديجة ما كان من محاورتهما فقالت لمن بلغها : « ما علمت أنه يريد هذا . » ثم أرسلت إليه وقالت له : « دعاني إلى البعثة إليك ما يبلغني من صـــدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك . » فذكر ذلك لعمه فقال : « إن هذا لرزق ساقه الله إليك » وكان عمره ﷺ في هذه الرحلة خمساًوعشرين سنة . « وخرج رسول الله إلى سوق بصرى فباع سلعته

(١) شرح المواهب ١ : ١٩٨ وابن سعد ٨/٩

التي أخرج واشترى غيرها وقدم بها فربحت ضعف ما كانت تربح..»[١]

كانت قريش تنظم كل سنة عيراً بتجارة إلى الشام، وكانت هذه القوافل تزيد شأناً عاماً فعاماً.

ولما بلغ أذى قريش من المسلمين ما بلغ، حتى اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الحبشة[٢]، ثم الهجرة الكبرى إلى المدينة[٣]، واعتز المسلمون وقووا ... كان أول أمر ينتصفون به لأنفسهم، ويحملون أعداءهم من قريش بسببه على الكف من كيدهم وأذاهم لمن في بلدهم من ضعفة المسلمين، هو التعرض لتجارتهم وإن جارينا مصطلح عصرنا قلنا: أن يضربوا على قريش حصاراً اقتصادياً، لعلمهم أن ذلك أبعث على الرعب وأبلغ في النكاية بهم وأفتك ما تكون الحرب في العدو

(١) طبقات ابن سعد ٨/٩

(٢) وإنما خصوا الحبشة بالهجرة لكثرة ترددهم عليها في الجاهلية للاتجار، ولإيناسهم من ملكها عدلاً ورعاية، والأصفهاني يذكر لنا في صدد كلامه على خروج عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص - وكانا تاجرين - الى أرض الحبشة قوله: «وكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً» - الاغاني ٩/٥٦ (طبعة دار الكتب).

(٣) خافت قريش على مكانتها وتجارتها فوضعت جائزة كبيرة لمن يأتيها بالنبي، حتى اضطر النبي وصاحبه الى الاختفاء في الغار.. وهذا من أعمالهم (الدولية) التي أفادوها من مخالطتهم شعوباً خاضعة لحكومات مختلفة.

حين توهى (اقتصادياته) ، فأرسل الرسول ﷺ سرية عليها عبد الله بن جحش أمير ، لتتعرض لعير قريش ، وكانت راجعة من الشام فترصدوها بموضع بين مكة والطائف يعرف بنخلة ، وكان في العير العلاء بن الحضرمي ، فلما مرت بهم حملوا على من فيها واحتجزوا الأموال وكانت زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش . فقتل من حامية القافلة من قتل ، وأسر من أسر وقوى الله المسلمين بما غنموا من عدوهم الذي أخرجهم من ديارهم وأبنائهم ، وبلغ الخبر قريشا فكانت الأذية منهم بالغة .

وكان السبب في استدراج المسلمين قريشاً إلى المعركة الحاسمة بين الإسلام والشرك في بدر الكبرى تجارياً أيضاً : فإن قريشاً أقبلت لها عير من الشام عليها أبو سفيان في ثلاثين راكباً ، وكان فيها معظم أموالهم ، قدّرها المؤرخون بخمسين ألف دينار ، وقالوا : « لم يبق قرشي ولا قرشية له مثقال إلا بعث به في العير . وبلغ النبي ﷺ خبرها فتجهز ليتعرض لها ، ولكن أبا سفيان أخذ على الساحل فنجا بها بعد أن أرسل إليهم نذيراً ضمضم بن عمرو الغفاري يستنفرهم إلى العير . فجدع هذا أنف بعيره وحوّل رحله وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وصرخ في أهل مكة : إن محمداً مع أصحابه قد عرض لعير قريش ،

يا معشر قريش ! اللطيمةَ اللطيمةَ ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، ما أرى أن تدركوها ، الغوثَ الغوثَ ...

فنهضوا وقالوا : « أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ، كلا والله ، ليعلمُن غير ذلك . » وخرجوا ألفاً بين فارس وراجل ، كل من قدر على النهوض نهض ومن لم يستطع أرسل بماله وسلاحه من يقوم مقامه . وكان كل ذي خطر إما في العير مع أبي سفيان ، وإما في النفير إلى بدر ، وصاروا بعد ذلك إذا استصغروا أحداً قالوا : « لا في العير ولا في النفير » فأرسلوها مثلاً في الناس .

ثم نجت العير ، والتقى الجمعان في بدر الكبرى وكان من أمرهم ما يعلم الجميع . وقرر كبراء قريش أن ترصد أرباح العير للتجهيز لغزو محمد ثأراً لقتلى بدر .

وطفق الرسول عليه السلام يبث سراياه ، وأشفقت قريش من ذلك إذ تتعطل تجاراتهم إذا لم تكن الطريق آمنة ، وطريقهم المسلوكة المعبدة هي الطريق الساحلة إلى الشام وإلى اليمن ، وقد أصبحت غير مأمونة بعد أن صارت كتائب المسلمين ترصد قوافل التجارة المكية ، وأشفق أيضاً القبائل المقيمة على هذا الطريق حول المدينة الى مكة اذ بانقطاع هذا الطريق التجاري موت لهم . وأيٌّ كان فقد فكرت قريش

في تغيير الطريق وسلوك طريق نجد فالعراق لبعده عن منطقة الحصار الذي ضربه المسلمون على تجارة مكة ، وقد قال صفوان بن أمية يوماً في أحد منتديات قريش : « إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسكن . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . » فأشير على قريش أن تسلك طريق العراق ، فخرجت عيرهم مثقلة بالعروض والفضة ، وبلغ أمرها النبي فأرسل زيد بن حارثة في سرية اعترضت العير عند (القرْدة) أحد مياه نجد فغنم العير وأسر الدليل.

كان هذا الحصار الاقتصادي الذي أحكمه الرسول أهم الممهدات لفتح مكة فيما بعد إذ أضعف من قوة قريش الاقتصادية . وإنما قريش بتجارتها وأموالها ، فإذا فقدت مكانتها التجارية فقد هوى شأنها بين العرب، ولذلك عادت تفكر في رفع هذا الحصار عنها في محاولات لم تنته بالنجاح . ولعل أشد ما أحمى قريشاً في موقفها من الرسول وصحبه في مفاوضات الحديبية خوفها أن تفقد مكة ما عرفت به من حرمة وأمن إذا اقتحمها عليهم محمد ﷺ عنوة ، فلا تعود العرب تقصدها للتجارة

فتعطل أسواقها وتخسر قريش أرباحها وثراءها . فلذلك حالوا بكل ما يستطيعون دون وقوع قتال ودون دخول المسلمين لها عامهم ذاك ، إبقاء على مصالحهم التجارية والأدبية بين العرب .

* * *

وليس يصور لنا ذلك الغني المستفيض إلا الأخبار التي أثرت عن كبار القرشيين في الجاهلية والإسلام ، ولا بأس في ذكر عبد الله بن جدعان مثلاً في ذلك :

فقد تقدم أنه كان يبسط الموائد في مكة يطعم الناس الفالوذج وله جفنة عظيمة يأكل منها الفارس على فرسه ، وفي الحديث : « كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان صَكّة عُمَيّ[1] » ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك فقد كان يتخذ القيان يغنينه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضي عن الناس ديونهم ، وله شاعر هو أمية بن أبي الصلت ، وكان يلقب بحاسي الذهب ، وما أجد حاجة إلى التنبيه على بطلان خرافة الكنز التي ذكروها تعليلاً لوجود كل هذا الغنى عنده ، فليس من كسب له ولا لقومه سوى التجارة ، وما عرفنا أن رمال الجزيرة مما تبطن الكنوز .

وأصحاب السير يقدمون لنا حساباً نستطيع أن نعتمد عليه هنا

---

(١) صكة عمي : حين اشتداد الهاجرة .

في معرفة أرباحهم التجارية[1] لنقدّر نحن بعد ذلك الأمد الذي بلغوه في الثروة قالوا : إن قريشاً لما رجعوا من هزيمة بدر إلى مكة ، وقد أصيب أصحاب القليب ورجع أبو سفيان بعيره (سالمة) مشي جماعة من أشراف قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر فقالوا : « يا معشر قريش : إن محمداً وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه » يعنون عير أبي سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة ، والعير - كما تقدم من عادتهم - تنزل أول ما تنزل في دار الندوة حتى يتفق أصحابها على إخراجها للبيع ، فائتمر القرشيون وشركاؤهم أن ينفقوا ربح هذه العير على تجهيز جيش يحاربون به محمداً ﷺ ، وكانت ألف بعير موقرة بما قيمته خمسون ألف دينار ، وكانوا يربحون بكل دينار ديناراً - على ما نقل الزرقاني - فيكون ما أنفق على هذا الجيش خمسين ألف دينار ، أو - على رواية المقل - خمسة وعشرين ألف دينار . وهو على كل حال مبلغ ضخم جداً ، وكان عدد من استأجرهم أبو سفيان

---

(١) كانت هذه التجارة التي تبعث بها مكة والطائف جميعا ، والتي كانت تجيء الى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير في ألفي بعير ، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار . وكانت صادرات مكة السنوية على ما قدرها المستشرق (سبرنجر) توازى مئتين وخمسين ألفاً من الدنانير أي نحو مئة وستين ألف جنيه ذهبا - حياة محمد ص ٢٤٠

من الأحابيش فقط ألفين . . وفي هذا الحادث نزل قول الله عزوجل: «إنَّ الَّذينَ كَفَروا يُنْفِقون أَموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبيلِ الله ، فَسَيُنْفِقونَها ثمَّ تَكونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبونَ .»[1]

وخليق بمن كانت أرباحهم بهذا المقدار أن يثروا في المدة الوجيزة الثراء الكبير . ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ أخذ من العباس الفداء يوم بدر فكان مقداره عشرين أوقية من ذهب ، وأن عثمان بن عفان وحده جهـــز جيش العسرة (في غزوة تبوك) ألف بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ولما أقحط الناس أيام ابي بكر وأتت عيرٌ لعثمان خاصة جعلها جميعاً في سبيل الله . ولما كانت الفتوحات زاد غناه بما لا يقدر حتى إن ابن سعد صاحب الطبقات ليروي (٣ : ٥٣) أنه «كان له عند خازنه يوم قتل(٣٠،٥٠٠،٠٠٠) درهم و (١٥٠) ألف دينار فانتهبت وذهبت وترك ألف بعير بالربذة ، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مئتي ألف دينار»

وليس مايروى في تقدير ثروة عبد الرحمن بن عوف بالقليل فقد ذكر ابن سعد[2] عنه أنه : «قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري ، فقال له سعد : أخي أنا أكثر

---

(١) سورة الأنفال ٨/٣٦ (٢) الطبقات ٣ : ٨٩ .

أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . » فقال عبد الرحمن : « بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق .. » فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن ، ثم لبث ماشاء الله ان يلبث فجاء وعليه ردع (لطخ وأثر طيب) من زعفران فقال له رسول الله ﷺ « مهيم » فقال : « يارسول الله تزوجت امرأة » قال : « فما أصدقتها ؟ » قال : « وزن نواة من ذهب . » قال : « أولِمْ ولو بشاة . » فقال عبد الرحمن : « فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهبـاً . »

وحسبك هذا دليلاً على مهارتهم في الاتجار وخبرتهم بطرق الكسب . أما تركته فكانت « ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس ترعى بالبقيع ... وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيـدي الرجال منه . وترك أربع نسوة ، فأُخرجت امرأة من ثُمُنها بثمانين ألفاً[1] وقد باع مرة أرضاً له بأربعين ألف دينار ، فتصدق بها كلها ، وتصدق مرة بسبعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام ، وأعان في سبيل الله بخمسمائة فرس عربية[2] » « وأوصى في السبيل بخمسين الف دينار[3] »

(١) طبقات ابن سعد ٣/٩٦ والمجل أن يكون بين الجلد واللحم ماء من العمل

(٢) تهذيب التهذيب للذهبي (٣) طبقات ابن سعد ٣/٩٦ .

« وكان الزبير بن العوام كثير المتاجر والاموال قيل : كان له الف مملوك يؤدون الخراج فربما تصدق بذلك في مجلسه ، وقد خلّف أملاكاً بيعت بنحو أربعين ألف ألف درهم[١] .

« وأرسل سعد بن أبي وقاص الى مروان ، بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم ، وترك يوم مات (٢٥٠٠٠٠) درهم[٢] » ومهما تسقط من هذه الارقام مما تقدر انهم كسبوه من غنائم الحرب فسيبقى لك بعد ذلك مقادير واموال طائلة .

فهذا دون شك غنى واسع ، ودنيا عريضة ، وتوفيق عجيب أتيح لهؤلاء التجار ، وإن كلمة عبد الرحمن بن عوف « لو رفعت حجراً لرجوت ان أصيب تحته ذهباً » لتشرح لك مدى التوفيق التجاري الذي أحرزوه بما أتقنوا من هذه المهنة ، وما تفننوا في أساليبها وطرقها .

وأظن هذا القدر كافياً في الدلالة على مبلغ اهتمام قريش بالتجارة حتى صاروا يعيَّرون بذلك[٣] ، حين جعلوها ديدنهم ومعاشهم

(١) تهذيب التهذيب (٢) الطبقات ٣/٩٦

(٣) قال زيد بن صوحان لمعاوية : « كم تكثر علينا بالإمرة وبقريش ، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجار !! » ـ العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ص ١٢٠ (طبع السلفية)

وهِجيّراهم في مجالسهم وأسمارهم ، الكبير منهم والصغير والرجل والمرأة سواء ، كلٌّ يسهم في العير بما يستطيع ، وله من الربح على قـــدر ماله . كانوا يذهبون راحلين الى اليمن أو الى الشام أو إلى العراق حتى جعلوا لانفسهم محطات ومنازل خاصة بأصحابها على طول الطريق (١) ، كل أسرة ترسل من أفرادها من استطاع ، ولا يكادون يُعرفون في العرب بعمل غير التجارة وما اليها من معاملات* .

---

(١) جاء في تفسير الطبري : « لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال ابو بكر « يارسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينـة والشام ولهم بيوت معلومـة على الطريق : فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ » فنزل : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَدْخُلوا بُيوتاً غَيْرَ مَسْكونَةٍ فيها مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللهُ يَعلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . » سورة النور ٢٤ الآيتان ٢٨، ٢٩

(*) أضاف الزمن على تاريخ قريش هـذا ثوباً من التقديس لمكان النبوة منهم ، فكان كثير من علماء المسلمين ومتكلميهم يسبغون على قريش ألواناً من الاجلال والتعظيم لما تكنه قلوبهم لنفر النبي ﷺ ، وصرنا نسمع كثيراً من مثل قول الشاعر :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر

ومثل قول أبي تمام :

تلكمْ قريش لم تكن آباؤها تهفو ولا أحلامهـــا تتقسم
حتى إذا بعث النبي محمـــد فيهم غدت شحنـــاؤهم تتضرم
عزبت عقولهمُ وما من معشر إلا وهم منهم ألبّ وأحـزم =

ونختم هذا الفصل برأي لأحـــد سادات قريش في الجاهلية

- ومن الخير للقارىء أن يطلع على هذه النظرة ليكون إلمامه محيطاً شاملاً ، وليرى فيما سندرجه له امتداداً لنظرة عرب الجاهلية الى قريش النظرة الدينية التي أسهبنا في وصفها ، وإليك اقوالاً لرجال ثلاثة مختلفين ، تمثل في الجملة آراء الناس حتى المئة الرابعة للهجرة ، أما من بعدهم فتبع لهم في ذلك :

١ - قال العتبي : شهدت مجلس عمرو بن عتبـــة وفيه ناس من القرشيين فتشاجروا في مواريث وتجاحدوا ، فلما قاموا من عنده أقبل علينا فقال : « إن لقريش درجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وافعالاً تخضع لها رقاب الأموال وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة ، وألسنة تكل عنها الشفار المشحوذة ، ولو احتفلت الدنيا ماتزينت الا بهم ، ولو كانت لهم ضاقت بسعة أخلاقهم . (العقد الفريد ٢ : ٢٠٨) .

٢ - قال الجاحظ : قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إيجازها وتحبيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها اذا كلّ الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها في اللأواء ، وكيف وفاؤها اذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حب المال ، وكيف ذكرها الأحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف اقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفهـــا له ، ودعاؤها اليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونهـــا لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غوره وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها ، وكيف نماؤها وبهاؤها ، وكيف سررُوها ونجابتها ، وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها . =

والاسلام حكيم بن حزام و كان واسع الغنى فاحش الثراء ، تصدق

= فالعرب كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منهـا ، وهاشم ملح الارض وزينة الدنيا ، وحلي العالم ، والسنام الأضخم والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، وثهلان ذو الهضاب في الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح بعد المقدرة . وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان ، وكالذهب لا يعرف بالنقصان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمآن ، ومنهم الثقلان والأطيبان والسبطان ، وأسد الله ، وذو الجناحين ، وذو قرنيها ، وسيد الوادي ، وساقي الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر اليهـم أو معهم ، والصديق من صدقهم والفاروق من فرّق بين الحق والباطل [منهم] ، والحواريّ حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم اوفيهم او معهم او يضاف اليهم . وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم يتم لنبي نبوة إلا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون . » زهر الآداب ١ : ٩٤ .

وقال أيضاً : « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهي معولهم وعليهـا معتمدهم ، وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ، ولقد بلغتك بسالتهم ووصفت لك جلادتهم ، ونعتت لك أحلامهم ، وتقدّر لك سخاؤهم وضيافتهم ، وبذلهم =

بعيره الخاصة غير مرة وأعتق المئـــات من العبيد في عرفة ، وتصدق بدورو أموال عظام ، هذا الثري القرشي أحب أن يتصل لقريش هذا المجد التجاري ، فلما شاور عمر الصحابة في فرض العطـــاء لقريش وافقوه إلا حكيم بن حزام فقال له : « يا أمير المؤمنين إن قريشاً أهل تجارة ومتى فرضت لهم عطاء تركوا تجارتهم ، فيأتي بعدك من يحبس عنهم العطاء فتكون قد خرجت من أيديهم . »[1]

= ومواساتهم .. » رســائل الجاحظ ، الرسالة السادسة في مدح التجار وذم عمل السلطان .

٣ ـ قال الثعالبي يعدّد مناقب قريش أهل الله : « ومنهــا ثبات جودهم وجزالة عطاياهم ، واحتمالهم المؤن الفلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة ، ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة الــتي هي صناعاتهم ، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق ، وكان في اتصال جودهم العالي عــلى الاجواد ، من قوم لا كسب لهم إلا من التجارة عجب من العجب ، وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال ، فلما زهدوا في المغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة ، فضربوا في البـــلاد الى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء ، فكانوا مع طول ترك الغزو إذا غزوا كالاسود على برثنها ، مع الرأي الاصيل ، والبصيرة الناقدة ...» ثمار القلوب للثعالبي ص٩

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/٤٢١

ب ـ ايلاف قريش

« لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ . رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

إيلاف قريش ، [وإذا شئنا التعبير بلغة عصرنا قلنا المعاهدات التجارية][1] مستفيض الشهرة في كتب السير والتاريخ والأدب .

(١) اطلعنا بعد صدور طبعتنا الاولى باثنتين وعشرين سنة على بحث مفيد بعنوان (الايلاف او المعونات غير المشروطة) نشره الاستاذ ظافر القاسمي أحد العلماء من نقباء المحامين في الشام (مجلة المجمع العلمي العربي ١ نيسان ١٩٥٩) فعلق على تعبيرنا عن الايلاف بالمعاهدات التجارية بما يلي :

« ما من شك في أن الغرض من الايلاف تجاري .. ولكنه لا يمكن ان يسمى « المعاهدات التجارية » لأن هذه تقتضي اتفاقاً على تبادل السلع وطريقة دفع قيمتها أو مكوسها (جماركها) أو غير ذلك . أما أمان الطريق بغير حلف ، فلا يمكن ان يسمى بلغة العصر الا (المساعدات غير المشروطة ـ Aides inconditionnés) اه.وليس في يدنا ولا يده مايجزم بأنه لم يكن هناك اتفاق على تبادل السلع ، بل المعروف العكس ، فالتجارة العربية كانت تنقل الى بلاد العرب من الشام (وهي مشمولة بالحكم الروماني) القمح والزيت وما اليها ، وتجلب اليها من بضائع الهند والحبشة والجزيرة ما مر بك تفصيله أول هذا =

وقد أخبر به القرآن الكريم . وهو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قبيل الإسلام .

وفي تحديد معنى الإيلاف مذاهب ، منها :

١ ـ أنه الدأب ، فسره بذلك ابن سعد صاحب الطبقات . ومنها :

٢ ـ أنه ربح مخصوص جعله هاشم لرؤساء القبائل فيحمل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق إليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ويكفي قريشاً الأعداء[1] . ومنها :

٣ ـ أنه العهد وشبه الاجازة والخفارة[2] قاله صاحب القاموس .

= الباب والباب قبله . ولا يمكننا لذلك قبول التسمية (بالمساعدات غير المشروطة) لأنه سيمر بك اشتراط القرشيين على انفسهم بلسان هاشم جلب البضائع اللازمة لبلاد قيصر وأن يضمنوا له ان تباع عنده أرخص ويكفوه حملانها .

هذا وشح المصادر بالتفاصيل من جهة وضرورة التسامح في المصطلحات من جهة اخرى يجعلان من غير المعقول المطالبة بالشروط الحديثة للمصطلحات القديمة حين نطلقها على أحداث كانت قبل خمسة عشر قرناً ، اذ لكل جيل اعتباراته الخاصة المتغيرة على الزمن من اطلاق الى تقييد ، ومن تعميم الى دقة في الشروط والتفاصيل والتخصيص . ونقص شيء من هذا لا يسلب المصطلح معناه .

(١) ثمار القلوب ص ٨٩

(٢) وفسره المسعودي بالامن ، ثم أردف بقوله : ورحلت قريش حين أخذ لها الإيلاف من الملوك الى الشام والحبشة واليمن والعراق . » ـ مروج الذهب ١ / ٣٦٩ ومحمد بن حبيب فسره في كتابه (المحبر) بأنه العهود ص١٦٢

ومن التفصيل الذي سنسوقه لك تعرف أن المعاني الثلاثة تجتمع في الإيلاف معاً .

ذكر الثعالبي أن قريشاً « كانت لا تتاجر إلا مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم ، لا تبرح دارها ولا تجاوز حرمها ، للتحمس في دينهم والحب لحرمهم والإلف لبيتهم ، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم . وكانوا بوادٍ غير ذي زرع كما حكي الله عن إبراهيم حين قال :

« رَبِّ إني أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ[1] . »

فكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك ، وأبعد في السفر ، ومرّ بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله ، هاشم ابن عبد مناف وكانت له رحلتان : في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من أرض الحبشة ، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم .

وأبى رواة الأخبار إلا أن يجعلوا لهاتين الرحلتين بدءاً يكون لهما كالسبب والعلة فرووا عن ابن عباس :

(١) ثمار القلوب ص ٨٩ ـ والآية هي السابعة والثلاثون من سورة إبراهيم

« أن السبب في هاتين الرحلتين هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة ، خرج وعياله إلى موضع ، وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ، إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له تِرب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة . فدخل أسد على أمه يبكي ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً . ثم أتى ترب أسد مرة أخرى وشكا إليه الجوع . فقام هاشم خطيباً في قريش فقال :

« إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون . وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم ، والناس لكم تبع . » قالوا : « نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف . »

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم . فجاء الاسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش . وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي[1] »

---

(١) بلوغ الأرب ٣ : ٣٦٨ ، والكافي الغني . وفي هاشم وصنيعه يقول خاله الحارث بن حنش السلمي :

إن أخي هاشماً ليس أخا واحد ... الآخذ الإيلاف ، والقائم للقاعد

انظر رسائل الجاحظ جمع السندوبي ص ٧١ (المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ) و (المحبر) لابن حبيب ص ١٦٢

وكان هاشم يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل ورؤساء العشائر لخصلتين : « إحداهما أن ذوءبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً كبني طيء وخثعم وقضاعة . وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له ... فكان الإيلاف صلاحاً للفريقين إذ كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً فأخصبت قريش وأتاها خير الشام واليمن والحبشة وحسنت حالها وطاب عيشها . »

وقول الله : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . » يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف ، والخوف الذي كانوا عليه ممن يمرّون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال وهو قوله عز ذكره : تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ »[1] يعني في تلك الأسفار ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم وأمنهم لأن الله يقول : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً »[2] مع قوله : « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً »[3] وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ . »[4]

(١) سورة الانفال ٨ الآية ٢٦ (٢) سورة البقرة ٢ الآية ١٢٥
(٣) سورة آل عمران ٣ الآية ٩٧ (٤) سورة العنكبوت ٢٩ الآية ٦٧

ويعلق عدد من المفسرين مطلع السورة (لإيلاف) بسورة الفيل التي قبلها ويكون تسلسل الكلام عندهم « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ » والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل « الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم فلا يجترىء عليهم أحد ولا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم »[1]

هذا وقد عم مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الايلاف لان جميعهم قد فعل ذلك فقال :

يا أيها الرجل المحوّل رحله   هلا حللت بآل عبد مناف
المنعمين إذا النجوم تغيرت   والظاعنين لوحلة الإيلاف[2]
سفرين سنهما له ولقومه   سفر الشتاء وسفرة الأصياف

---

(١) الزمخشري في الكشاف ، ويؤكد تعليق (لإيلاف) بـ (فجعلهم) بأن السورتين في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل ، وأن عمر قرأهما في الركعة الثانية من صلاة المغرب .

(٢) لهذا البيت روايات ، والتي هنا من سيرة ابن هشام . وانظر (المحبر) لمحمد ابن حبيب ص ١٦٤ ففيه :

هبلتك أمك لو حللت اليهم   ضمنوك من جرع ومن تطواف
الآخذون العهد من آفاقها   والراحلون برحلة الإيلاف
ويقابلون الريح كل عشية   حتى تغيب الشمس في الرجّاف

ومر بك تعداد الكميت مآثر أجداد هشام بن عبد الملك فذكر منها الإيلاف ص٩٧

وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب قال الشاعر وهو يردّ على بني أسد ما يدّعونه من قرابة قريش :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلفٌ وليس لكم إلاف
أولئك أومنوا خوفاً وجوعاً وقد جاعت بنو أسد وخافوا . اهـ»

وهناك قول بتفسير الإيلاف غير صحيح جاء في شرح ابن أبي الحديد وهو قوله : « إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بهـا مكة » والأمر على العكس فالمستفيد من الايلاف مادةً هم رؤساء القبائل ، ومكة لم يؤثر أن اعتدى على حرمتها أحد من العرب فبلغ منها .

وقد آن أن نذكر الايلافات أو المعاهدات التجارية التي عقدها هاشم وإخوته المطلب وعبد شمس ونوفل مع العرب والروم والحبشة وفارس، فأخرجوا بذلك تجارة قريش من طابعها المحلي وأفقها المحصور إلى الآفاق الأجنبية ، فصارت لقريش العلائق الخارجية مع الدول المعروفة حينئذ وأثرت هذه العلاقات في حالاتها الاجتماعية أثراً بعيداً نحن متعرضون له بعد قليل .

ومتى عرفنا ما أسدى أولاد عبد مناف لقريش وللعرب من أياد تبيّنا مدى الصدق في قولة ابن عباس :

« والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الايلاف وأجاز لهم العير لهَاشم ، والله ماشدت قريش رحْلاً ولاحبلاً بسفر ولا أناخت بعيراً لحضر إلا بهاشم . »

ونحن فيما سنعرض عليك من حديث ، عيال على القـالي الذي انفرد دون غيره من أصحاب الأمات بتفصيل تلك الأحلاف،ولا بد من تنبيهك إلى أن العرب كثيراً ماتسمي عامل الشام قيصر وهوالمراد في حديث القـالي ، ولعل عامل أنقرة هو المراد أيضاً من قيصر أنقرة فيما روى ابن سعد في طبقاته إذ قال :

«كان اسم هاشم عمراً وكان صاحب إيلاف قريش . وإيلاف قريش : دأب قريش ، وكان أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلىالنجاشي فيكرمهويحبوه، ورحلته في الصيف إلى الشام إلى غزة وربما بلغ (أنقرة) فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه[1].»

ولا ينبغي ان تستغرب ماتقرأ في رواية القـالي من اهتمام قيصر

(١) الطبقات ١ : ٤٣

بهـــاشم فإن الروم كانوا يهتمون بمن ينزل ارضهم من العرب الغرباء وليس من المعقول ان يكون أمرهم هملاً فالغالب أن هناك موظفين وعيوناً من العرب أو ممن يعرفون العربيـة يوافون العامل بأخبـار الطرّاء والتجار الأجانب قال ابو علي القالي [١] :

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة ، إنما تقـدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى :

١ ـ ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام فنزل بقيصر ، فـكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل النـــاس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر فقيل له : « هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم . » وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز . فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه . فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : « أيها الملك إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يُستَطرَف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو

---

(١) الامالي ٣/١٩٩ طبعة دار الكتب

أرخص عليكم . » فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحيّ من أحيـــاء العرب أخذ من أشرافهم إيلافاً - والايلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حِلْف ، وإنما هو أمان الطريق - على ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حُملانها ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الايلاف بينهم وبين أهل الشـــام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ويوفّيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها . ومات في ذلك السفر بغزة .

ب - وخرج المطلب بن عبد مناف الى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الايلاف كفعل هاشم . وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمي الفَيْض وهلك بردمان من اليمن .

ج - وخرج عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشه ، فأخذ إيلافاً لفعل هاشم والمطلب وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحَجون .

د - وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مرّ به من العرب . ثم قـــدم

مكة ورجع الى العراق فمات بسلْمان .

واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية و كثرت أموالها . فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منةً في الجاهلية والاسلام . ا ه »

يمتاز هذا الخبر بما تقدمه بالدقة فقد عرفنا أن صاحب القاموس ومحمد بن حبيب فسرا الايلاف بالعهد . وما يتبادر الى الذهن من ذلك حقوق متقابلة وحلف دائم فقصر الايلاف هنـــا على أمان الطريق فقط . وخرجنا من رواية القالي بأربع معاهدات تجـارية ، إلا أن الفكر ليستشرف لمعرفة نصوص هذه المعاهدات ويتوقع تفصيـلاً أكثر . أما الكتاب الذي أشار القالي الى ان قيصر كتبه لهاشم فإنا لم نجد له ذكراً بعد موت هاشم ، فيما بين أيدينا من المصادر . وهو - ان صح وقوعه - من الخطر بمكان ، بل هو مما يجب أن يعضّ عليه بنو هاشم بالنواجذ ففيه لهم فخر كبير وهم الحريصون على قيد كل صغيرة و كبيرة مما يدخل في باب المفاخرة فمن العجيب سكوت الأخباريين عن ذكره في المناسبات التي كثيراً ماتعرض .

وهؤلاء (هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل) هم أصحـاب الايلاف « الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءهـا ... وكلٌ كان رئيس من يخرج معه ممن يتجر في وجهـه ... فهؤلاء سـادة قريش

وتاعشوهم[١] . »

لقد انتقلت أحوال قريش التجارية بهاشم واخوته من طور الى طور ، فبعد ان كانت قاصرة على مكة يقدم عليهم فيها التجار الأعاجم فيشترون منهم سلعهم ، خلصوا من تحكم الأجانب ومارسوا هم انفسهم التجارة الخارجية بعد أن أمنوا الطريق وعقدوا المحالفات فعظمت ثرواتهم وفاض غناهم وأصبح معظم اتجار الجزيرة مع الأمم المجاورة حكرة لهم ، وقد اعترفت قريش لأولاد عبدمناف بفضلهم وجميل صنيعهم لقومهم فسموهم (المجبرين[٢]) إذ بهؤلاء النفر الاربعة جبرت قريش وتبحبحت في الخير والغنى والمقام .

ويزيد ابن سعد في طبقاته ، فيذكر لنا شيئاً مما في عهد قيصر ، ويذكر أيضاً كتاباً آخر أرسله قيصر الى النجاشي يوصيه بهم ولم يشر إلى شيء من مضمون هذا الكتاب قال[٣] : « كان هاشم رجلاً شريفاً وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر لأن تختلف آمنة . وأما من على الطريق (يعني قوافل العرب) فألفهم على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق . فكتب له قيصر كتاباً وكتب الى النجاشي ان يدخل قريشاً أرضه . »

(١) محمد بن حبيب في كتاب المحبر ص ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) ويسموهم أيضاً اقداح النضار لشرف أحسابهم وفضل مساعيهم . ـ انظر الاسلام والحضارة العربية ص ١١٦

(٣) الطبقات ١/٤٥

وفي شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٥٨) أن هاشماً سأل قيصر أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر وان يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ففعل . والغموض الذي في الرواية المتقدمة يكتنف هذه أيضاً فليس فيها صيغة هذا الأمان ولا شروطه .

ومهما يكن من شيء فإلى هؤلاء الاخوة الاربعة ، يرجع الفضل كله في تثمير تجارة قريش[1] وبنائها على أسس قوية حتى اتسعت فصارت شبه دولية بعد ان كانت موضعية لاتعدو الأسواق القريبة من مكة . فهم في الحقيقة أبطال قريش ورجالاتها في الاقتصاد وهم دعائمها التجارية التي قامت تلك الثروة العريضة بمساعيهم وكفاياتهم ، وليس بقليل أن تفتح أربع ممالك أسواقها لقوافل قريش وتجاراتها . وما أنا إلى الغلو إذا زعمت أن فضل هذه الأحلاف امتد حتى زمن الاسلام ، وأن المسلمين الأولين ما اختيرت لهم الحبشة مُهاجَراً إلا لاعتيادهم الرحلة إليها متاجرين، وإلا لمعرفتهم بها وبأهلها لكثرة ارتيادهم

(١) ومن حولها ايضاً من التجار غير القرشيين الذين ضربوا في الارض للتجارة بعد ان مهدت لهم قريش السبيل ، فكتب السيرة مثلاً تذكر لنا أن مشركي مكة أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سفيراً الى الرسول في مفاوضات الحديبية وأن من قوله لقريش لما عاد « يامعشر قريش ، اني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، واني والله مارأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في اصحابه .. الخ ».

إياها وحمدهم مقامهم فيها وحسن ما يلقون من معاملة طيبة .

في الخبر بعد ، إشارة إلى كرم هاشم وكثرة إنفاقه على إخوانه ، وأن أفعاله نمت على أصله وسيادته وشرفه ، كما فيه تصريح بأسلوب الروم وأسلوب العرب في أكل اللحم والمرق وكيف عجب الروم من الثريد لأنه طراز لم يألفوه .

* * *

ذكروا أن اللام في قوله تعالى أول السورة : « لإيلافِ قريشٍ » للتعجب فالمعنى : اعجبوا لايلاف قريش ، وآخرون علقوها ومجرورها بالفعل فقالوا إن المعنى : فليعبدوا ربَّ هذا البيت لايلافهم[1]. فجعلوا الفاء في الفعل زائدة لتحسين اللفظ وتقوية المعنى كما في قوله تعالى : « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » وجعلوا « إيلاف » الثانية توكيداً للأولى .

وقد امتنَّ الله عليهم بإيمان خوفهم من الغارات والحروب والقتال وغير ذلك من الأمور التي يخافها كل عربي غيرهم حتى إن الرجل منهم ليصاب في حيٍّ من أحياء العرب فإذا قال : أنا حرمي (أي من أهل الحرم) أطلقوه وكفوا عن ماله إكراماً له .

وقد أمَّن الله أهل مكة من خوف آخر هو جيش أبرهة أصحاب

---

(١) والوجه ماتقدم لك ص ١٥٢ من تعليق (لإيلاف) بقوله (فجعلهم كعصف مأكول) فارجع إليه .

الفيل حين ردهم الله عن مكة والبيت بعد أن اعتصم أهلها بالشعاف والهضاب . ومنّ عليهم حين أنقذهم من جوع السنين التي أصابهم قحطها من قبل . فذكر ابن عباس وعكرمة[١] أن الله أمرهم في هذه السورة بالاقامة بمكة لعبادة رب هذا البيت . إذ كفاهم مؤونة رحلتيهم بعد أن كانوا لا يكادون يرتاحون في صيف ولا شتاء .

لخص صاحب القاموس ما تقدم حين عرض لتفسير الإيلاف فقال :

« والايلافُ في التنزيل (العهد) وشبه الاجازة بالخفارة وأولُ من أخذه هاشم من ملك الشام ، وتأويله أنهم كانوا سكان الحرم ، آمنين في امتيارهم وتنقلاتهم شتاء وصيفاً والناس يُتَخَطَّفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : « نحن أهل حرم الله » فلا يتعرض لهم أحد ... وكان هاشم يؤالف إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبالِ (عهود) هؤلاء الاخوة ، فلا يتعرض لهم . وكان كل أخ منهم أخذ حبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له . »

(١) راجع أقوال المفسرين في ذلك .

ج- حرب الفجار

أفردت هذا البحث وإن كان حقه أن يذكر في أحداث سوق عكاظ ، لخطره وبعد أثره ولأن هذا الفجار كان في حقيقته نزاعاً على النفوذ التجاري والأدبي ، بين قريش وأحلافها وبين هوازن القبيلة المعروفة بعددها وبطشها .

وقعت هذه الحرب وكان بودّ قريش ألا تقع ، لميلها إلى السلم الضروري لتجارتها وكانت تجنح إلى السلم في كثير من أمورهاوخاصة مع قبيلة هوازن التي لها القوة والمنعة حول عكاظ . فإن قريشاً ترهب جانبها وتجتنب ما يعكر الصفو بينها وبين هوازن حرصاً على سلامة الموسم وعلى تجاراتها فيه . يدلنا على ذلك أن عبد الله بن جدعان كان طرد مئة ناقة لكلاب بن ربيعة فأرسل كلاب إلى قريش : « إن سفيهكم أغار علي وطرد لي مئة ناقة ، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ولي عليكم ترة . » وكانت عكاظفي وسط أرض قيس بن عيلان . قال ابن جدعان: « وإن قريشاً ائتمرت بقتلي ، لئلا أجني عليهم الجرائر فيطلبون بسببي

وهم تجار لا يستغنون عن بلد .»[١]

وهذا صريح في إشفاق قريش من كل ما يعكر أمن تجارتها وقد أذعنت للتهديد حتى كادت تسلم أحد أفرادها ، وهو شيء لا تسمح به العرب أبداً حتى تفنى عن آخرها . وبهذا عرفوا ، وما كانت قريش لتخرج على ذلك لولا الضرورة الملحة ولولا أنها تهدد موردها الوحيد وهو التجارة .

أيام الفجار أربعة . وإنما نريد هنا الكلام على الفجار الآخر أي الرابع لأنه هو الذي أدى إلى الحروب ، وهو الذي كان سببه التزاحم على الكسب والتجارة . أما بقية الأيام فستمر بها عند الكلام على عكاظ .

وقد سميت بالفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم وهي الشهور التي تعظمها العرب وتحرم فيها القتل والقتال فيما بينها . فلما خرج المتحاربون فيها على شريعة العرب كانوا فاجرين[٢] بذلك . وأيامها خمسة تفرقت على أربع سنين . وها نحن أولاء نأتي عليها بالتفصيل الممكن معتمدين فيه على الأغاني وبلوغ الأرب وعلى العقد الفريد خاصة .

(١) الاكليل للهمداني ٨ : ١٨٤

(٢) يلاحظ الجاحظ بحق ـ أن قريشاً لم تفجر وإنما فجر الذين حاربوهم ـ رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ص ٧٤

سنتها

من الصعب تعيين سنة هذه الحروب لما ورد فيها من تضارب الروايات ، فقد أجمعت المصادر على أن رسول الله ﷺ حضرها بنفسه ،ثم افترقت فرقتين : فابن هشام ومن تابعه يجعلون سن الرسول لما حضرها أربع عشرة سنة ،ومنهم صاحب العقد الفريد الذي يروي فيذلك حديثاً هذا نصه : « كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربععشرة سنة . » وابن إسحاق ومن تابعه ـ ومنهم صاحب القاموس والأصفهانيوابنسعد ـ جعل سنه حينئذٍ عشرين سنة . وهناكغموض آخر اشترك فيه الفريقان معاً وهو أن أيام الفجار الآخر تفرقت على أربع سنين ،ففي أيتهن كان عمره أربع عشرة أو عشرين ؟ وأنا لم أهتد بعد إلى الحق الذي لا حق غيره في هذه الروايات . ونبله ﷺ على أعمامه فسر بوجهين : أما صاحب العقد الفريد فقال : أنبل بمعنى أناولهم النبل وهو خلاف ماذهب إليه ابن هشام في سيرته من أنمعناه أنه كان يرد عنهم نبل عدوهم . إلا أن تعدية الفعل بـ (على) ترجح التفسير الأول فقد جاء في القاموس : نبل عليه : لقط له النبل.وروي الحديث (في مادة فجر) ـ وكذلك رواه ابن سعد ـ على هذهالصيغة: « كنت أنبل على عمومتي يوم الفجار ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب

أني لم أكن فعلت . »

فإن يكن رسول الله ﷺ قد حضر الأيام جميعها وكانت سنه أول ما هاجت خمس عشرة سنة - على إحـــدى روايتي ابن هشام - أمكن التوفيق بين الروايات على وجه التقريب فتكون الحرب قد وضعت أوزارها وقد أشرفت سنه على العشرين . فكان يلتقط السهام في أولها ويرمي بنفسه في آخرها . فعلى الرواية الأولى تكون الحرب قـــد وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاما وتوافق سنة (٥٨٥) للميلاد المسيحي .

سبب الحرب :

من عادة النعمان بن المنذر ملك الحيرة أنه يرسل كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة (وهي الجمال تحمل المسك والطيب) بجوار رجل شريف من أشراف العرب ، يحميها له حتى تصل إلى السوق فتباع فيها ويشترى له بثمنها أَدَم من أدم الطائف .

ولا يقوم عادة بعبء حمايتها إلا رجل منيع ، لقومه عدد وعزة. وكان الذي يجيرها في الغالب سيد مضر[1] .

فلما جهز النعمان اللطيمة لهذا العام (٥٨٥م) قال : « من يجيرها ؟ »

(١) الاغاني ١٩ : ٧٥

وكان بحضرته أناس من أشراف القبائل ، فانبرى له البرّاض بن قيس الضمري وكان فتاكاً يضرب بفتكه المثل فقال : « أنا أجيرها على بني كنانة . » فقال النعمان : « ما أريد إلا رجلاً يجيرها على أهل نجد وتهامة . » فقام عروة الرحّال أحد أشراف هوازن وكبرائهم فقال: « أكلب خليع يجيرها لك ؟ أبيت اللعن ، أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم » يريد عامة العرب . فحقدها عليه البرّاض وقال : « أعلى بني كنانة تجيرها يا عروة ؟ » قال : « نعم وعلى الناس كلهم . » فحمي البراض إذ عدها استهانة به واستخفافاً بقومه ، وأضمرها في نفسه غدرة شنعاء .

دفع النعمان اللطيمة إلى عروة فخرج بها . فتبعه البرّاض وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه شيئاً لأنه منيع بين قومه من غطفان ، حتى إذا بلغوا (فدك) نزل عروة في أرض يقال لها « أوارة » فشرب الخمر وغنّته قينة ثم قام فنام .

اغتنم الفرصة البرّاض ، وانسل إليه في خبائه ، فلما رآه عروة ناشده واعتذر إليه وقال : « كانت مني زلة » فلم يفد الاعتذار شيئاً ولم يخفف مما يضطرم في صدر البراض من الحقد ، فانقضّ على عروة فقتله وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة مني ضلّة

هلاّ على غيري جعلت الزلّة

فسوف أعلو بالحسام القُلّة

ثم أنشد :

وداهية يُهال الناس منها ... شددت لها بني بكر ضلوعي

قدمت بها بيوت بني كلاب ... وأرضعت الموالي بالضروع

جمعت له يديّ بنصل سيف ... فخرّ يميد كالجذع الصريع[1]

واستاق اللطيمة إلى خيبر ، و بعث رسولاً مستعجلاً إلى حرب ابن أمية يخبره أنه قتل عروة فليحذر قيساً[2] ، فتبعه رجلان من غطفان يريدان قتله ، فكان هو أول من لقيهما فعرف ما قصدا إليه فنوى التعجيل بهما فقال لهما : « من الرجلان ؟ » قالا : « من غطفان وغني » قال البراض : « ماشأن غطفان وغني بهذه البلدة ؟ » قالا : « ومن أنت ؟ » قال : « من أهل خيبر » قالا : « ألك علم بالبراض ؟ » قال : « دخل علينا طريداً خليعاً فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً . » قالا : « فأين

(١) أرضعت الموالي بالضروع : ألحقت الموالي بمنزلتهم من اللؤم ورضاع الضروع وأظهرت فسالتهم ، وهذا كما يقال لئيم راضع أي يرضع اللؤم من ثدي أمه . والقلة من كل شيء : أعلاه

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان ١ : ٢٤١

يكون ؟ » قال : « فهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟ » قالا : « نعم » قال : « فانزلا » فنزلا فعقلا راحلتيهما . قال البرّاض : « فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟ » قال الغطفاني : «أنا» قال : « فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما . » ففعل .

وانطلق البراض يمشي بين يدي الغطفاني حتى انتهى إلى خربة في جانب خيبر ، خارجة عن البيوت فقال البرّاض : « هو في هذه الخربة وإليها يأوي . فأنظرني حتى أنظر: أثَمّ هو أم لا ؟ » فوقف له الرجل ودخل البراض ثم خرج إليه وقال : « هو نائم في البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت . فهل عندك سيف فيه صرامة؟» قال : « نعم » قال : « أرني سيفك أنظر إليه أصارم هو ؟ » فأعطاه إياه ، فهزه البرّاض ثم ضربه به فقتله . ووضع السيف خلف الباب .

وأقبل على الغنوي فقال : « ماوراءك ؟ » قال البرّاض : « لم أرَ أجبن من صاحبك ، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل - والرجل نائم - لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه . » قال الغنوي : « يا لهفاه ! لوكان أحد ينظر راحلتينا . » قال البرّاض : « هما عليّ إن ذهبتا . » فانطلق الغنوي والبرّاض خلفه حتى إذا جاوز الغنوي باب الخربة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله . وأخذ سلاحيهما

وراحلتيهما ثم انطلق .

يوم نخلة :

بلغ قريشاً خبر البرّاض وقتله عروة وفزعوا أن تعلم بذلك هوازن فتدهمهم وكانوا في عكاظ في الشهر الحرام فخلصوا نجياً (واتفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك فأتوه وأخبروه فأجاز مالك بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا) . لكنّ فريقاً منهم خافوا أن يكون قومهم بمكة في ضيق فانسلّوا من عكاظ وهوازن لا تشعر بهم وتوجهوا نحو مكة رجاء أن ينصروا إخوانهم إن كان حزَبهم أمر .

وكان من عادة العرب إذا وفدت على عكاظ أن تدفع أسلحتها إلى عبد الله بن جدعان ، وكان هذا سيداً حكيماً مثرياً من المال ، فتبقى عنده أسلحة الناس حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم فيردها عليهم إذا ظعنوا . فلما كان من أمر البراض ما كان قال حرب بن أمية لابن جدعان : « احتبس قِبلك سلاح هوازن . » فقال عبد الله : « أبالغدر تأمرني يا حرب ؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى فيها سيف إلاّ ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئاً . ولكن لكم مئة درع ومئة رمح ومئة سيف تستعينون بها . » ثم صاح ابن جدعان

في الناس : « من كان له قِبَلي سلاح فليأت وليأخذه . » فأخذ الناس أسلحتهم .

وبعث ابن جدعان وحرب بن أمية وهشام والوليد ابنا المغيرة إلى أبي براء سيد قيس : « إنه قد كان بعد خروجنا حرب وقدخفنا تفاقم الأمر فلا تنكروا خروجنا . » وساروا راجعين إلى مكة[1] . فلما كان آخر النهار بلغ أبا البراء قتل البراض عروة فقال : « خدعني حرب وابن جدعان . » وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في إثر القوم فأدركوهم في نخلة قبيل الحرم ، فناوشوهم شيئاً من القتال يسيراً حتى جاء الليل ودخلت قريش الحرم فأمسكت هوازن عنهم ونادوهم : يامعشر قريش ! إنا نعاهد الله ألا نبطل دم عروة الرحال أبداً أو نقتل بهعظياً منكم ، وميعادناوإياكم هذه الليالي من العام المقبل . » ونادى رجل من بني عامر :

لقد وعدنا قريشاً وهي كارهة   بأن تجيء الى ضرب رعابيل[2]

فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه : قل لهم : « ان موعدكم قابل في هذا اليوم . »

وتعرف هذه الوقعة بيوم نخلة وقد تعطلت السوق فلم تقم تلك

(١) الاغاني ١٩/٧٦   (٢) ثوب رعابيل : ممزق بال

السنة . فقال خداش بن زهير يذكر قريشاً بها ويعيرهم ، وكانت العرب تسمي قريشاً (سَخينة) لأكلها السخينة وهي طعام رقيق يتخذ من دقيق :

يا شَدة ما شددنا غير كاذبة ... على (سخينة) لولا الليل والحرم
إذ يتقينا هشام بالوليد ولو ... أنا ثقفنا هشاماً شالت الخَدَم
لما رأوا خيلنا تزجي أوائلها ... آساد غيل حمى أشبالها الأجم
ولّوا شلالاً وعُظْم الخيل لاحقة ... كما تخب الى أعطانها النعم[1]
بين الأراك وبين المرج تبطحهم ... زرق الأسنة في أطرافها السهم
فإن سمعتم بجيش سالك شرفاً ... وبطن مرّ فأخفوا الجرس واكتتموا

وهذا غاية في التعيير وفي وصف شدة الحرب حتى صار الأخ يفتدي نفسه بأخيه .

يوم شَمْظة :

شَمْظة[2] موضع في عكاظ نزلته كنانة بعد عام من يوم نخلة حسبما

(١) الخدم جمع خدمة وهي حلقة القوم حيث يجتمعون ، عُظْم الخيل : معظمها . تخب : تسرع . والاعطان : مبارك الإبل حول الماء ، أو هي كالأوطان للناس . شلالاً : خفافاً سراعاً وانظر طبقات فحول الشعراء ص ١٢١

(٢) اثبتها ياقوت في معجم البلدان بالطاء وذكر ان الازهري نقلها بالظاء قلت : وهو المشهور المتداول في كتب اللغة .

اتعدوا هم وهوازن . فاحتشدت كنانة ، قريشها وعبد منافهـــا والأحابيش[1] ومن لحق بهم ، وسلّح يومئذ عبد الله بن جدعان مئة كميّ بأداة كاملة سوى من سلّح من قومه . وعلى إحدى مجنبتي كنانة عبد الله بن جدعان ، وعلى الثانية كريز بن ربيعة ، وأمر الجميع إلى حرب بن أمية الذي كان في القلب . أما هوازن وأحلافها فأمرها الى مسعود بن معتب الثقفي . واعتزل فريق من الحيّين فلم يشهدوا الحرب.

ثم تناهض النـاس وزحف بعضهم الى بعض ، فكانت الدائرة أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت ، فانقشعت كنانة واستحرّ القتل فيهم ، فقتل منهم تحت رايتهم مئة رجل، ولم يقتل من قريش يومئذ أحد يذكر ، وذلك قول خداش بن زهير :

فأبلغ ان عرضت بنا هشاماً | وعبد الله أبلغ والوليدا
أولئك ان يكن في الناس خير | فإن لديهمُ حسباً وجودا

(١) الاحابيش حلفاء قريش وهم ـ على ماقال ابن قتيبة ـ بنو المصطلق ، والحياء بن سعد بن عمرو ، وبنو الهون بن خزيمة : اجتمعوا أسفل جبل بمكة اسمه (حُبْشيٌ) فتحالفوا بالله انا ليد على غيرنا ماسجا ليل وأوضح نهار وما رسا حبشيٌ . وقيل : سموا بذلك لاجتماعهم والتحبيش التجميع . العمدة ١٨٥/٢ والقاموس مادة (حبش) .

همُ خير المعاشر من قريش — وأوراهم إذا قدحت زنودا
بأنا يوم (شمظة) قد أقمنا — عمود الدين إن له عمودا
فجاؤوا عارضاً بَرِداً وجئنا — كما أضرمت في الغاب الوقودا
فعانقنا الكماةَ وعانقونا — عراكَ النُّمْر واجهت الأسودا
ونادوا :يا لعمرو لا تفروا — فقلنا : لا فرار ولا صدودا
فولّوا نضرب الهامات منهم — بما انتهكوا المحارم و الحدودا[1]
فلم أر مثلهم هزموا وفلوا — ولا كذيادنا عُنُقاً مذودا

يوم العبلاء :

عاد الأحياء المذكورون من هؤلاء وأولئك فالتقوا من قابل في اليوم الثالث من أيام عكاظ بالعَبْلاء الى جنب عكاظ فاقتتلوا على التعبئة التي تقدمت .

فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على قريش و كنانة . فأصيبت قريش وقتل أحد صناديدها العوام بن خويلد ، والد الزبير بن العوام حواريّ رسول الله ﷺ ، قتله مرة بن معتب الثقفي ، فقال في ذلك

(١) انظر خزانة الادب ، وطبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٣ (في طبعة دار المعارف : ص ١٢١) . أبلغ بحذف نون التأكيد الخفيفة وإبقاء فتحة البناء على آخر فعل الأمر . والذياد : الدفاع ، والعُنُق : المقبلون بجماعاتهم

رجل من ثقيف يفتخر بقتله لما له من الخطر :

منا الذي ترك العوّام مجندلاً تنتابه الطير لحماً بين أحجار

وفي هذا يقول شاعر هذه الحروب من هوازن . خداش بن زهير :

ألم يبلغكمُ أنا جدعنا لدى العبلاء خندف بالقياد

فقدتكمُ ولحظكمُ إلينا ببطن عكاظ كالإبل الغِداد[1]

ضربناهم ببطن عكاظ حتى تولّوا طالعين من النجاد

ويقول :

ألم يبلغك ما لقيت قريش وحي بني كنانة إذ أبيروا

دهمناهم بأرعن مكفهر فظل لنا بعقوتهم زئير[2]

* * *

يوم شرب :[3]

ثم التقوا على رأس الحول في اليوم الثالث من عكاظ أيضاً بشرب، وشرب من عكاظ . ولم يكن بين الفريقين يوم أعظم منه ، صدقوا

(١) هذا البيت في كتاب (الامتاع والمؤانسة ١ / ٢٢١) وهو في لسان العرب : (عدمتكم ونظرتكم الينا ..) ـ الغداد : جمع غادّة ! أي ناقة ذات غدة

(٢) أبيروا : أهلكوا . العَقْوة ماحول الدار ، المحلة .

(٣) ضبطه ياقوت في معجم البلدان فبفتح فكسر نقلاً عن أبي بكر بن نصر فأما التي في شعر ابن مقبل فبفتح فسكون .

فيه الحملة ، وصبروا حفاظاً وحمية ، وقد أبلت فيه قريش بلاء حسناً . وكان الذي أحماهم أن هوازن عليهم يومين ذهبت بفخرهما . فحافظت قريش وكنانة وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، وقيّد ثلاثة شجعان من قريش وأشرافها أنفسهم وقالوا : « لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو نظفر » وهم أبو سفيان وحرب ابنا أمية ، وابو سفيان بن حرب والد معاوية فسموا (العنابسة) من يومئذ . وكان على الفريقين رؤساؤهم السابقون ، واستمر القتال بهذه الشدة حتى انهزمت هوازن وقيس كلها رغم عددها وعدتها ، إلا بني نصر فإنهم صبروا مع ثقيف ، وذلك لأن عكاظ بلدهم ، لهم فيه نخل وأموال إلا أنهم لم يغنوا شيئاً ثم انهزموا أيضاً وقتلت هوازن يومئذ قتلاً ذريعاً . وذهبت بفخر هذا اليوم كله كنانة وقريش ، فارتفعت أصوات شعرائهم تخلد هذا النصر المؤزّر ، وما لها لا تفعل ، وقد لقيت خزياً كبيراً من شعراء هوازن ، وما شأن شاعر تفقده أمته يوم الحاجة ، وأي غناء لشاعر لا قوم له ، فقال أمية بن أسكر الكناني :

ألا سائل هوازن يوم لاقوا ... فوارس من كنانة معلمينا
لدى شَرِب وقد جاشوا وجشنا ... فأوعب في النفير بنو أبينا[1]

---

(١) وعب : جمع .

وقال :

قومي اللذو بعكاظٍ طيّروا شرراً من روس، قومك ضرباً بالمصاقيل (١)

وقال جذل الطعّان :

جاءت هوازن أرسالاً وإخوتها بنو سُلَيم فهابوا الموت وانصرفوا

فاستُقْبِلوا بضراب فض جمعهمُ مثل الحريق فما عاجوا ولا عصفوا

وقال عبد الله بن الزِ بَعْرىٰ شاعر قريش (والمشركين فيما بعد):

ألا لله قوم و لدت أخت بني سهمِ

هشام وأبو عبد مناف مدره الخصم

وذو الرمحين أشباك من القوة والحزم

فهذان يذودان وذا من كثب يرمي (٢)

---

(١) اللذو : لغة في الذين . والمصاقيل : السيوف .

(٢) وتتمة هذه الأبيات :

أسود تزدهي الأقرا ن مناعون للهضم

وهم يوم عكاظ منعوا الناس من الهزم

وهم من ولدوا أشبوا بسر الحسب الضخم

فإن أحلف وبيت الله لا أحلف على إثم

لما من إخوة بين قصور الشام والردم

بأزكى من بني ريطة أو أوزان في الحلم

أبو عبد مناف الفاكه بن المغيرة . وريطة هذه التي عناها هي أم بني المغيرة هي بنت سعيد بن سعد بن سهم ، ولدت من المغيرة هشاماً وأبا ربيعة والفاكه=

يوم الحُرَيرة :

وهو آخر أيامهم . ثم التقوا على رأس الحول بالحُرَيرة وهي حرّة إلى جنب عكاظ مما يلي مهبّ جنوبها ، وعلى كل قوم رؤساؤهم

ـ وذو الرعين هو أبو ربيعة بن المغيرة لقب به لقتاله في هذه الحرب برعين . وأشباك : حسبك . والمِدْره : زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم . تزدهي الأقران : تستخف بهم . وأشبى فلان : اذا ولد له ولد كيّس . والرَدْم مكان بمكة يضاف الى بني جُمَح ، وقرية بالبحرين .

هذا وقد اختلف في قائل هذه الابيات ، فقيل : ابن الزبعرى . وقيل : عمر ابن أبي ربيعة حفيد ذي الرعين ، وقد كشف الاصفهاني عن حقيقتها بخبره الطريف المشهور قال : قال أبونهشل : جئت أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام الوارد ذكره في الابيات ، قصدته أطلب منه مغرماً فقال : ياخال هذه اربعة آلاف درهم وأنشد هذه الابيات الاربعة (الاولى) وقل سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ . فقلت : أعوذ بالله أن أكذب على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن اقول : سمعت عائشة تنشدها فعلت . فقال : « لا » إلا أن تقول : سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ورسول الله جالس . » فأبى عليّ وأبيت عليه ، فأقمنا لذلك لانتكلم عدة ليال ، فأرسل اليّ فقال : قل أبياتاً تمدح بها هشاماً ـ يعني جده ابن المغيرة ـ وبني أمية . فقلت : « سمهم لي . » فسماهم وقال : « اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك . » فقلت : « ألا لله ... الابيات . » ثم جئت فقلت : « هذه قالها أبي » فقال : « لا » ولكن قل : قالها ابن الزبعرى . » قال : فهي الى الان منسوبة في كتب الناس الى ابن الزبعرى . » وقيل : هن لعمر ابن أبي ربيعة ، والله أعلم .

السابقون . فاقتتلوا قتالاً شديداً كان شؤماً على قريش وأحلافها ، قتل فيه من كنانة ثمانيـة نفر ، وقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب جد معاوية . وكان يوماً لهوازن فخره ونصره . فلعلع صوت شاعر هوازن بهذه الصاعقة المجلجلة :

إني من النفر المحمرّ أعينهـــم ... أهل السوام وأهل الصخر واللوب[1]
الطـاعنين نحور الخيل مقبـــلة ... من كل سمراء لم تغلب ، ومغلوب
وقـــد بلوتم فأبلاكم بلاؤهم ... يوم الحُرَيرة ضرباً غير مكذوب
لاقتهمُ منهـمُ آساد ملحمة ... ليسوا بدارعـة عوج العراقيب
فالآن إن تقبلوا نأخذ نحوركم ... وإن تباهوا فإني غـير مغلوب

وقال الحارث بن كلدة الثقفي :

تركت الفارس البذّاخ منهم ... تمجّ عروقه علَقـــاً عبيطا
دعست بنانه بالرمح حتى ... سمعت لمتنه فيـــه أطيطا
لقد أرديت قومك يابن صخر ... وقـد جشمتهم أمراً شطيطا
وكم أسلمت منكم من كمي ... جريحاً قـد سمعت له غطيطا[2]

(١) اللوب : جمع لابة وهي الحرّة .

(٢) البعير البذّاخ : المدّار المخرج لشقشقته . والبذخ في الاصل الكبر والعلوّ . العلَق العبيط : الدم المتجمد . دعس : طعن . الاطيط : صوت . الغطيط البعير : هديره ، والنائم : صوته .

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقى الرجل ، والرجلان يلقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً . فلقي ابن محمية بن عبد الله الديلي زهير بن ربيعة أبا خراش فقال زهير : « إني حرام جئت معتمراً . » فقال له : « ما تُلقى طوال الدهر إلا قلت : أنا معتمر » ثم قتله .

انقضت هذه الأيام الخمسة في أربع سنين . ثم تداعى الفريقان إلى السلم على أن يذروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا على الصلح .

عقدوا على ذلك المواثيق وبقيت هذه الأحداث للذكرى والفخر ، يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قومه ، ويتغنى بما كان لهم من محامد . وانظر إن شئت أن ترى آثار ذكرها في مثل قول عبد الله بن الزبَعْرى السهمي :

وإن قصياً أهل عز ونجـــدة　　وأهل فَعال لا يرام قديمهـــا
همُ منعوا يوميْ عـكاظ نساءنا　　كما منع الشَّوْلَ الهجانَ قُرومها[1]

أو قول بعضهم :

نحن كنـا الملوك من آل نجد　　وحمـاة الذمار عند الذمار

(١) الشوْل : النوق التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، الواحدة شائلة . والهجان : الإبل الكرام . والقروم : الفحول - بلوغ الأرب ٣ / ٨٤

ومنعنا (الحَجون) من كل حي ومنعنا الفجار يوم الفجار

وقول خِداش بن زهير :

فلا توعديني بالفجار فإنه أحل ببطحاء (الحَجون) المخازيا[1]

أو قول عاتكة بنت عبد المطلب تخلد نصر قومها في هذه المقطوعة الرائعة :

سائل بنا في قومنا وليكف من شرٍّ سماعُهْ

قيساً وما جمعوا لنا في مجمع باق شناعه

فيه السنوَّر والقنا والكبش ملتمع قناعه

بعكاظ يعشي الناظريـ ـن إذا همُ لمحوا شعاعه

فيه قتلنا مالكاً قسراً وأسلمه رعاعه

ومجدّلاً غادرنه بالقاع تنهسه ضباعه

هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيده من يجيرها من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته ، سبباً مغرياً في هذه الحروب . وأي بدع في هذا فإنا ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقتها تطاحناً على النفوذ الاقتصادي وتكاد أحداث القرن العشرين كلها تكون حول التنافس التجاري إن لم يكن بصورة جلية فمن وراء الستار.

(١) مروج الذهب ٢/١٦٧

د ـ حلف الفضول

ما نظر القرشيون إلى حلف ولا عهد ، نظرهم إلى حلف الفضول فهو يظفر منهم برعاية مقدسة وتبجيل وشرف قلما كان بعضه لحلف آخر .

هو حلف تجاري بمقدماته ونتائجه ، حفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة ، وأسدل عليها ستاراً من الإنصاف والأمن وحماية الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر ،وكادت حوادث الاعتداء عَلى حقوق الضعفاء تزداد حتى أوشكت أن تزعزع ثقة الأعراب وتجار النواحي بأسواق مكة .

ولم تنحصر ثمرته فيما سبق الإسلام بل استمرت فيه وازدادت تأييداً وقوة ومنعة ، أثنى عليه صاحب الرسالة ﷺ واعتز به ، ولما هتف الهاتف به بعد نحو ثمانين سنة من عقده[1] استجاب الناس له كأن عهدهم به أمس ، فكان جديداً لم تُخلق جدته تلك السنون الثمانون التي تمخضت عن أعظم الحوادث الكبار : ظهور الشريعة

---

(١) سيأتي تفصيل هذا بعد قليل .

الإسلامية ، وفتوح العرب وانقراض فارس وانكماش الروم . أهاب الداعي بأصحابه (وقد مات أكثرهم) فهب أبناؤهم متحفزين لنصرته حتى خافت القوة الحاكمة وأذعن والي المدينة ، ورُد الحق إلى صاحبه. ولقد بلغ من شرفه واقتعاده تلك المكانة في نفوس الناس أن استشرف خليفة عظيم كعبد الملك بن مروان ليعده الناس ممن دخل فيه ، فلما لم يظفر بذلك ندت منه حسرة غير خفية .

* * *

كان يهبط مكة من همل الأعراب وسُذَّاجهم ، وضعفاء المتكسبين وأرباب السلع أخلاط كثيرة ، وهم لا ناصر لهم يحميهم ولا منعة فيهم ، يؤمون أسواق مكة موقنين بأن أمن الحرم يسعهم جميعاً . فلم يكونوا يتوقعون أن أحداً تحدثه نفسه بتكدير صفائه . لكن الواقع انكشف عن أنه لم تكن مكة لتخلو من أناس بطرين ، يستهينون بالضعيف ولا يَعِفُّون عن هضمه وسلبه . وكان يحدث حينئذ ما يحدث دائماً في كل زمان ، من استغلال السذاجة في هؤلاء الغرباء : تارة بغبنهم في الثمن وتارة بمطلهم بالديون وآونة بغشهم وأخرى بالاستهتار بهم . وكانت تنشر هذه الحوادث حتى تصل إلى أسماع أشراف مكة فينكرونها في أنفسهم . إلا أنها ـ في الظاهر ـ تعددت حتى لم يعد يصح السكوت عليها ، وحتى خشي على البلد أن يفشو له ذكر سيء

فسعى الأشراف بعضهم إلى بعض وعقدوا الحلف وأكدوه ونصبوا أنفسهم لحمايته .

أما السبب المباشر لعقد هذه الحلف فما ذكروا[١] من أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعة من العاص بن وائل السهمي (وهو قرشي) فظلمه بالثمن فأوفى على جبل أبي قبيس رافعاً عقيرته وقريش في أنديتها ، فذكر ظلامته في شعر له وهو :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتَه   ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لمن يقض عمرته   يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت مكارمه   ولا حرام لثوب الفاجر الغدر[٢]

فتداعت لذلك قريش واجتمعت إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فدخلوا دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه وتعاقدوا بالله : ليكونُن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه . فلا يجدون بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .اه

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٢٥

(٢) رواية الجاحظ لهذا البيت في رسائله (جمع السندوبي ص٧٢)

إن الحرام لمن تمت حرامته   ولا حرام لثوبي لابس الغدر

وزاد الجاحظ : « وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال »[١] وكان من أسرعهم تلبية له الزبير بن العوام .[٢]

شهد هذا الحلف رسول الله ﷺ وهو فتى فلما أكرمه الله بالرسالة حمد أثره وكان به جذلان مغتبطاً حتى رووا عنه قوله :

« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أحب أن لي به حُمر النَّعَم ، ولو أُدْعى به في الإسلام لأجبت » ، « لا يزيده الإسلام إلا شدة » .

وكان هذا الحلف مُنصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنة من عام الفيل فتكون سن رسول الله حينئذ عشرين سنة[٣] .

وذكروا في سبب تسميته حلف الفضول ، أنه أشبه حلفاً وقع لثلاثة من جُرهم كل واحد منهم يقال له الفضل . وأقرب من هـــذا

---

(١) المصدر السابق وانظر تفصيلاً عنه في الأغاني ١٦/٦٣ - ٦٨

(٢) ذكر الجاحظ أنه لما سمع أبيات الزبيدي حمي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب ثم قال :

حلفت لنعقدنْ حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا ... يُعزّ به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا ... أباة الضيم نهجر كل عـــار

الصفحة السابقة وانظر : مروج الذهب ٢/١٦٨ هذا وفي الشعر صناعة .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١ : ٨٢

المذهب إلى الواقع ما ذكره صاحب القاموس من أن سبب تسميته بذلك لأنهم تحالفوا ألا يتركوا عند أحد فضلاً يظلمه أحداً إلا أخذوه له منه .

وهذا هو الصحيح لوضوحه وقربه ولأن ثمرة الحلف كله هي رد الفضول لأهلها .

ومن يتدبر الأسباب التي تكلفها الرواة فجعلوها كمقدمات لعقده ويمحصها يجد أن الداعي الأول له حرص قريش على سمعة بلدهم التجارية أن تثلم بين العرب فتتزعزع ثقتهم بقريش وبلدهم . وليس يظفر من كل تلك الأسباب المذكورة بالقبول إلا ما تقدم فإن الحوادث وحالة مكة وأمور قريش يومذاك تؤيده كل التأييد . ومن البعيد أن يعقد مثل هذا الحلف من أجل ظلامة الزبيدي هذا ، من غير أن تتكرر الحوادث المشابهة لها حتى تفاقم الأمر وألف رجال كثيرون إتيان المظالم .

عظمت قريش أمر حلف الفضول واهتمت به كل الاهتمام ولم ينقطع أمره بالإسلام بل ظل مستمراً أقوى ما كان قط وحسبك قول النبي ﷺ : « ولو أدعى به في الإسلام لأجبت . »

ثم كان يدعو بهذا الحلف كل مظلوم : دافع أبي بن خلف الجمحي بارقياً عن ثمن سلعته فتظلم هذا قائلاً :

أيأخذني في بطن مكة ظالماً ... أبيٌّ ولا قومي لديّ ولا صحبي
وناديت قومي صارخاً لتجيبني ... وكم دون قومي من فيافٍ ومن سهبِ
ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتي ... بني جمح والحق يؤخذ بالغصب[1]

فأخذ له بنو هاشم ثمن سلعته .

ورأى نُبيه بن الحجاج (قتول) بنت التاجر الخثعمي وكانت حسناء باهرة ، فكابر التاجر على ابنته حين رأى جمالها فتظلم الى ذوي الحلف فانتزعوا ابنته من نبيه الذي قال في ذلك :

إنني والذي يحج له ... شمط إياد وهللوا تهليلا
وخشيت الفضول حين أتوني ... قد أراني ولا أخاف الفضولا
لبراء مني قتيلة يا للناس هل يبتغون إلا القتولا[2]

وذكر الجاحظ أن بني هاشم وحلفاءهم انتزعوا الظلامات من رجال كثيرين وأنه « لم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء ولهم العدد

(١) الأغاني ١٦/٦٧ ورسائل الجاحظ ص٧٣

(٢) رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ص٧٣ وذكر فيها قوله أيضاً :

حي البخيلة إذ نأت ... منا على عُدَوائها
لا بالفراق تنيلنا ... شيئاً ولا بلقائها
حلت بمكة حلة ... في مشيها ووطائها
لولا الفضول وأنه ... لاأمن من عَدْوائها
لدنوت من أبياتها ... ولطفت حول خبائها

والعارضة .(١)

ويحلو لي هنا أن أبين للقارىء امتداد هذا الحلف التجاري في حياة المسلمين وتمسكهم به ، فابن هشام يروي : أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كان والياً على المدينة ، ولاه عليها عمه معاوية . وكان بين الوليد والحسين بن علي منازعة في مال كان بينهما بذي المروة . وكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه يومئذ ، فقال الحسين : « أحلف بالله لَتنصفنّي من حقي أو لآخذنّ سيفي ، ثم لأقومَنّ في مسجد رسول الله ﷺ ، ثم لأدعوَن بحلف الفضول .. » وكان عبد الله بن الزبير حاضراً مجلسهما هذا فغضب للحسين وقال يتهدد الوليد : وأنا أحلف بالله ، لئن دعا به لآخذَنّ سيفي ثم لأقومنّ معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . »

وبلغ هذا الخبر المسوّر بن مخرمة بن نوفل فقال مثل ما قال ابن الزبير ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك.

فلما بلغ كل هذا الوليد بن عتبة خاف مغبتها وأنصف الحسين من حقه(٢)

فأنت ترى كيف كان القوم سراعاً إلى تنفيذ هذا الحلف وكيف

(١) المصدر نفسه . (٢) انظر سيرة ابن هشام ١ : ١٢٦

تهيؤوا لنصرته وللاستجابة لمن دعا به وهو أثر غير قليل . وأي معاهدة تمضي فتبقى لها مثل هذه القوة بعد أكثر من سبعين سنة من عقدها !

بل لقد تحمس لها الصحابة أشد التحمس وكان اندفاعهم لصيانتها أقوى مما تقدم ، لقد تحفزوا للقيام بوجه خليفة ذي سلطان قاهر وكادت تكون فتنة لولا أن أذعن معاوية كما أذعن واليه ابن عتبة ، ومن الخير أن أنقل لك صورة هذا الاندفاع لتتعرف مدى بلوغها من قلوب القوم : جاء في شرح نهج البلاغة (٣ : ٤٦٤) ما يأتي :

« كان بين الحسين ومعاوية كلام في أرض للحسين ، فقال له الحسين: اختر مني واحدة من ثلاث خصال : إما أن تشتري مني حقي ، وإما أن ترده عليّ ، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر وابن الزبير حكماً ، وإلا فالرابعة وهي الصَّيْلَم[1] . قال معاوية : وما هي ؟ قال : «أهتف بحلف الفضول ... » ثم قام فخرج وهو مغضب ، فمر بعبدالله بن الزبير فأخبره فقال عبد الله : والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدَنّ ، أو قاعد لأقومنّ ، أو قائم لأمشينّ ، أو ماش لأسعينّ ، ثم لتنفذنّ روحي مع روحك أو لَينصفنّك ... »

فبلغت معاوية فقال : « لا حاجة لنا بالصّيلَم .» ثم أرسل إليه :

(١) الداهية والأمر العظيم

« أن ابعث فانتقد مالك فقد ابتعنا منك . »

ومما لا شك فيه أن موقف غير ابن الزبير لو استفحل الأمر سيكون مثل موقفه، ومعاوية أدهى من أن يؤلب عليه من لم ينفض يده بعد من تألفهم، ومن لا تزال السيوف التي حاربوه بها على عواتقهم، لمَّا ينقضِ على إغمادها كبير زمن وما هي بحاجة لتشهر إلى كبير أمر ...

وقد عرّض ابن الزبير بحلف الفضول مرة أخرى يهدد معاوية، فقد تحدثا عن الحسين بن علي فقال ابن الزبير : « أما والله إني وإياه ليدٌ عليك بحلف الفضول » فقال معاوية : « من أنت ! لا أعرض لك وحلفَ الفضول .. والله ما كنت فيها إلا كالرهينة تثخن معنا وتردى هزيلاً »[1].

وانظر هذه الحسرة الخفية من يعسوب الأمويين عبد الملك بن مروان، على أن أمية لم تدخل الحلف، وتأمَّل كيف أراد بصورة غير مباشرة أحدَ سراة بني نوفل، على أن يتملقه فيشهد له بدخول أمية ونوفل فيها، وكيف لم يستطع هذا إلا أن يجهر له بالحق لقرب العهد بأصحاب الفضول، ولأن الذين يعرفونها ويعرفون عاقديها لم يموتوا بعد، قال ابن هشام :

(١) الأغاني ١٧٣/٩ (طبعة دار الكتب)

« كان محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف من أعلم قريش ، فدخل على عبد الملك بن مروان حين قتل ابن الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : « ياأبا سعيد : ألم نكن نحن وأنتم (يعني بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف) في حلف الفضول ؟ » قال محمد : « أنت أعلم !.. » قال عبد الملك : « لتخبرنّي يا أبا سعيد بالحق من ذلك . » فقال : « لا والله ، لقد خرجنا نحن وأنتم منه . » قال : « صدقت . »

* * *

كانت قريش اذاً ذات مشاكل تجارية فقامت لها هذه الحلف مقام المحاكم التجارية والقوة التنفيذية معاً ، فكان سلطانها مهيباً في النفوس ، وكانت خير وازع لمن تحدثه نفسه بظلم وإن تمتع بالسلطان ، وكانت أحسن ضامن لحقوق الضعفاء ممن عدموا المنعة والنصير .

الباب الثالث

أسواق العرب

ا — في الجاهلية

ب — في الإسلام

أسواق العرب

أنشأ العرب — ومركزهم التجاري ما قدمنا — أسواقاً لهم يتبايعون فيها .

ولعل هذه الكلمة - كما ذكر ابن سيده - اشتقت من سوْق الناس بضائعهم إليها ، ولا يستدعي وجودها في اللغات السامية أن تكون كلمة السوق العربية مأخوذة منها ، فلعل الواقع هو العكس . وليس من لزوم في هذا الاستقصاء المتكلف ما دامت هذه الأخوات من أم واحدة .

فمن هذه الأسواق ما كان يقتصر على ما يجاوره من القرى وما ينزل بساحِه من القبائل كسوق هجر وحَجْر اليمامة والشِّحْر وغيرها، ومنها ما كان عاماً تفد إليه الناس من أطراف الجزيرة كلها كعكاظ . ولكل مدينة بطبيعة الحال أسواق وإنما المقصود هنا الأسواق الموسمية منها ، التي لها أيام معينة تقوم فيها ويؤمها الناس . فإذا كان لإحدى هذه الأسواق موقع جغرافي ذو بال ، كأن تكون على ساحل البحر

مثل سوق عدن وصنعاء وعمان .. كان شأنها ممتازاً من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة كحَجْر أو كحضرموت ، لشيوع الاتجار فيها مع الجيران من هند وحبشة وفرس في الأولى ، واقتصار الثانية على القبائل المتاخمة لها .

فتتميز الأسواق التي على فُرَض البحر بوجود النزال الأجانب وتأثر أصحابها باختلاطهم بهؤلاء وما يستتبع ذلك من تغيير في العادات والرقي والصبغة ، فليس من المعقول أن تكون أحوال سوق صنعاء مثلاً مشابهة كل المشابهة الأحوال التي لسوق هجر ، أو التي لسوق الجند[١] القديمة باليمن ، أو سوق الجُرَيب وهي خاصة باليمن أيضاً ، يتسوقها في موعدها عشرة آلاف[٢] أو سوق وادي القرى او سوق (قُرحْ)[٣] الذي هلك فيه قوم عاد فيما يزعمون .

(١) الجند أول مدن اليمن التي على سمت نجدها ، وهي أعظم أقسام اليمن الادارية الثلاثة على عهد الراشدين . اختارها معاذ بن جبل حين ولي اليمن لرسول الله ، واختط فيها مسجده . ونقل ياقوت أن الناس فيما بعد صاروا يحجون الى هذا المسجد ، ولها ماض قديم جداً اليه أشار الشاعر بقوله :

الغدر أهلك عاداً في منازلها والبغي أفنى قرونا دارها الجند

ونص الهمداني في (كتابه صفة جزيرة العرب) على أنها من أسواق العرب القديمة . ـ انظر الإكليل ١٠/٥٧ وحواشيها .

(٢) المصدر السابق ص٨٦ (٣) انظر «قرح» في معجم البلدان ولسان العرب

كان يلي أمر الناس والنظر في شؤونهم التجارية في بعض هذه الأسواق أمراء يعشرون الناس كأكيدر في دومة الجندل والمنذر بن ساوى في سوق حَجْر ، وهنـــاك رؤساء يهبطون الأسواق لجمع الإتاوة وأشراف يتوافون بتلك السوق التي هي في الغالب تحت سيطرة أمـير من الأمراء ، ليستوفوا نصيبهم من الربح الذي جعله لهم ذلك الأمير ... بل إن بعض الأسواق كانت تقع إلى سلطـان دولة أجنبية كسوق المشقَّر الذي تحكم كسرى بأهله وتجارته ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الأسواق سوقاً فسوقاً .

أما عروض التجارة التي كانت تُحمل إلى الأسواق فأكثرها لا يتعدى التمر والزبيب والزيت والسمن والأدم والورس والغالية والبرود وبعض ضروب الحيوان كالمواشي والأنعام والخيل حتى القرود أحياناً .

وكانت هَجَر أشهر البلدان بتمرها ، وعُمَان يحمل إليها الورس ويعالج فيها . وكانت لطائم النعمان تسير إلى عـكاظ ، ولطائم كسرى إلى المشقر ، تأتي كل سنة فتباع ويشترى بأثمانهـا الأدم والتمر . وكان يقوم بحمايتها عرب الحيرة ما دامت في مناطق نفوذهم ، فإذا فصلت نحو عكاظ كان لا بد لها من حام منيع الجانب عزيز القبيلة ليجيزها على عامة

القبائل . وقد استفاد العرب من هذه الحماية فوائد مادية جلّى .

تلك الأسواق في الجزيرة وما اليها كانت تلبية لضرورات محلية اقتضتها معيشة العرب وطبيعة توزعهم في أوضيهم، وليست شيئاً مجلوباً حاكوا به غيرهم كما يتكلف بعض المتعرضين لهذا البحث[1] .

حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى العرب وكان لا عهد لهم بمثلها ، فتغالى أشرافهم بالثياب والبرود والسلاح والطيب . بل إن الرواة ليذكرون أن خمراً حملت من بصرى وغزةمن بلاد الشام إلى سوق مجنة قرب مكة ، ويظهر أن العرب اعتادت استجادة الخمر والافتتان بشربها واستطابتها من معادنها المشهورة كالبلدتين المذكورتين وأذرعات وأندرين وغيرها ، شاع ذلك في الرجال والنساء . وسيمر بك عند الكلام على عكاظ أن امرأة أرسلها زوجها إلى عكاظ بسمن ومعها راحلتان فشربت الخمر بثمن السمن فاستطابتها ثم باعت راحلتيها فشربت بثمنهما ثم رهنت ابن الرجل وشربت أيضاً[2] .

(١) قال أحدهم : « ومن غريب ما ورثه العرب عن الحورابيين ونقلوه إلى شبه جزيرتهم أيضاً إقامة الاسواق والمجتمعات للعلم والتجارة والمنافرة فكانت أشبه بالمجامع العلمية والمعارض العمرانية » ـ مجلة المجمع العلمي العربي ١/١٠٠ قلت : والظاهر العكس ، فإن الحورابيين عرب نزحوا الى العراق من شبه الجزيرة فحملوا معهم كثيراً من طرق معايشهم السابقة ومن نظمهم وأعرافهم .

(٢) وأبعد من هذا الخبر في الغرابة والطرافة ما رواه القالي في أماليه (١ : ١٥٠) =

ونحن نعلم أن كثيراً من الشعراء والفتيان كانوا يتمدحون بالإنفاق على الخمر والتردد على أصحاب الحوانيت والجلوس إليهم ، واذكر إن شئت أبيات عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المُعْلَم

= قال : اشترى أعرابي خمراً بجزة صوف فغضبت عليه امرأته فأنشأ يقول :

غضبت عليّ لأن شربت بصوفٍ ولئن غضبتِ لأشربنّ بخروفِ
ولئن غضبتِ لأشربنّ بنعجة دهساء مالئة الإناء سَحوف
ولئن غضبت لأشربنّ بناقة كوماء ثامية العظام صَفوف
ولئن غضبت لأشربنّ براحدي ! ولأجعلنّ الصبر منه حليفي

الدهساء : شقراء خفيفة الشقرة إلى سواد . والسحوف : التي لها طبقتان من الشحم . والكوماء : الناقة العظيمة السنام ، وثاوية العظام : سمينتها . والصفوف : التي تصف رجليها عند الحلب . والسابح : الفرس .

فيذكر ابن الانباري - في احدى رواياته - أن امرأته أشفقت على وحيدها وخففت من غلوائها وأباحته أن يتلف في الخمر ماشاء الا ولدها ، قالت له :

ماإن عتبت لأن شربت بصوفة أو أن تلذ بلقحة وخروف
فاشرب بكل نفيسة أو تيتها وملكتها من تالد وطريف
وارفع بطرفك عن بنيّ فإنه من دونه شغب وجدع أنوف

انظر شرح شواهد المغني ص ٢٠٧ (المطبعة البهية بمصر) وفي حاشية الدسوقي على المغني أن من الابيات الاولى :

ولقد شربت الخمر في حانوتها صفراء صافية بأرض الريف
ولقد شهدت الخيل تقرع بالقنا فأجبت صوت الصارخ الملهوف
٣٣٦/١

بزجاجة صفراء ذات أسـرة ... قرنت بأزهر في الشمال مفـدّم
فإذا شربت فإنـني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم ...[١]

أو قول الأعشى : « وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني . الخ »

والظاهر أن حب الخمرة تغلغل في نفوس عـامة العرب وغمرت بحوانيتها أسواقهم وعـكفوا عليها حتى ما يستطيعون لها تركاً . وإن الأعشى الشاعر هذا ، أراد أن يقصد النبي ﷺ بالمدينة فيسلم ، وأشفق مشركو مكة من هذا السلاح أن ينضم للإسلام فصـدوه عن وجهه ذاك ، وكان أقوى عامل في رده ما أخبروه من أن الاسلام يحرم الخمرة ،ولم يكن بالشاعر قدرة على تركها فصرفه ذلك عن قصده وقفل راجعاً ،فأدركته المنية ولم يكتب له الايمان[٢] . وخير ما نستدل به على استفاضتها في أسواقهم وإدمانهم لها أن الأخباريين يعدون في الجاهلية

---

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهي حر نصف النهار . والمشوف : الإناء المجلو والمعلم :ماعليه علامة . والازهر : الابيض ، ويعني به الابريق. المفدّم : ماعليه الفدام وهي المصفاة .

(٢) فكان الظرفاء من الفتيان إذا أرادوا الشراب خرجوا الى قبره وأدار الساقي عليهم الكأس وجعل قبر الاعشى أحد الشراب ،فكان إذا بلغه أراق الكأس عليه يصبون الخمر على قبره إذ قال لما اخبره أبو سفيان بأن محمداً يحرم عليه الخمر : « أرجع الى اليمامة فأشبع من الخمر » ـ انظر الاغاني ٩/١٢٧

كلها أشخاصاً لا يبلغون العشرين حرّموا على أنفسهم الخمر(١) فتميزوا

(١) روى القالي في أماليه ، (١ : ٢٠٤) :
« حرّم رجال الخمر في الجاهلية تكرماً وصيانة لأنفسهم ، منهم عامر بن الظرب بن ... بن قيس بن عيلان وقال في ذلك :

سآلة للفتى ماليس في يده ذهابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرّق ترب القبر أوصالي
مورثة القوم أضغاناً بلا إحن مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي

وحرم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك :

لعمرك إن الخمر مادمت شارباً لسالبة مالي ومذهبة عقلي
وتاركتي من الضعاف قوامُ ومورثتي حرب الصديق بلا تبل

وحرم صفوان بن أمية الكناني الخمر في الجاهلية وقال في ذلك :

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما

وحرم عفيف معد يكرب عم الاشعث بن قيس الخمر وقال :

وقائلة هلمّ إلى التصابي فقلت عففت عما تعلمينا
وودعت القداح وقد أراني بها في الدهر مشغوفاً رهينا
وحرمت الخمور عليّ حتى أكون بقعر ملحود دفينا

وقال أيضاً :

فلا والله لا ألفى وشَرْباً أنازعهم شراباً ما حييتُ
أبى لي ذاك آباء كرام وأخوال بعزهمُ ربيت

وحرم سويد بن عدي الطائي ثم المعني الخمر وادرك الاسلام فقال :

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي منادي الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى
وحرمت الخمور وقد أراني بها سدكاً وإن كانت حراما » اه .

بهذا الوصف من سائر العرب ، ولم يكن لتميزهم هذا من قيمة لولا فشوها في قبائل العرب فشواً قوياً جعلها في حكم الضرورة التي لا مندوحة عنها .

يغشى هذه الأسواق عامة العرب لما تقدم من أن شغل أكثرهم التجارة ومن لم يتاجر قصدها للكسب والشراء حتى صار غشيان السوق والمشي فيها ، هما والاتجار ألفاظ مترادفة ، ففي البخاري :

« استأذن أبو موسى على عمر فلم يؤذن له فرجع ، ففرغ عمر فقال : « ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له . » قيل : « قد

= التبل : الثأر . وقوله أقسمت بالله أسقيها : يريد لاأسقيها . وكذلك فلا والله أشربها : أي لاأشربها . والملحود : القبر .

والسدك : المولع بالشيء .

ويزيد السيوطي على هؤلاء : عبد المطلب بن هاشم وعبد الله بن جدعان وشيبة بن ربيعة وورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة وعفيف بن معد يكرب ويقال هو أول من حرمها وقيل : (أولهم عامر بن الظرب) ، وعباس بن مرداس وأبو بكر وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف - شرح شواهد مغني اللبيب ص ٤٤

هذا وقد جاء في الاغاني [٨ : ٣٣٢ دار الكتب] ما يأتي :

« ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس » .

وهذا نص في أن كبراء قريش في الجاهلية كانوا يشربونها جميعاً .

رجع . » فدعاه فقال (أبو موسى) : « كنا نؤمر بذلك . » فقال عمر : « تأتيني على ذلك بالبينة . » فانطلق (أبو موسى) إلى مجلس الأنصار فسألهم فشهد أبو سعيد الخدري ، فقال عمر : « أخفي هذا عليّ من أمر رسول الله ﷺ ؟ ألهاني الصفق في الأسواق . » يعني الخروج إلى التجارة[1]

وكان في جملة ما احتج به المشركون على رسول الله ﷺ قولهم : « ... فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك : سل ربك ... فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالاسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمس... الخ[2] » وحكى الله عنهم قولهم هذا فقال :

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ »[3] وقال في المرسلين: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ..»[4] فكنى بالمشي في الأسواق عن التجارة ، ووُصف ﷺ بأنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق[5] . ولأن العرب لا تحتشد لشيء

(١) صحيح البخاري ـ طبع ليدن : كتاب البيوع : ٨ (٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٦٩
(٣) سورة الفرقان ٢٥/٧ (٤) سورة الفرقان ٢٥/٢٠
(٥) البخاري كتاب البيوع (٢٢) . والسخاب : كثير اللغط والجلبة .

احتشادها في هذه الاسواق ، كان رسول الله ﷺ يقصدها أول دعوته ويعرض نفسه على القبائل في هذه المواسم .

كان أعظم ما يحدو العرب في الجاهلية على قصد تلك الاسواق ما قدمت لك من قيام كثير منها في الأشهر الحرم . ولشيوع الامن حرمةً للشهر، ولأن مواسم بعض الاسواق كعكاظ ومجنة وذي المجاز تقع في أيام حجهم وهي أعمر أسواق العرب بمختلف القبائل يأتونها من كل أوب ومعهم خيرات بلادهم وتلك ميزة لا تتمتع بها بلدة غير مكة ولا قوم غير قريش ، وقد امتنّ الله عليهم بذلك فقال :

« أوَ لَمْ نُمكّنْ لَهُمْ حرَماً آمِناً يُجْبَى إلَيهِ ثمرَاتُ كُلّ شَيْء . »[1]

وقال : « أوَ لَمْ يرَوْا أنّا جعَلْنَا حرَماً آمِناً ويُتَخطّفُ النّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ . »[2]

وافقت هذه المواسم زمن الحج[3] واختلط أمرها بشعائره (فمنى

---

(١) سورة القصص ٥٧/٢٨ (٢) سورة العنكبوت ٦٧/٢٩

(٣) ما زال الحج الموسم الاكبر للتجارة في الاقطار العربية الكبرى ؟ في أيامه تنشط الحركة التجارية ويكثر البيع والشراء وتستنفد المخازن العربية بضائعها يستهلكها الحجاج الذين يقصدونها من القاصية أجناساً شتى ، فصينيون وأتراك وبخاريون وفرس وهنود وأفغان وقفقاسيون ومغاربة و... وتعظم=

وعرفة وعكاظ ومجنة وذو المجاز مواعيدها مواسم الحج) فإذا انفضوا من ذي المجاز تروّوا من الماء ونادى بعضهم بعضاً : « ترووا من الماء » لأنه لا ماء بعرفة يومئذ ولا بالمزدلفة ، ولهذا سمي اليوم الثامن من ذي

= منهم الأرباح وتفيض على البلاد عامة سحائب خير وسعة من العام الى العام . تستوي في ذلك جميع البلدان العربية ، فمصر كالشام والعراق كالحجاز لوقوع الاولى على طريق الحاج المغربي ولأن الشام والعراق طريق الحاج المشرقي . ولا تسأل عن البحبوحة التي يرتع فيها أهل الحجاز في موسم الحج إذ تتقاطر عليه كل تلك الامم ويربح أهله في هذه الايام القلائل معاش سنتهم كلها .

بقي الامر على هذا حتى عهد قريب ، إذ انقطع بحلول المحنة الكبرى ببلاد العرب : فوزعت بين الفرنجة ، وانحبز الحجاج عن ورود هذه الاقطار لأن الحاج المغربي أو المشرقي يمر على دول كثيرة قبل أن يصل الى الحجاز . فإن كان معه فضل من مال استنزفته تلك الدول فلا يصل الى الحجاز إلا ببلغة لا تكاد تكفيه وحده ؛ فيضطر المسكين الى أن يسلم أمره الى الشركات الاجنبية التي نصبتها دولها تمتص دم الحجاج وتسلبهم أموالهم وتذيقهم الموت ألواناً . فحرمت بذلك بلادنا من موارد وأرزاق عدا ما خسرت من المنافع الاجتماعية . فمات العراق كما مات الحجاز وماتت الشام منذ نضب هذا المعين . ثم عكف الاجنبي على ما بقي في البلاد من أثارة خير يتمششها ويتعرقها حتى جردت الارض وصوّح النبت فما ثمة من قائم ولا حصيد :

أ كلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

كتبنا هذا في الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦ م أما الآن وقد انقضت خمس وعشرون سنة وأجلى الله العدو عن بلاد الشام ومصر والأمل كبير في تحرر بقية الاقطار فعسى أن يعود للبلاد العربية ازدهارها ورخاؤها ووحدتها ، فيضرب في أقطارها حجاج جميع الامم والشعوب آمنين مطمئنين فيعود لها رونقها ونشاطها الاقتصادي .

الحجة يوم التروية . وكانوا في الجاهلية لا يتبايعون في منى ولا في عرفة ، يخصون هذين المكانين بالحج الخالص ، لا يخلطونه ببيع ولا شراء ، فلما جاء الاسلام فكأنهم تأثموا أن يتجروا في المواسم فأنزل الله تعالى قوله :

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ »[1]

وزاد ابن عباس في قراءته « في مَواسِمِ الْحَجِّ » والفضل هو الرزق والكسب والاتجار ، وكذلك كان يتلوها أُبي تلاوةً[2] .

* * *

والغريب أن هذه الاسواق ، كما يقصدها طالب الربح والشراء،

---

(١) سورة البقرة ٢ الآية ١٩٨

(٢) انظر البخاري كتاب البيوع ٥ وكتاب الحج . ومعجم الطبراني الكبير المجلد الثالث وأخبار مكة للأزرقي ص ١٣٠ وتفسير الخازن . نقل في هذا التفسير عن أبي أمامة التيمي قال :

« كنت أكري في هذا الوجه ، وكان الناس يقولون لي : « إنه ليس لك حج » فلقيت ابن عمر فقلت له : « إني رجل أكري في هذا الوجه وأن أناسا يقولون لي ليس لك حج » فقال ابن عمر : « أليس تحرم وتلبي وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمي الجمار ..؟ »

فقلت : « بلى » قال : « فان لك حجاً : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فسكت رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية : « لَيسَ عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم . الآية » فأرسل اليه رسول الله ﷺ وقرأها عليه وقال . « لك حج . » اهـ .

يقصدها طالب الامن والفداء ، فكم آوى اليها من خائف يطلب من يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن ، وكم من رجل حمل معه فداء أسيره ففكه من آسره . وكم من سادات تحملوا ديات ودماء فكانوا سبب الصلح بين قبيلين كبيرين ، بل إنا لنسمع فيها منادين ينادون ذوي الحاجات لتقضي حاجاتهم ، كما نرى فيها أمراء ورسل ملوك يقصدونها لأخذ مالهم على بعض القبائل من إتاوات وغرامات كل سنة فموعدهم بها أيام المواسم.

وإذ أن أكثر هذه الاسواق حولية تقوم أياماً معلومات في كل عام ، كان من المعقول أن تكون ميداناً لغير البيع والشراء ، كان فيها تناشد أشعار ، وكان فيها تفاخر وتكاثر ، وتنافر ومقارعة ومعاظمة.. فيفوز في هذا أقوام ويخسر آخرون ، وتحتفل العرب لها الاحتفال اللائق بها . وكان لهم حكام معلومون يفضون المشاكل بين القبائل[1] ، ولهم محكمون يحتكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم ، كما لهم في هذه الاسواق خطباء .

---

(١) قال الفيروزبادي : « حكام العرب في الجاهلية : أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن وضمرة بن ضمرة لتميم وعامر بن الظرب ، وغيلان بن سلمة لقيس ، وعبد المطلب وأبو طالب والعاصي ابن وائل والعلاء بن حارثة لقريش ، وربيعة بن حذار لأسد ، ويعمر الشداخ وصفوان بن امية وسلمى بن نوفل لكنانة . اه انظر في القاموس وشرحه مادة (حكم) .

يغشى الناس الاسواق إذاً لمآرب شتى ، وغايات متباينة ؛ فمن طالبٍ قاتل أبيه يريد ليعرفه حتى يتربص به السوء فيما بعد ، ومن ملتمسٍ حماية شريف من عدو ألد ، ومن باغٍ زوجاً ، أو مستطيل بعز ومنعة ، أو جالس ليأتيه أتباعه بإتاوة ، ومن عارض سَلَبَ قتيل ليبيعه فيظفر به أهل القتيل ، ومن فرسان يتقنعون ، بعضهم حذراً من غدر أهل الثارات ، وآخرون يرِدون مقنعين خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم »[1] ، ومن بغايا ضرب عليهن القباب ، وشبان يتعرضون للمتبرقعات من النساء .... إلى آخر ماهنالك مما سيمر بك مفصلاً وخاصة عند الكلام على عكاظ .

ولا يقل شأناً عن النشاط التجاري في أسواقنا تلك ، أثر هذا الاختلاط في اللغة والدين والعادات ، فإن قيام قريش عليها الاعوام الطويلة قبل البعثة ، مكنها من أن تتبوأ في اللغة المكان الاعلى ، لأن لغات القبائل عامة يمنيها وعمانيها وشاميها وعراقيها ونجديها وتهاميها . تطرق مسامعها على الدوام فتختار منها ما يحسن ، وتنفي ما يقبح . وقامت على هذا الاصطفاء زمناً كافياً حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة ،

---

(١) عد ابو الفرج الاصفهاني من هؤلاء : وضاح اليمن والمقنع الكندي وأبازبيد الطائي - الاغاني ٦/٣١ طبعة الساسي .

وتهيأت لينزل بها القرآن الكريم عَلى أفصح وجه وأبلغه وأتمه كمالاً وسلاسة وجمالاً .

وكان الشعراء الذين ينظمون لينشدوا بعكاظ ، يتوخون اللغة المجمع على فصاحتها ، والتي صار لها من النفوذ والشيوع ماللغات العامة اليوم ، فكأن لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة كلها حتى اليمن والحيرة وغسان[1] .

أما العادات فما أمرها بالذي يحتاج إلى شرح وتبيين ، فإن كل اختلاط بين فريقين لا بد أن ينتهي بأثر في كل منهما ، فاليمني يقبس شيئاً من أخلاق الحجازي ، والنجدي يحمل ألواناً من عادات العماني أو الحيري ... وهلمّ جراً .

وكذلك قل في الدين ، بل إن أثر هذا الاختلاط في الدين أبلغ ، لقيام الجميع بمناسك واحدة يؤمهم فيها قريش أهل الحرم[2] .

(١) لكن هناك اسواقا على الحدود في شمال الجزيرة كانت مسارب لكثير من الدخيل والمعرب ، ثم لفساد اللغة حول عهد الفتوح كسوق الابلة وسوق الانبار وسوق الحيرة .

(٢) ليست هذه الظاهرة (الجمع بين الاهداف الدينية والتجارية) قاصرة على أهل الجزيرة ولا على زمن الجاهلية ، بل تكاد تكون سمة عامة في الحضر والبدو حتى هذه الايام : فازدهار القدس في أعياد الميلاد بالزوار والتجار ، ومواسم =

فأعظم آثار الاسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى بين القبائل العربية من عامة الاقطار . وأريد أن أنبه بصورة خاصة إلى التوحيد اللغوي ، الذي كان للشعراء والحكام فيه على مدى سنين متطاولة أبلغ الأثر ، في انتقاء الالفاظ والأساليب وشيوعها بوساطة الرواة في القبائل ، وإذا شئت أن أختصر ذلك كله بكلمة واحدة قلت: إن نهضة الشعر مدينة للأسواق ، بل مدينة لعكاظ خاصة . عرف لها هذا الامر منذ الجاهلية حتى اليوم .

فلما كان الاسلام ضعف الشعر ، وانصرف العرب إلى الفتوح ، واشتغلوا بالقرآن والسنة وفهم أحكام الشريعة ، فضؤل أمر عكاظ وخمل ذكرها ، وانقضى عصر الفتوح وليس لعكاظ عُشر شأنها

= العبادة والتجارة معاً في الحجاز أيام الحج أشهر من أن يخفى . بل قرأت عن أسواق (غواتيمالا) الآن بما يشبه ما كان يجري في أسواق العرب في الجاهلية « فقد جعل يوم الاحد فيها هو يوم السوق ويؤمها الهنود في ذلك اليوم من الجهات المجاورة حتى مسافة خمسين ميلاً من أجل التجارة والعبادة في وقت واحد » ويقول المشاهد « إن يوماً واحداً تقضيه في هذا المكان حيث تلتقي التجارة والعبادة في صعيد واحد سيكسبك إحساساً وفهماً للتاريخ البشري أكثر مما تجنيه من مطالعة مئة مجلد في علم حياة الانسان » ـ من مقال (تقرير عن الفردوس) فيه وصف مسهب لاسواق غواتيمالا نشرته مجلة المختار (الترجمة العربية ، عدد ديسمبر ١٩٤٤)

الاول ... حتى إذا أنشىء المربد استمر أمر عكاظ على التناقص، وأخذ مربد البصرة يحل مكانها ويتمم رسالتها في الادب والشعر؛ بل زاد عليها بما استجد الاسلام وحالة العرب الاجتماعية المتحضرة، من صنوف في الادب وألوان في المعاش والاجتماع.

وأصبح المربد مرتاداً لعلوم الأدب والنحو واللغة والأخبار والنوادر و ... يأخذون عن أعرابه الذين لم تخالطهم لوثة العجمة، ما يجعلون منه مادة علمهم وينبوع ثقافتهم.

ولما رسخت قدم المسلمين في المدينة، وتمت لهم المدن الكبرى والعواصم العظيمة المتناهية في الحضارة؛ أفل نجم هذه الاسواق إذ لم يعد لها من داع. وكانت لم تزل قائمة في الاسلام وعاشت ما يزيد على مئتي سنة. فعكاظ التي أنشئت قبل الهجرة بأكثر من سبعين عاماً. أهملت سنة ١٢٩ للهجرة، وآخر ما انقرض من الاسواق سوق حباشة تركت عام ١٩٧ للهجرة.

وقد آن لنا بعد هذه المقدمة أن نعرض لك معلومات عن أشهر الاسواق في الجاهلية والاسلام، متوسعين ما أمكننا التوسع، في الكلام على عكاظ في الجاهلية وعلى المربد في الاسلام، إذ هما أعظم سوقين قامتا للعرب. في الاولى ترى أحوال الجاهلية من عامة نواحيها

في بيعها وشرائها ودينها واجتماعها وسياستها وحربها وسلمها ، وفخرها وأدبها ولغتها وشعرها وعاداتها . وقد حرصت على أن أحافظ على عبارة كبار المؤلفين الذين استقيت هذه المعلومات من كتبهم كالأصفهاني والطبري وابن عبد ربه وابن سعد وابن هشام ... إلا ما رأيت أن الحاجة تضطرني فيه إلى شيء من التعديل يسير ، وفي الثانية ترى كذلك أحوال العرب في الاسلام بالتفصيل المتقدم . واعلم أن حوادث المربد التي سأعرضها عليك يختلف زمن وقوعها بين سنة ست وثلاثين للهجرة وأواخر القرن الثاني الهجري .

لسنا نجد اتفاقاً بين قدامى المؤلفين في عدد هذه الاسواق ولا في تحديد أزمنتها ، فبينا نرى القلقشندي (في صبح الأعشى) يعدها ثمانية (١ / ٤١٠) نرى اليعقوبي في تاريخه (١/٣١٣ ، ٣١٤) والبغدادي في خزانته (٤ / ٣٦٠ السلفية) يعدانها عشراً ، ثم يختلفان عليها فيذكر كل منهما بعضاً ويترك بعضاً. وجعلها التوحيدي في (الإمتاع والمؤانسة ٨٥/١) إحدى عشرة ، بينا نراها عند المرزوقي تبلغ سبع عشرة سوقاً (الازمنة والامكنة). ثم يأتي الالوسي فيذكر منها في بلوغ الأرب أربع عشرة .

وأقدم المؤلفين وهو محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٦٨ﻫ صاحب

كتاب (المحبّر) عدّ منها اثنتي عشرة[1] .

أما الهمداني فنحن معه في حيرة لأنه يقول في كتابه صفة جزيرة العرب (ص ١٧٩) : « أسواق العرب القديمة وقد ذكرناها : عدن ، مكة ، الجَند ، نجران ، ذو المجاز ، عكاظ ، بدر ، مجنة ، مني ، حجر اليمامة،هجر البحرين ، الروض ، روضةدعمي ، روضةالاجداد ...الخ ثم يسرد أعلاماً تبلغ الخمسين .

فطالعت الكتاب المطبوع كله فـــلم أجد للأسواق التي قال إنه ذكرها ـ ذكراً أبداً .

ولما رجعت إلى ياقوت في كثير من هذه الاعلام لم أجد لهاذكراً البتة . فأيقنت في نفسي أن في هذه الطبعة تشويشاً فإن عدّه الاسواق ينتهي في السطر الثاني عند قوله (هجر البحرين) ثم يستأنف كلاماً

---

(١) نشر هذا الكتاب بعد صدور طبعتنا الاولى بسنوات وكان الفضل في اطلاعي على فصل أسواق العرب من كتابه المحبر حين صدور الطبعة الاولى من كتابنا هذا ، ولصديقي المستشرق المرحوم (كرنكو) إذ ارسل الي الفصل مصوراً سنة ١٩٣٧ م ففقد مني ثم ارسله اليّ بخطه بعد أن نشره بمطبعة حيدر آباد سنة سنة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م . ولم يبعد صديقي حين كتب اليّ يقول : « إن أصل هذه الأخبار (يعني أخبار أسواق العرب) كلها باب في كتاب المحبر لمحمد بن حبيب في النسخة الوحيدة المحفوظة في المتحفة البريطانية » و « لا شك بأن المرزوقي مرق عباراته منه فزاد أشياء غير مهمة . »

جديداً عن الرياض بادئاً بروضة دعمي ثم ينتقل خلاله إلى المياه ، وجميع هذه في الكتاب المطبوع ذكرت تحت عنوان (أسواق العرب)، وكان على الناشر (المستشرق الاوروبي) أن يتنبه إلى تغير البحث فيفرد كل بحث تحت عنوان خاص ولا يحشرها جميعاً في جريدة الاسواق.

وسنذكر لك في هذا الكتاب الاسواق المهمة التي ترحل إليها العرب حاذفين منها مالا خطر له وقد بلغنا بها العشرين سوقاً .

نستطيع أن نقسم هذه الاسواق أقساماً ثلاثة :

١ ـ أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تدار بنظم خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية كما نرى في الحيرة وهجر البحرين وعمان وغيرها من المواطن التي ترين عليها السيطرة الفارسية ، وكما نرى في بصرى وأذرعات وغزة وأيلة وغيرها مما يدار بالادارة الرومانية . والذي ينظر في هذه الاسواق عمال عرب يعينهم ولاة الفرس وولاة الرومان وهؤلاء العمال الذين يتولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها .

٢ ـ أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع الزمن تمثلهم أصـــدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق ... ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها . وهي مرآة العرب في الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف ما كان عليه العرب تقريباً في

معاملتهم وعلاقتهم بعضهم ببعض : وهي في أماكن لا أثر للنفوذ الاجنبي عليها ،وتمثل لهذا القسم بعكاظ . ولا عاشر في هذا القسم فهو منطقة حرة ، والعرب يتبايعون فيه ببيوع خاصة بهم .

٣ ـ أسواق ذات صبغة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي وهي التي تكون على البحر كعدن وصحار ودبي .. وفي هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضؤل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري .

ومن الواجب أن ننبه هنا إلى أن أسواقاً كثيرة كانت ولم يذكرها المؤلفون لأنهم اقتصروا على الاسواق الموسمية التي تكون من العام إلى قابل والتي تقصد من بعيد ، إذ من البديهي أن كل بلدة لها سوق ولها متاع او محصول تختص به ، ومن القريب جداً أن يكون لكل قبيلة أو قبائل متجاورة سوق محلية[1] تقوم في وقت معين ، فكثيراً ما نجد حول كل ماء سوقاً صغيرة يقيمها الضاربون حوله كما نجد مثل

(١) مثل (بدر) حيث وقعت غزوة بدر الكبرى ، فبدر هذه موسم من مواسم العرب المحلية تقوم السوق قرب ماء هناك . ونحن نجد في كتب السيرة أن أبا سفيان واعد المسلمين عقب غزوة أحد أن يوافيهم ببدر من العام المقبل، فلما كان الموعد حضر المسلمون ونكل المشركون وبقي الرسول ينتظرهم ثمانية أيام ، فأقام المسلمون موسماً تجارياً ببدر وربحوا ثم عادوا الى المدينة فرحين بانتصارهم إذ خافهم عدوهم فلم يحضر ، وبربح تجارتهم فأصبحوا غانمين مهيبين .

ذلك في المحطات الصغرى التي تكون بين البلد والبلد وكما نجد أيضاً في كل مكان يسميه العرب روضة .

وإنما عُني العلماء بالاسواق الكبرى العامة ولم يأبهوا لتلك الاسواق الضئيلة بل إنهم أهملوا أسواقاً كبرى تكون في المدن لأنها لا يرحل إليها إلا القليل منهم من صاحب حاجة أو غرض خاص . فنجدهم أغفلوا مثلاً ذكر (دارين) وهي فرضة بالبحرين بها سوق يحمل المسك من الهند إليها . واشتهرت هذه شهرة فائقة بتجارة العطر حتى صار معنى الداري (نسبة إلى دارين) هو العطار نفسه ، وحتى جاء في الحديث : « مثل الجليس الصالح مثل الداري ، إن لم يحذك (يُعْطِكَ) من عطره علقك من ريحه . » قالوا : « الدراي العطار . » وقال الشاعر :

فلما اجتمعنا في العلاليّ بيننــــا ذكي أتى من أهل دارين تاجره

وهناك أمتعة اشتهرت بتجويدها قرى مخصوصة كرُدَيْنه وهي قرية على شط البحر في المشرق تنسب إليها الرماح فيقال الردينيات للرماح المصنوعة هناك كما يقال للرماح المصنوعة في الخط بالبحرين : (الخطية) .

فلا شك أن مثل هذه الاماكن المشهورة يقصدها تجار هــــذا الصنف أو الراغبون فيه ، وتقوم له شبه أسواق دائمة إلا أنها غير عامة

وهي قاصرة على ضرب واحد فقط ، فلهذا لم يعبأ بها المؤلفون .

ثم نجدهم أغفلوا مواضع مهمة تقوم فيها أسواق ربما لاتقل شأناً عن التي أفردوها بالذكر ، كالطائف و كأسواق العراق وكالسوق التي يقيمها النبط في المدينة أحياناً . فإنا نعلم أن الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي « بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة » ولأهلها زراعة وتجارة وغنى ، وربما قاربوا قريشاً في شأنهـــا التجاري . أما العراق فالظاهر أن للعرب فيها أسواقاً[1] يرحلون اليها كما يرحلون الى التي في الشام وخصوصاً الحيرة فإن شهرتها في تاريخ العرب وأدبهم تنم عن مكانتها التجارية . ولقريش رحلات إلى سوق الحيرة وفيهـا تعلموا الكتابة ومنها انتشرت في العرب . وصاحبها النعمان يجهز سنوياً لطائمـــه إلى عكاظ والى اليمن . حتى إنا لنجد في بعض النصوص مايدل على أن ضرائب منظمة تستوفى في أسواق العراق مما يباع قال الشاعر :

(١) نرى في المصادر القديمة ذكراً لسوق بغداد أيام الفتح الاسلامي ، ولعل المدينة أنشئت حيث تقام هذه السوق أو بالقرب منهـــا ثم حملت اسم السوق القديمة (بغداد) . فقد ذكر الطبري في حوادث سنة (٧٦) أن شبيباً الخارجي أقبل « حتى قطع دجلة عند الكرخ وبعث الى سوق بغداد فآمنهم ، وذلك اليوم يوم سوقهم ، وكان بلغه أنهم يخافونه فأحب ان يؤمنهم ، وكان أصحابه يريدون أن يشتروا من السوق دواب وثياباً وأشياء ليس لهم منها بد . » ثم أخذ بهم نحو الكوفة ... الخ - تاريخ الطبري ٧/٢٣٠ ، ٢٣١ الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية .

أفي كل أسواق العراق إتاوة   وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

قال صاحب المخصص[1] : « المكس انتقاص الثمن في البياعة ومنه أخذت المماكسة لأنه يستنقصه . » وقيل : « المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في اسواق الجاهلية . ويقال للعشار صاحب المكس . » اه

أهملوا كل هذا كما أهملوا أسواقاً ثانوية تقام في نجران وبدر ومنى وأمثالها كثير لما قدمنا من فقدان الصبغة العامة فيها .

وهذه جرائد بأسماء الاسواق وترتيبها عند كل من المؤلفين الثانية الذين أشرت اليهم آنفاً[2] وكلها تبدأ بسوق دومة الجندل في ربيع الاول، مع ذكر مواقيتها إن كان لها مواقيت وذكر عاشرها الذي يجبي الضرائب فيها إن كان لها عاشر .

(١) ١٢ : ١٥٣

(٢) لابن الكلبي : كتاب أسواق العرب ـ انظر ص ٧٧ من كتابه « الاصنام » طبع دار الكتب المصرية .

١ ـ المحبر : لمحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٦٨ هـ

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	١ ـ ١٥ ربيع الاول [وتمتد الى آخره]	أكيدر أو قنافة الكلبي
٢	المشقر	جمادى الآخرة كله	بنو عبدالله بن زيد من تميم رهط المنذر بن ساوى
٣	صُحار	١ـ٥ رجب	الجلندي بن المستكبر
٤	دبي	آخر رج	» » »
٥	الشحر	١٥ شعبان	
٦	عدن	١ ـ ١٠ رمض	الأبناء من الفرس
٧	صنعاء	١٥ ـ ٣٠ رمضان	» » »
٨	رابية حضرموت	١٥ ـ ٣٠ ذي القعدة	
٩	عكاظ	١٥ ـ ٣٠ ذي القعدة	
١٠	ذو المجاز	١ ـ ٨ ذي الحجة	
١١	نطاة خيبر	١٠ ـ ٢٠ المحرم	
١٢	حجر اليمامة	١٠ ـ ٢٠ المحرم	

٢ - اليعقوبي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ

السوق	الزمن	الوالي او العاشر
١ دومة الجندل	ربيع الاول	غسان أو كلب
٢ المشقر	جمادى الاولى	تَمِيم : رهط المنذربن ساوى
٣ صحار	١ رجب	
٤ دبى		الجلَنْدى
٥ الشحر		مهرة
٦ عدن	١ رمضان	
٧ صنعاء	١٥ رمضان	الأبناء
٨ حضرموت		كندة
٩ عكاظ		
١٠ ذو المجاز		

٣ - صفة جزيرة العرب : للهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ هـ

السوق	الزمن	العاشر
١ عدن		
٢ مكة		
٣ الجَنَد		
٤ نجران		
٥ ذو المجاز		
٦ عكاظ		
٧ بدر		
٨ مجنة		
٩ مِنى		
١٠ حجر اليمامة		
١١ هجر البحرين		

٤ ـ الإمتاع والمؤانسة (١/٨٥) :

لأبي حيان التوحيدي المتوفى نحو سنة ٤٠٠هـ

السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١ ـ دومة الجندل	ربيع الأول كله	أكيدر دومة [أو أحد رؤساء كلب حين يغلبون على السوق]
٢ ـ هجر (المشقر)	ربيع الآخر	المنذر بن ساوى
٣ ـ دَبَى (من قرى عمان)		
٤ ـ صُحار («)		
٥ ـ أدَم (قرب عدن)		
والشِحر (بين عدن وعمان)		
٦ ـ عدن أبْيَن		
٧ ـ رابية حضرموت		
٨ ـ صنعاء		
٩ ـ عكاظ		
١٠ ـ ذو المجاز		

(١) في الأصل : إدم ، وفسرها الناشران الفاضلان نقلاً عن صفة جزيرة العرب بأنها فلاة قرب عدن ، ولعل ذلك تصحف .

٥ — الأزمنة والأمكنة : للمرزوقي المتوفى سنة ٤٢١ هـ

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	ربيع الأول	أكيدر (وأحياناً) قنافة الكلابي
٢	المشقر	١ـ٣٠ جمادى الآخرة	بنو عبدالله بن زيد : رهط المنذر بن ساوى
٣	صحار	١ رجب	الجلَنْدى
٤	دبى	٣٠ رجب	»
٥	الشحر	١٥ شعبان	
٦	عدن	١ ـ ١٠ رمضان	الابناء
٧	صنعاء	١٥ ـ ٣٠ »	
٨	حضرموت	١٥ ذي القعدة	
٩	عكاظ	١٥ »	
١٠	ذو المجاز	١ ـ ٨ ذي الحجة	
١١	مجَنّة		
١٢	نطاة خيبر		
١٣	حجر		
١٤	بصرى	بعد الحج	
١٥	دير أيوب	بعد سوق بصرى بـ ٣٠ ـ ٤٠ ليلة	
١٦	أذرعات		
١٧	الأسقى		

٦ ــ صبح الأعشى : للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ

	السوق	الزمن	الوالي أو العاشر
١	دومة الجندل	.بيع الأول	أكَيْدر أو رؤساء كلب
٢	هجر	ربيع الآخر	المنذر بن ساوى
٣	عمان		
٤	أدم وقرى الشحر		
٥	عدن		
٦	حضرموت		
٧	صنعاء		
٨	عكاظ		

٧ — خزانة الأدب : للبغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ
[نقلاً عن صاحب قبائل العرب]

الوالي أو العاشر	الزمن		السوق
	١ ـ ١٥ ربيع الأول	١	دومة الجندل
	١ جمادى الآخرة	٢	المشقر
	١٠ ـ ١٥ رجب	٣	صحار
	١٥ شعبان	٤	الشحر
	١٥ رمضان	٥	صنعاء
	١٥ من ذي القعدة	٦	حضرموت
	١٥ ـ ٣٠ «	٧	عكاظ
	١ ـ ٨ من ذي الحجة	٨	ذو المجاز
		٩	نطاة خيبر
	١٠ ـ ٣٠ المحرم	١٠	حَجْر

٨ ــ بلوغ الارب : للالوسي المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ

الوالي أو العاشر	الزمن	السوق	
	ربيع الأول	دومة الجندل	١
	ربيع الثاني	هجر	٢
	جمادى الاولى	عمان	٣
	جمادى الثانية	المشقر	٤
	رجب	حُباشة	٥
	١٠ ـ ١٥ رجب	صحار	٦
	شعبان	الشحر	٧
	١ ـ ١٥ رمضان	عدن	٨
	١٥ ـ ٣٠ »	صنعاء	٩
	١ ـ ٢٠ من ذي القعدة	عكاظ	١٠
	ذوالقعدة	حضرموت	١١
	٢٠ ـ ٣٠ من ذي القعدة	مجنة	١٢
	الأول من ذي الحجة	ذو المجاز	١٣

فهذه ست وعشرون سوقاً ، فإذا حذفنا منها خمساً انفرد بها الهمداني وهي : بدر والجَنَد ومكة ومنى ونجران ، واثنتين انفرد بإحداهما المرزوقي وهي الأسقى والثانية شاركه فيها التوحيدي وهي سوق أدم ، وأضفنا لها سوقاً مهمة أغفلها كلهم وهي سوق الحيرة وأضفنا كذلك السوق التي أنشئت في الاسلام وهي المربد ، بقي لنا إحدى وعشرون سوقاً سنتعرض لها جميعاً بما تقتضيه مكانتها . أما الاسواق الضئيلة الشأن فهي صورة مختصرة عما سنتحدث عنه ، وأما الخطيرة كمكة والمدينة فهي دائمية وليست بموسمية ، وفي ذكر الاسوقا المتاخمة لها غنى عن التعرض لها .

هذا ولعل السبب في اختلافهم في تاريخ قيام الاسواق أن العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معيناً لإقامة السوق ويوماً لتقويضها ، بل يتقدم هذا اليوم في بعض السنين ويتأخر في بعض وقد يهرع أقوام الى السوق قبيل ميعادها وقد يتخلف آخرون بعد انقضائها اذا لم تنته أعمالهم وقد تختلف العادة سنة عن سنة ، فمن هنا كان هذا التفاوت اليسير .

ثم قد نص محمد بن حبيب صاحب المحبر وهو اقدم المؤلفين وأدقهم وأنا الى ارقامه اكثر اطمئناناً ، نص على ان سوقين تقومان في زمن واحد وهما سوق الرابية بحضرموت وسوق عكاظ ، فيأخذ بعض العرب الى الأولى وبعض آخر الى الثانية [١] .

(١) انظر (المحبر) ص ٢٦٧ (مطبعة حيد آباد الدكن سنة ١٩٤٢ م)

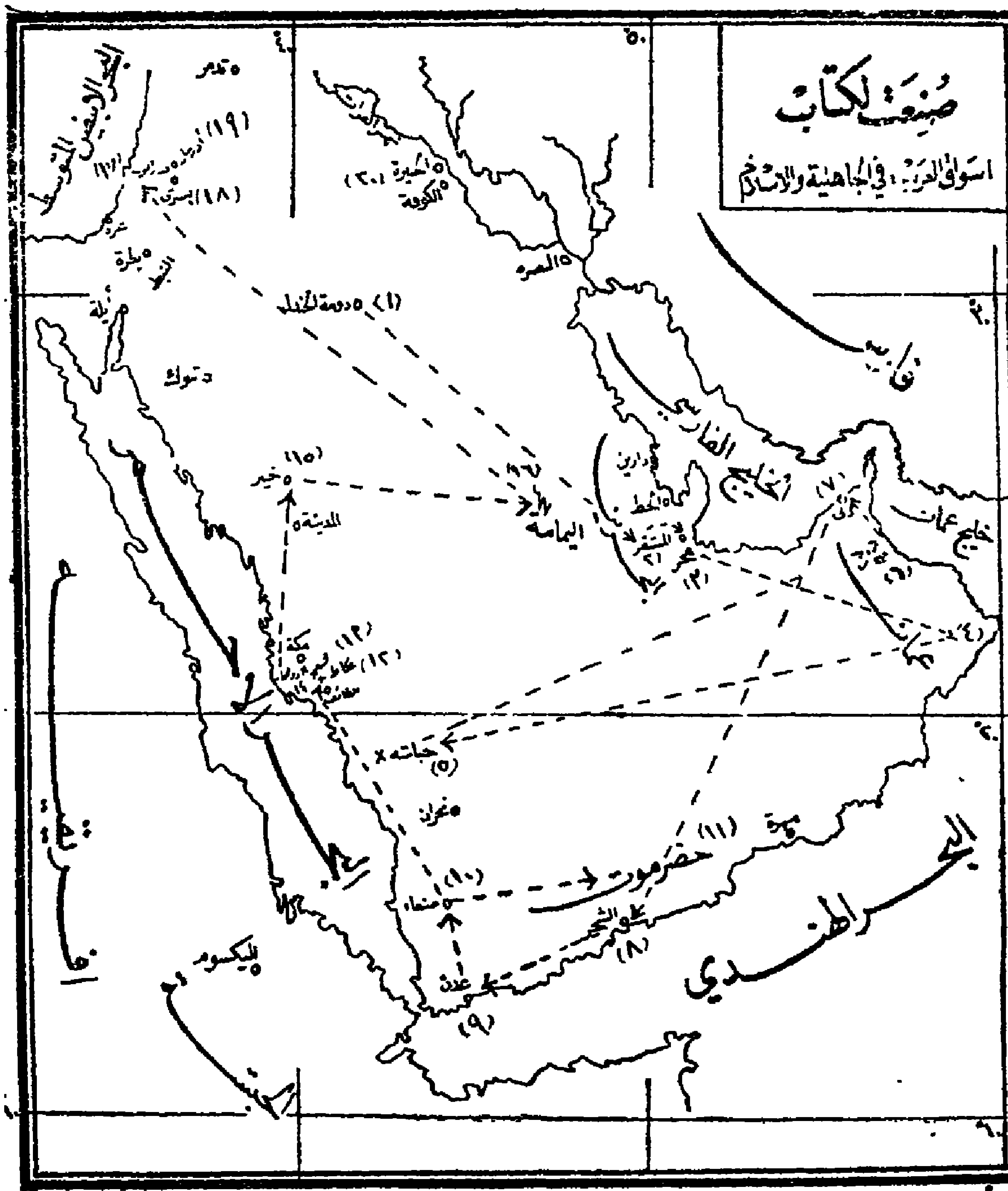
جدول عام لأسواق العرب عند المؤلفين الثمانية

الأسواق مرتبة على حروف الهجاء	(١) المحبر لمحمد بن حبيب - ٢٦٨ ، ٢٦٣ - ٢٦٧		(٢) تاريخ اليعقوبي بعد ٢٩١ هـ ، ١ : ٣١٣ - ٣١٤		(٣) صفة جزيرة العرب الهمداني - ٣٣٤ هـ		(٤) الامتاع والمؤانسة التوحيدي نحو ٤٠٠ ، ١/٨٥	
	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن	الترتيب	الزمن
١ أدم							٥	
٢ أذرعات								
٣ الأسلى								
٤ بدر					٧			
٥ بصرى								
٦ الجند					٣			
٧ حباشة						ملاحظة : الترتيب عند الهمداني يوافق [illegible] لا بحسب الزمن		
٨ حجر اليمامة	١٢	١٠ - ٣٠ المحرم			١٠			
٩ حضرموت (الرابية)	٨	١٥ - ٣٠ ذي القعدة	٨				٧	
١٠ دبا	٤	آخر رجب	٤	[ذكرت هنا: ريا]			٣	
١١ دومة الجندل	١	١ - ١٥ ربيع الأول	١	ربيع الاول			١	ربيع الاول
١٢ دير أيوب								
١٣ ذو المجاز	١٠	١ - ٨ من ذي الحجة	١٠		٥		١٠	
١٤ الشحر	٥	١٥ شعبان	٥				٥	
١٥ صحار	٣	١ - ٥ رجب	٣	١ رجب			٤	
١٦ صنعاء	٧	١٥ - ٣٠ رمضان	٧	١٥ رمضان			٨	
١٧ عدن	٦	١ - ١٠ رمضان	٦	١ رمضان	١		٦	
١٨ عكاظ	٩	١٥ - ٣٠ ذي القعدة	٩		٦		٩	
١٩ عمان								
٢٠ مجنة					٨			
٢١ المشقر	٢	جمادى الآخرة	٢	جمادى الاولى			٢	ربيع الآخر
٢٢ مكة					٢			
٢٣ منى					٩			
٢٤ نجران					٤			
٢٥ نطاة خيبر								
٢٦ هجر	١١				١١			

(٥) الازمنة والامكنة للمرزوقي - ٤٢١ هـ ٢ : ١٦١ - ١٧٠		(٦) صبح الاعشى القلقشندي - ٨٢١ هـ ١ : ٤١ - ٤١١		(٧) خزانة الادب البغدادي - ١٠٩٣ هـ ٤ : ٣٦ - ٣٦٢		(٨) بلوغ الارب للآلوسي - ١٣٤٢ هـ ١ : ٢٦٤ - ٢٧٠	
ترتيب	الزمن	ترتيب	الزمن	ترتيب	الزمن	ترتيب	الزمن
١٦		٤					
١٧							
١٥							
						٥	رجب
١٣				١٠	١٠ - ٣٠ المحرم	١٥	١٠ - ٣٠ المحرم
٨	١٥ ذي القعدة	٦		٦	١٥ من ذي القعدة	١١	١٥ من ذي القعدة
٤	٣٠ رجب						
١	ربيع الاول	١	ربيع الاول	١	١٥ ربيع الاول	١	ربيع الاول
١٤							
١٠	١ - ٨ ذي الحجة			٨	١ - ٨ من ذي الحجة	١٣	١-٨ من ذي الحجة
٥	١٥ شعبان	٤		٤	١٥ شعبان	٧	١٥ شعبان
٣	١ رجب			٣	١٠ - ١٥ رجب	٦	١٠-١٥ رجب
٧	١٥ - ٣٠ رمضان	٧		٥	١٥ شعبان	٩	١٥-٣٠ رمضان
٦	١ - ١٠ رمضان	٥				٨	شعبان - رمضان
٩	١٥ من ذي القعدة	٨		٧	١٥-٣٠ ذي القعدة	١٠	١٠-٢٠ ذي القعدة ١٥-٣٠ شوال
		٣				٣	جادى الاول
١١						١٢	٢٠-٣٠ ذي القعدة
٢	١ - ١٠ ج٢			٢	١ جادى الآخرة	٤	١ جادى الآخرة
١٢		٢	ربيع الآخر	٩		١٤	بعد أيام الحج
						٢	ربيع الآخر



مصنعَ لكتاب
اسواق العرب في الجاهلية والاسلام
البحر الابيض المتوسط
غزة
مصري
الحيرة
الكوفة
البصرة
دومة الجندل
أيلة
فارس
الخليج الفارسي
دارين
الخط
اليمامة
المشقر
هجر
دبا
صحار
خليج عمان
عمان
خيبر
المدينة
مكة
عكاظ
حباشة
نجران
صنعاء
حضرموت
الشحر
عدن
البحر الهندي
اليكسوم



الانتقال بين الأسواق بدلالة الأرقام والخطوط ابتداء من دومة الجندل

أسواق العرب

أ — في الجاهلية

سوق دومة الجندل

دُومة الجندل ويقال (دوماء الجندل) كلاهما بالضم [1] ، بلد يقع في نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسي والمدينة ، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا . بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة لعدم استقامة الطريق بينهما . وهي في غائط من الارض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن « مارد » المشهور ، والى غربها عين تنج فتسقي ما به من النخل والزرع ، وكانت خربة . وروى ابن سعد نقلاً عن بعض أهل الحيرة في سبب بنائها : « أن أكيدر صاحبها وإخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة ، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم ، فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بالجندل ، فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره . سموها

(١) ونقل الفتح فيها صاحب النهاية ، وفي الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون . هذا ودومة الجندل هي التي تعرف اليوم ـ على ما نقل لنا ـ بـ (الجوف) .

دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة[1] .»

وقال ياقوت : «كان فيها قديماً حصن مارد ، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وقريب منها جبلا طيء وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب .»

وكان أكيدر يبعث بمن يتعرّض قوافل التجـــارة الذاهبة بين المدينـة والشام ويظلم من يمرّ بهم من الضافطة (الذين يجلبون المـيرة والطعام) ثم قوي شرهم حتى شـاع أن في عزمهـم الدنوّ من المدينة وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة ، فندب رسول الله ﷺ الناس، واستخلف على المدينة ، وخرج في ألف من المسلمين يسير الليل ويكمن النهـار ومعه دليل من بني عذرة حتى بلغوا دومة الجنـدل ، فتفرقوا وألقي الرعب في قلوبهم ، وأخذ من نعمهم وشائهم ورجع ولم يلق كيداً .

والظاهر أن شرهم لم ينقطع عن تجار المدينة حتى اضطر الرسول إلى أن يرسل إليهم سرية عليها عبد الرحمن بن عوف ، وأوصـاه حين دفع إليه اللواء بقوله : « خذه[2] يابن عوف فاغزوا جميعاً في سـبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لاتغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيـكم . » وقال له : « إن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم . »

(١) الطبقات ص ٦١ (٢) سيرة ابن هشام (٣ : ٤٤٣)

سار عبد الرحمن حتى بلغ دومة الجندل فدعا أهلها إلى الاسلام فأسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير من قومه وتزوج عبد الرحمن ابنته (تماضر) وبقي على الجزية هو ومن معه .

إلا أن أكيدر صاحب دومة وعاملها لهرقـــل بقي على تعرضه للسابلة من تجار المدينة ، ولعل لمكانة سوق دومة الجندل و كثرة التجار بها وعدم تعريج أحد من المدينة عليها دخلاً في هذا التعرّض الذي لايبعد أن يكون للمنافسة التجارية أثر فيه غير قليل . وأراد الرسول إقرار الأمن في تلك الربوع فدعا خالد بن الوليد وبعثـــه على رأس سرية إلى أكيدر هذا ، فلما بلغ الركب ضاحية دومة الجندل وجدوا صاحبها في نفر من قومه يتصيّدون فأسروا أكيدر وقتلوا أخـــاه ورجعوا الى المدينة بأسيرهم ، فحقن له رسول الله ﷺ دمه وصالحه على الجزية ثم خلّى سبيله ورجع الى بلده وقد كتب له رسول الله ولأهل دومة هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر ولأهل دومة الجندل : إن لنا الضاحية من الضَحْل والبَوْر والمعامي وأغفال الارض والحلْقة والسلاح والحافـــر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور ، ولا تعدل سارحتكم ولا

تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين[1] . »

وهذا الصلح تجاري بنتيجته لما ضمن من منافع للمسلمين ، كما هو تجاري بسببه أيضاً إذ لولا تعرض أهل دومة لمن يجتاز بقربهم من التجار مااضطر الرسول إلى إرسال سراياه لتأمين الطريق وتأديب أهل العيث والفساد .

وبقي القوم على صلحهم حتى كانت سنة اثنتي عشرة للهجرة ففتحها

---

(١) انظر الواقدي وشرح المواهب للزرقاني ٣ : ٣٦١

الضاحية : البارز من أطراف الارض . والضَحْل : الماء القليل. والبَوْر : الارض التي لم يؤخذ خراجها . والمعامي وأغفال الأرض : ما لا أثر لهم فيها من عمارة أونحوها . والحلقة : الدروع والسلاح . والحافر : الخيل والبراذين والحمير . والحصن : دومة الجندل . والضامنة : النخل الذي معهم في الحصن . والمعين : الظاهر من الماء الدائم . ولا تعدل سارحتكم : لا تنحّى مواشيكم عن الرعي ولا تحشر إلى المصدّق (عامل الزكاة) والفاردة : ما لا تجب فيه الصدقة .

هذا وذهب الواقدي وغيره الى أنه أسلم وأن أول الكتاب : « من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها : إن لنا الضاحية .. الخ)

وإسلامه لم يصح وقد اغتر بهذه الرواية غير واحد وآخرهم صاحب (مجموعة الوثائق السياسية) إذ أثبت رواية الواقدي الضعيفة ص ١٦٧

خالد عنوة في خلافة الصديق وظفر العرب بأكيدر خارج دومة فأمر خالد بقتله[1] . وكان صاحب صلحهم أكيدر ذا شهرة في قبائل العرب توازي شهرة حصنه دومة الجندل وشهرة حصن المشقر . والعرب تنظر الى أصحاب الحصون نظرة إعظام وإعجاب بقوتهم ، ولما ذكر لبيد فعل بنات الدهر لم يعظ قومه إلا بأصحاب الحصون فكان أكيدر دومة هذا أحد من ضربهم مثلا فقال :

وأعصفن بالدومي من رأس حصنه   وأنزلن بالأسباب رب المشقر

يعني بالدومي أكيدر ، وذكر دومة الجندل يشغل صفحات غير قليلة من تاريخ المسلمين لأنه فيها التقى الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وكان منهما ماهو معروف .

* * *

تنزل قبائل العرب في الجاهلية هذه السوق في أول يوم من ربيع الاول للبيع والشراء وكان بيعهم فيها بيع الحصاة (وقد تقدم في الكلام على بيوع الجاهلية) .

ويجاور هذه السوق من قبائل العرب قبيلتا كلب وجديلة طيء .

وكانت كلب أكثر العرب قناً فكانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت

---

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٠٦٥

من شَعَر يجعلون فيها عبيدهم وإماءهم . وكانوا ـ على عادة بعض العرب ـ يكرهون فيها فتياتهم على البغاء ويأخذون لأنفسهم كسب أولئك البغايا من إمائهم . فلما كان الاسلام وحرّم الله هذه العادة القبيحة بقوله تعالى :

« وَلاتُكرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّناً[1] »

تنزّه العرب عن هذه التجارة التي كانوا عليها في الجاهلية وتجاوز الله عما كان منهم قبل الاسلام .

يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب وكان رؤساء السوق غالباً إما من كلب وإما من غسان ، أي الحيين غلب خضع له الآخر ، وكان مكس هذه السوق لمن يشرف عليها قال الألوسي :

« كان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم الى نصف الشهر . وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم ويتولى امرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر .

فكان إذن بين أكيدر وقبيلة كلب تنافس شديد على الاستيلاء على هذه السوق ومكسها ، فأكيدر يتولى أمرها حيناً ويعشر من بها ،

(١) سورة النور ٢٤/٣٣

والكلبي حيناً يستأثر بالحكم فيها والاضطلاع بشؤونها . أما الغريب حقاً فهو ماذكره المرزوقي من حلٍ لهـذا الخلاف والتطاحن بين الملكين وهو إن صح ـ وليس ببعيد ـ يطلعنا على صورة طريفة من عقلية القوم وعاداتهم قال :

« وكان ملكها (يعني سوق دومة الجنـدل) بين أكيدر العبادي من السَكون ، وبين قنافة الكلبي. وكان غلبة الملكين بأن يتحاجيا !! فأيهما غلب صاحبه بما يلقي عليه تركه والسوق يفعل بها ما يشاء . ولم يبيع فيها أحد من الشام ولاأهل العراق إلا باذنه ،ولم يشتر فيها ولم يبع حتى يبيع الملك كل شيء يريد بيعه مع ما كان إليه من مكسها [1] . »

فأنت ترى أن الأمر ذو خطر وفوائد كثيرة يستحق هـذا التطاحن عليه .

يدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الاول وتغص بمن يؤمهامن أطرف الشام ومن العراق وسائر الجزيرة . وهي من الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقون في سيرهم إليها نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن ، ولايحملهم على ذلك كله

(١) نقل المرزوقي هذا عن كتاب المحبر لمحمد بن حبيب ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ولم يعز إليه .

إلا ماتغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة قال المرزوقي :

كانت قريش تخرج إليها قاصداً من مكة ، فإن أخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع ... وكانوا اذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بني تميم ؛ فإذا سفلوا عن ذلك أخذوا في بني أسد حتى يخرجوا على طيء فتعطيهم وتدلهم على ماأرادوا لأن طيئاً حلفاء بني أسد . فاذا اخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فتجيز لهم ذلك ربيعة كلها [1] . »

ثم تفتر حركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر ، إذ يفترق أهلها وموعدهم إليها من قابل ، شهر ربيع الاول .

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦١ والمحبر ص ٢٦٤ وفيه بعد قوله (حلفاء بني أسد) : وكانت مضر تقول : قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا إسماعيل من الدين فإذا أخذوا الخ .. والمرزوقي اقتبس عبارة المحبر كما هو ظاهر .

سوق المشقر

المشقر حصن بالبحرين لعبد القيس وهو قريب من هجر . وأهله أزد يمانون كما سيأتي في الكلام على سوق عمان ، جاء في مراصد الاطلاع:

« المشقر حصن بين نجران والبحرين ، يقال إنه من بناء طسم . وهو على تل عال ، يقابل حصن بني سدوس ، ويقال إنه بناء سليمان ، وقيل هو حصن بالبحرين لعبد القيس ، يلي حصناً آخر لهم يقال له الصفا قبل مدينة هجر ، والمسجد الجامع بالمشقر ؛ وبينهما نهر يجري الى جانب مدينة محمد بن الغمر يقال له العين . » فالظاهر من هذا الكلام أن هذا الحصن وثيق البنيان ، ذو خطر ، حتى رفعوا نسبة بنائه الى سليمان ، وحتى ضرب به المثل في المنعة والإحكام قال المخبّل:

فلئن بنيت لي المشقر في صعب تقصّر دونه العصم[1]

لَتُنَقَّبَنْ عني المنية إنّ الله ليس كعلمه علم

وشهرة الحصن مستفيضة على ألسنة العرب ذكره كثيرون منهم

---

(١) العُصْم جمع أعصم : وهو من الوعول ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

فمن ذكره الأعشى القائل :

فإن تمنعوا منا المشقر والصفا ... فإنا وجدنا الخط جماً نخيلها

وذكره ابو ذؤيب الهذلي في مرثيته لبنيه فقال :

حتى كأني للحوادث مروة ... بصفا المشقر كلَّ يوم تُقْرَعَ

* * *

تقوم في المشقر سوق للعرب تبتدىء من أول جمادى الآخرة وتستمر الى سلخه فتنفضّ ويغادرها الناس الى جمادى من قابل ، وينزلها أخلاط من جميع أحياء العرب « وكانت أرضها معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها . » فلها صفات هجر وخصبها إذ هي جزء منها ، وقد علل المرزوقي اختلاف قبائل الناس في هذه النواحي بقوله :

« وكانت لا تقدمها لطيمة إلا تخلّف منهم بها ناس ، فمن هناك صار بهجر من كل حي من العرب ومن غيرهم[1] . »

وكان بيعهم في هذه السوق بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب !! وقد مرّ بك تفسير هذه البيوع في محله .

كثر ذكر المشقر في كتب الأدب ، فكان امرؤ القيس الشاعر ينزله ، وفيه كانت وقعة من الوقائع المشهورة في أيام العرب : إذ حاصر

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٣ .

كسرى بني تمـــيم فيه ، وأغلق عليهم بابه ، ثم قتل المقاتلة ، وسبى الذراري بعد أن امتنعوا فيه مدة وذكر صـاحب الاغاني مايستدل منه على ان كسرى كان له النفوذ على هذه السوق (شأنه في سوق هجر وعمان) يقيمها متى شاء ويعطلها متى شاء قال :

« أمر كسرى بالطعام فادخر في المشقر ، وقد أصابت بني سعد سنة شديدة ، والطعام عنهم محبوس ، وكان المشير على كسرى بذلك هوذة ، وكان له عليهم ثارات فقال لكسرى : « أيهـا الملك ! احبس الميرة عنهم ، فاذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها ، فتصيبهم عنـــد ذلك خيلك . » ففعل كسرى وحبس عنهـم الأسواق في سنة مجـدبة ثم سرح الى هوذة فأتاه . . . الخ [1] .

يقصد هذه السوق العرب وأهل فارس على السواء ويجاورهـا

---

(١) ج١٦ص٧٨ والأساورة جمع أسوار وهو : قائد الفرس والجيد الرمي بالسهام ، والثابت على ظهـــر الفرس ، والخبر كما في الأغاني ، ١٦ / ٤٥ عن ابن الكلبي :

بعث كسرى إلى عامله باليمن بعير وكان باذان على الجيش الذي بعثه كسرى إلى اليمن ،وكانت العير تحمل نبعاً، فكانت تبذرق (تخفر) من المدائن حتى تدفع إلى النعمان ويبذرقها النعمان بخفراء من بني ربيعة ومضر حتى يدفعها=

من قبائل العرب تميم وعبد القيس . وليس لها ما لغيرها من الأمن

=الى هوذة بن علي الحنفي فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة، ثم تدفع الى بني سعد وتجعل لهم جعالة فتسير فيها فيدفعونها الى عمال باذان باليمن . فلما بعث كسرى بهذه العير قال هوذة للأساورة : «انظروا الذي تجعلونه لبني تميم فأعطونيه فأنا أكفيكم أمرهم وأسير فيها معكم حتى تبلغوا مأمنكم» ، فخرج هوذة والأساورة والعير معهم من هجر ، حتى إذا كانوا بنطاع بلغ بني سعد ما صنع هوذة فساروا اليهم وأخذوا ما كان معهم واقتسموه وقتلوا عامة الأساورة وسلبوهم وأسروا هوذة بن علي فاشترى هوذة نفسه بثلثمائة بعير ، فساروا معه الى هجر فأخذوا منه فداءه ففي ذلك يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهوذة مقرون اليدين الى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانياً عليه وثاق القد والحلق السمر

فعمد هوذة عند ذلك الى الأساورة الذين أطلقهم بنو سعد وكانوا قد سلبوا فكساهم وحملهم ثم انطلق معهم الى كسرى ، وكان هوذة رجلا جميلاً شجاعاً لبيباً فدخل عليه فقص أمر بني تميم وماصنعوا ... فقال كسرى لهوذة : «أرأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي أبينك وبينهم صلح ؟» قال هوذة : «ايها الملك : بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا ابي .» فقال كسرى : «قد أدركت ثأرك ، فكيف لي بهم ؟» قال هوذة : «إن ارضهم لاتطيقها اساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة فإذا فعلت ذلك بهم سنة أرسلت معي جنداً من اساورتك وأقيم لهم السوق فإنهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك.» وأمر بالطعام فادخر بالمشقر ومدينة اليمامة وقد اصابت الناس سنة شديدة ثم قال : «من دخلها من العرب فأميروه ماشاء» فبلغ ذلك الناس . وكان اعظم من اتاها بنو سعد فنادى منادي الاساورة «لايدخلها عربي بسلاح .» فأقيم بوابون على باب المشقر فإذا جاء الرجل ليدخل قالوا : «ضع سلاحك وامتر

والحرمة ، وجميع من يقصدها لا يستغني عن خفارة يسير في حمايتها .
(وكان من يؤمها من التجار يتخفرون بقريش لأنها لا توتى إلا من بلاد مضر)[١] . وملوك هذه السوق الذين يعشرون الناس فيها أناس، من بني عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوى من بني تميم يسيرون هنا سيرة الملوك في دومة الجندل ، وهم خاضعون لملك فارس « يستعملهم عليها كما يستعمل بني نصر على الحيرة و بني المستكبر على عمان[٢] » ومن يوافي هذه السوق من فارس خلق كثير :

ولا تُعرض تجارة ولا يقوم بيع حتى تنفق تجارة الملك بتمامها كما هو الشأن في سوق دومة الجندل ، ولا ريب أن ملوك هذه السوق ترضخ إلى حكومة فارس مما يحصلون عليه بالنصيب الأوفى .

= واخرج من الباب الآخر » فيذهب إلى رأس الأساورة فيقتله .

فيزعمون أن خيبري بن عبادة قال : « يا بني تميم ما بعد السلب إلا القتل وأرى قوما يدخلون ولا يخرجون . » فانصرف منهم من انصرف من بقيتهم وقتلوا بعضهم وتركوا بعضاً محتبسين عندهم . اه

(١) المحبر ص ٢٦٥ (٢) الصفحة السابقة والازمنة والامكنة ج٢ص ١٦٣

سوق هجر

يتناول اسم هجر أرض البحرين عامة ، وهي واليمن وعمان من أخصب بلاد العرب وأكثرها رخاء ، وذكر ياقوت في معجمه أنها قاعدة البحرين . موقع هذه البلدة في جنوب الخليج الفارسي ، وتكون على اتصال دائم ببلاد الهند وفارس ، يجلب إليها مختلف الأصناف ، ولأهلها أسباب أخر للمعاش غير التجارة ، كالغوص على اللؤلؤ ، وهم لا يزالون على ذلك إلى اليوم كسائر سكان البحرين ، والنسبة إليها هجري على القياس وهاجري على غير قياس قال دريد بن الصمة :

وربَّت غارة أوضعت فيها كسحّ الهاجريّ جريم تمر (١)

وهجر مشهورة بكثرة وبائها حتى قال عمر بن الخطاب : « عجبت لتاجر هجر وراكب البحر . » يريد أنهما سواء في التعرض للخطر

---

(١) جرم النخلة قطعها ، والجريم التمر اليابس ، والنوى ورواية اللسان « كسح الخزرجي » وقال : « معناه أي صببت على اعدائي كصب الخزرجي جريم التمر وهو النوى » وهجر أيضاً قرية من قرى المدينة تنسب اليها القلال الهجرية ، انظر اللسان والتاج وياقوت . وشرح شواهد المغني ص٦٨ فقد نقل هذا أن هجر بلدتان : هجر البحرين ذات التمر وهجر الحجاز ذات القلال .

.وصارت ديار القرامطة فيما بعد ، وقدا حتف بها قبائل كثيرة من مضر.

وهي أكثر بلاد العرب تموراً وأطيبها ، وأروج تجاراتها التمر ، به عرفت وبها اشتهر حتى ضرب به المثل فقالوا « كمبضع تمر إلى هجر» كما قالوا : « كجالب الدر إلى البحر » قال أبو عبيد : « هذا من الأمثال المبتذلة ، ومن قديما : وذلك أن هجر معدن التمر والمستبضع إليه مخطىء . » ونخلها كثير ملتف غاية في الجودة والطيب . قال الشاعر يذكر إبلاً خرجت للميرة إلى هجر فرجعت بغير كف ولا طعام :

حُبِسْن بين رملة وقُفّ وبين نخل هجر الملتف

ثُمّتَ أصدرن بغير كف[1]

وقد استفاض على ألسنة النـــاس ذكر تمرها والثناء على جودته وطيبه ، وملئت كتب الأدب بالإشارة إليه ، فهـذا رسول جميل إلى بثينة يبلغها ما أرسل به فتتحفه بتمر من تمر هجر[2].

وذاك أعرابي حضر وليمة لعبد الملك بن مروان عجز الفصحاء عن وصف ما حوت من الأطايب والألوان فقيل له : « هل رأيت

(١) ياقوت ، والقُفّ ما ارتفع من الارض وحجارة غاص بعضها ببعض لاتخالطها سهولة وهو جبل إلا أنه غير طويل . والكف : بقلة الحمقاء والنعمة.

(٢) الاغاني ٢ : ١٣٨ .

يا أعرابي طعاماً أطيب وأكثر من هذا ؟ » فقال : « أما أكثر فلا وأما أطيب فنعم .. » وذكر طعاماً فيه تمر هجر[1] .

---

(١) ذكر الخبر مفصلاً صاحب الاغاني ٧ / ٥٠ فقال :

صنع عبد الملك بن مروان طعاماً فأكثر وأطاب ودعا اليه الناس فأكلوا فقال بعضهم : «ما أطيب هذا الطعام ، ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه . » فقال أعرابي من ناحية القوم : « أما أكثر فلا وأما اطيب فقد والله أكلت أطيب منه » . وطفقوا يضحكون من قوله .

فأشار اليه عبد الملك فأدني منه ، فقال : « ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني بما يبين به صدقك » فقال : « نعم يا أمير المؤمنين :

بينا أنا بهجر في ترب أحمر في أقصى حجر ، إذ توفي أبي وترك كلاً وعيالاً وكان له نخل ، فكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون الى مثلها كأن تمرها أخفاف الرباع ، لم ير تمر قط أغلظ ولا أصلب ولا أصغر نوى ولا أحلى حلاوة منها وكانت تطرقها أتان وحشية قد ألفتها تأوي الليل تحتها فكانت تثبت رجليها في أصلها وترفع يديها وتعطو بفيها فلا تترك إلا النبذ والمتفرق فأعظمني ذلك ووقع مني كل موقع فانطلقت بقوسي وأسهمي وأنا أظن أني أرجع من ساعتي فمكثت يوماً وليلة لا أراها حتى كان السحر فأقبلت فتهيأت لها فرشقتها فأصبتها وأجهزت عليها ثم عمدت الى سرتها فاقتويتها ، ثم عمدت الى حطب جزل فجمعته الى رضف ثم عمدت الى زندي فقدحت وأضرمت النار في ذلك الحطب وألقيت سرتها فيه وأدركني نوم السبات فلم يوقظني إلا حر الشمس في ظهري فانطلقت اليها فكشفتها وألقيت ما عليها من قذى أو سواد او رماد ثم قلبت مثل الملاءة البيضاء ، فألقيت عليها من رطب تلك النخلة المجزعة والمنصفة فسمعت لها أطيطاً كتداعي عامر وغطفان ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة فأضعها بين التمرتين وأهوي إلى فمي ، فما أحلف إني ما أكلت طعاماً مثله قط . «فقال له عبد الملك لقد أكلت طعاماً طيباً الخ .

وليس هذا التمر معروفاً عند الأدباء وحدهم ، بل إن ذكره لاَبس مسألة نحوية مشهورة ، فما على الأرض نحوي إلا يعرف لهجر تمرها ، فقد أتى خلف الأحمر ويحيى اليزيدي أبا المهـــدي : أعرابياً فصيحاً حجة ، وكان به عارض فوجداه يصلي فلما التفت قال : « ما خطبكما ؟ » قالا : « كيف تقول : ليس الشرابُ إلا العسلُ . » فقال : « فما يصنع سودان هجر ، ما لهم شراب غير هذا التمر[1] . »

---

(١) والقصة على التمام ذكرها ابو علي القالي في أماليه ٣ / ٣٩ قال :

حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال ياأبا عمرو ، « ماشيء بلغني عنك تجيزه ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيبُ إلا المسكُ بالرفع فقال أبو عمرو : « نمت ياأباعمر وأدلج الناس ؛ ليس في الارض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الارض تميمي إلا وهو يرفع ، » ثم قال أبو عمرو : (قم يايحيى يعني ـ اليزيدي ـ ، وأنت ياخلف ـ يعني الأحمر ـ فاذهبا إلى أبي المهدي فإنه لايرفع ، واذهبا الى المنتجع ولقناه النصب فإنه لاينصب » .

قال فذهبا فأتيا أبا المهدي فإذا هو يصلي ، وكان به عارض وإذا هو يقول « لقد أخسأناه عني » ثم قضى صلاته والتفت الينا وقال : ماخطبكما ؟ قلنا : « جئناك نسألك عن شيء » ، قال : « هاتيا » ، فقلنا : « كيف تقول : ليس الطيب إلا المسكُ ؟ » فقال : « أتأمراني بالكذب على كبرة سني ؟ فأين الجاديُ وأين كذا ؟ وأين بنّة الإبل الصادرة ؟ » فقال له خلف : « ليس الشراب إلا العسلُ » . فقال : « فما يصنع سودان هجر ؟ مالهم شراب غير هذا التمر » قال اليزيدي : فلما رأيت ذلك منه قلت له : « ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ الله =

ولهجر شأن آخر في آداب اللغة العربية غير هذا المثل المضروب وتلك القاعدة النحوية . إذ في دِهاسها[1] هلك المهلهل ، أول من هلهل الشعر وأرق نسجه ، مات عطشاً في حمارّة القيظ (الأغاني ٦ /١٢٨) ومن الغريب أن سبب موته هو خمر هجر هذه : وذلك أن عمرو بن مالك ومهلهلاً التقيا في خيلين من غير مزاحفة في بعض الغارات بين بكر وتغلب ، فانهزمت خيل مهلهل وأدركه عمرو بن مالك فأسره فانطلق به إلى قومه وهم في نواحي هجر ، فأحسن إساره ، ومر عليه تاجر يبيع الخمر ، قدم بها من هجر وكان صديقاً لمهلهل يشتري منه الخمر ، فأهدى إليه وهو أسير زق خمر ، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكراً وشربوا عند مهلهل في بيته - وقد أفرد له عمرو بيتاً يكون فيه - فلما أخذ منهم الشراب تغنّى مهلهل فيما كان يقوله من الشعر وينوح به على كليب ، فسمع ذلك عمرو بن مالك وهاج تغنّيه كامن الغيظ في

والعملُ بها » فقال : « هذا كلام لادخل فيه ، ليس ملاك الامر إلا طاعةَ الله والعمل بها » فقال اليزيدي : « ليس ملاكُ الامر إلا طاعةُ الله والعمل بها . » فقال : « ليس هذا لحني ولا لحن قومي » . فكتبنا ماسمعناه منه ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف : « ليس الطيب إلا المسكَ » فلقنّاه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع .

فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ، فأخرج عيسى بن عمر خاتمه من يده وقال : « ولك الخاتم ، بهذا والله فقت الناس » . اه .

(١) الدهاس المكان السهل ليس برمل ولا تراب .

نفسه فقال: «إنه لريّان ، والله لا يشرب ماء حتى يرد ربيب» (وربيب هذا جمل كان لعمرو بن مالك ، وكان يتناول الدّهاس من أجواف هجر فيرعى فيها غباً بعد عشر في حمارّة القيظ) ،فأشفق إخوان عمرو من هذا القسم وخافوا أن يزيد الشر بين الحيّين إن هلك مهلهل ؛ فأسرعت ركبانهم وخرجت في طلب البعير ربيب ، وهم حراص على ألا يقتل مهلهل ، فلم يقدروا على البعير حتى مات مهلهل عطشاً . ونحر عمرو يومئذ ناقة مسنة فأسرج جلدها على مهلهل وأخرج رأسه .

وهكذا ذهب مهلهل من جراء نشوة من خمر هجر[1] ، وكم أفقدت الخمر الناس رؤوسهم وسادتهم ، وكم كانت نذير الشر والشؤم منذ الزمن الأقدم ، فلنذكرنّ هجر وخمرها ، وهذه الميتة الروائية كلما ذكرنا المهلهل وما رقق من شعر .

* * *

تهبط العرب هذه السوق ولعلها كانت أكثر مكانة من دومة الجندل ، لأنها فرصة يجدون فيها من أصناف التجارات التي يأتيهم بها تجار الهند وفارس ما لا يجدون في تلك ، ولأن بها من التمر ما طبّقت شهرته الآفاق ، وضرب في الجودة مثلاً في البلاد ، وليس ذلك بقليل.

(١) في الجزء الاول من مسالك الابصار فصل عن حانات هجر المشهورة فارجع اليه ثمة .

وكان بها عدا ذلك ضروب من البضائع ، فعلى مقربة منها «الخط» المشهورة برماحها . وفي (رياض الصالحين ص ٤٤٩) أن سويد بن قيس قال : « جلبت أنا ومخرمــــة العبدي بزاً من هجر . فجاء النبي ﷺ فساومنا سراويل . » فأنت ترى أنه يجلب منها بزّ يباع في المدينة . وكان كسرى يرسل إلى سوق هجر من تجاراته : يرسل إليها لطائم فيها الطيب فيباع فيها ثم ترجع موقرة عروضاً وتمراً . وحدث مرة أن أغارت بنو تميم على اطيمة لكسرى فيهـا مسك وعنبر وجوهر كثير فأرسل جيشاً أوقع بهم فأخذ الأموال وسبى الذراري بمدينـة هجر وسميت تلك الوقعة « يوم الصفقة[١] » . ولعل نفوذ كسرى في هـذه السوق كان غير ضئيل .

تقصد العرب هذه السوق بعدا نفضاضهم من سوق دومة الجندل، فإذا أهلّ ربيع الآخر انتقلوا إليهـا فقامت سوقها . وينظر في أمرها المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم ، يتولى أمرها ويعشر الناس فيها ، وهو ملك البحرين عامة .

(١) انظر الخبر مفصلاً في العقد الفريد ٣ : ٣٥٤ .

سوق عمان

كورة عربية في جنوب الخليج الفارسي تمتد على سواحل بحر اليمن ، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع ، وهي شديدة الحرارة حتى إن حرها يضرب به المثل .

وبها فواكه جُرومية[1] (كالموز والرمان والتين ونحو ذلك) ولعل نخيلها متميز من غيره ، فقد ذكروا ان بالبصرة نخلة يقال لها (العُمانية) لايزال عليها السنة كلها طلع جديد وكبائس مثمرة وأخرى مرطبة . قيل إنها سميت بعمان بن نفثان بن سبأ أخي عدن[2] وقيل من (عمن يعمَن) إذا أقام ، وقد اشتقوا منها فعلا فقالوا : أعمن وعمّن إذا أتى عمان ، قال العبدي :

فإن تُتْهموا أُنجد خلافاً عليكمُ ... وإن تُعْمنوا مستحقِبي الحرأُعرق

عدها الهمداني في (صفة جزيرة العرب ص ٤٨) من مخاليف اليمن

(١) مسالك الممالك للاصطخري .

(٢) تاج العروس . وعمان كغيرها من أعلام الامكنة تصرف ولا تصرف وبكليهما ورد الشعر ، فمن أمثلتها غير مصروفة قول الشاعر :

أحب عمان من حبي سليمى ... وما عهدي بحب قرى عمان .

نزلها الازد على قبائل يحمدو حدان ومالك والحارث وعتيك وجُديد (ص ٢١١) ، واستشهد على قوله بشواهد من الشعر منها :

وأزدلها البحران والسيف[1] كله وأرض عمان بعد أرض المشقر[2]

ومنها :

وغسان الذين هم استتبـــوا قبائلهم بأطراف البلاد[3]

وحياً منهم نزلوا عمانـــاً أراهم لم يهموا بارتـــداد

وغسان من الأزد كما هو معلوم ، واستشهد أيضاً بهذا الشاهد وهو يريد الأزد طبعاً :

فأقرت قرارها بعمان فعمان محل تلك الحماة[4]

وتضرب بها العرب المثل في بعدها لأنها في أقصى الجزيرة إلى الشرق والجنوب تفصلها عن اليمن صحراء الاحقاف وهي بعيدة عن الحجاز والعراق والشام .

ذكر ياقوت أن الحسن بن عادية قال : لقيت عبد الله بن عمر فقال : « من أي بلد أنت ؟ » قلت : « من عمان » قال : « أفلا أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ » قلت : « بلى » قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اني لأعلم أرضاً من أرض العرب يقال لها

(١) سيف البحر : ساحله . (٢) ٢٠٦ (٣) ٢٠٧ (٤) ٢١٠

عمان على شاطىء البحر : الحجة منها أفضل من حجتين من غيرها »
ومن المفسرين من ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى : « وَعَلَى كُلِّ
ضامِرٍ يأتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ . »[1] عمان .

ولو عرف الشاعر أبعد منها لذكره محلها في قوله يهجو قوماً :

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعُمان

والظاهر أنها على بعدها لم تكن تخلو من أخلاط القبائل ومختلف الامم ، شأن كل فرضة تجارية ، فلم تقتصر على الازد الذين روينا لك فيهم ماذكره الهمداني ، لانها أقرب بلاد العرب من الهند وليس بينها وبين فارس الا المضيق فكان فيها النزلاء الغرباء من هؤلاء ، عدا من يقصدها من العرب للتجارة فيقيم فيها ، وقد ظلت تحت نفوذ الفرس الفعلي ، وكان ملوك فارس هم الذين يولون عليها الامراء فاستعملوا بني المستكبر ـ على رواية المرزوقي ـ وقد تقدم أن لهم نفوذاً على هجر ، وعلى المشقر كما سبق ، فتكون فارس قد بسطت سلطانها على سواحل الخليج الفارسي كله وعلى سواحل بحر اليمن حين أرسلوا الاحرار فطردوا الحبشة منها ، وبذلك يكون لهم نصف سواحل جزيرة العرب ، ومازالت الفرض والشواطىء عرضة للأطماع ينزلها

(١) سورة الحج ٢٢ الآية ٢٧

كل قوي ، فكيف إذا كانت خصبة فيها الغني كعمان ، وقد جاء في الحديث : « من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان . » فتجاراتهم كثيرة ومعايشهم وافرة ، وفيها ذخائر متنوعة ومعادن جيدة وخصب ورخاء فجمعوا بذلك أسباب الثروة والغنى فلم يكن من الغريب طمع فارس فيهم .

وقد استتبع مركز عمان هذا كثرة الأعاجم فيها واختلاط أهلها بهم ، حتى أدخل ذلك الضيم على لغتهم فلم يعرفوا في العرب بالفصاحة . ولما رأى أبو عمرو بن العلاء أعرابياً من عمان فصيحاً لم يكتم استغرابه من حسن وصفه لبلده وفصاحة منطقه ، حتى عرف أن الأعرابي بعيد عن مراكز الاختلاط تلك ، ذكر القالي (١٦/٣) عنه أنه قال :

لقيت أعرابياً بمكة ، فقلت له : « ممن أنت ؟ » قال : « أسدي . » قلت : « ومن أيهم ؟ » قال : « نهدي . » قلت من أي البلاد ؟ قال : « من عُمان . » قلت : « فأنّى لك هذه الفصاحة ؟ قال : « إنا سكنا قطراً لا نسمع فيه ناجخة التيار . » قلت : « صف لي أرضك . » قال : سِيف أفيَح ، وفضاء صحصح ، وجبل صَرْوَح ، ورمل أصبح » قلت : « فما مالك ؟ » قال : « النخل . » قلت : « فأين أنت عن الإبل؟»

قال : « ان النخل حملها غذاء ، وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكربها صلاء ، وليفها رشاء ، وخوصها وعـاء وقَرْوها إناء[1] . » وذكر صاحب مراصد الاطلاع ان أهلها خوارج أباضية .

* * *

تقصد العرب هذه السوق إذا انتهت من سوق هجر ، فـترحل الى عمان وتقيم سوقها حتى آخر جمادى الأولى . وهي لتوسطهـا بين فارس والهند والحبشة ، تجتمع فيها بضائع هذه الممالك الثـلاث وكانت جمالها تحمل (الوَرْس) من اليمن الى عمان حيث تعالج الاشياء التي يراد صبغها بالصفرة .

وذكر الألوسي أن بأرضها معادن جيدة وذخائر متنوعة . وقد كان يستخرج بها عنبر مشهور ، احتفظت عمان بشهرتهـا به حتى أيام الرشيد فقد ذكر في الأغاني أنه « جـاء العباس بن محمد الى الرشيد يوماً ببرنيّة غالية فوضعها بين يديه ثم قال : « هـــذه ياأمير المؤمنين غالية صنعتها لك بيدي ، اختير عنبرهـا من بحر عمان ، ومسكها من

(١) تاجخة التيار : صوت الموج ، والسيف الافيح : الشاطىء الواسع ، والصحصح : الصحراء ، والصروح : الصلب ، الاصبح : الذي يعلو بياضه حمرة والرشاء : الحبل . والقَرو : وعاء من جذع النخل ينبذ فيه .

مفاوز التُبّت ، وبانها [1] من ثغر تهامة ، فالفضائل كلها مجموعة فيها . . . الخ [2] »

في هذه السوق يجري التبادل بين بضائع فارس والهند والحبشة واليمن والحجاز والشام ، يصب فيها كل تاجر قطر ، ما حمل من قطره ويرجع الى بلده بما يأخذه من عروض ليست فيه ، ولهذا كان فيها جاليات من كل أمة وكل قبيلة .

(١) البان شجر معروف ، ولحب ثمره دهن طيب - القاموس .
(٢) ١٥ / ٣٩ .

سوق حباشة

تقوم هذه السوق بتهامة في ديار بارق نحو (قنونا) على ست ليال من مكة إلى جهة اليمن . فهي المتجر المتوسط المشترك بين الحجاز واليمن . وأصل الحبْش الجمع ، والحُباشة الجماعة من الناس ليسوا من جنس واحد ، ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأجناس للتجارة ، وليست من مواسم الحج . وكما سميت سوق تهامة القديمة بهذا الاسم سميت به سوق أخرى لبني قينقاع تقام في رجب أيضاً ، كما هي اسم للأزد ايضاً . والمشهورة منها هي الاولى التي بتهامة وقد تاجر فيها رسول الله ﷺ ، جاء في الحديث :

« لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كثير مال ، استأجرته خديجة إلى سوق حباشة وهي سوق بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش وكان من قول الرسول وهو يحدث عن هذه التاجرة الكبيرة : « ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة ، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا.» اه

* * *

كان لهذه السوق مالغيرها من المزايا : يكون فيها فداء الاسرى ونشدان الثأر ... عدا أمور التجارة . ولما قتل الشنفرى الشاعر حرامَ بن جابر قاتل أبيه ، أتى رجلٌ أسد بن جابر أخا المقتول فقال : « تركت الشنفرى بسوق حباشة » فرصد له قوم القتيل حتى أسروه وقتلوه .

وليس لحباشة شأن الأسواق العربية الكبرى ، فانها تأتي في الدرجة الثانية في الخطر ، وتكاد تكون لما حولها في الغالب ، على خلاف الأمر في بقية الاسواق التي هي من مواسم الحج .

بقيت هذه السوق قائمة كل عام حتى سنة سبع وتسعين ومئة ، إذ تركت في زمن داوود بن عيسى بن موسى العباسي . والسبب في خرابها أن من عادة ولاة مكة أن يستعملوا عليها رجلاً يخرج معهم بجند فيقيمون بها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب واستمر الامر على هذا حتى قتلت الأزد والياً كان عليها من قبيلة غنيّ ، بعثه داوود بن عيسى بن موسى ، فأشار فقهاء مكة على داوود بتخريبها فخربها ، وتركت منذ ذلك الوقت [1]

(١) أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١ .

ذيل - لهذه السوق يد كبرى على العلم ينعم بفضلها كل باحث شرقي أو غربي ، =

=لانها كانت السبب المباشر في تزويدنا بأوسع معجم جغرافي تاريخي وهو (معجم البلدان) لياقوت رحمه الله ،فقد جاء في مقدمة هذا المعجم مانصه :

« وكان أول البواعث لجمع هذا الكتاب أني سئلت بمرو الشاهجان في سنة (٦١٥ هـ) عن حباشة : اسم موضع جاء في الحديث النبوي وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، فقلت : أرى أنه حباشة بضم الحاء قياساً على أصل هذه اللغة لأن الحباشة الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له حباشة أي جمعت له شيئاً . فانبرى لي رجل من المحدثين وقال : إنما هو حباشة بالفتح ، وصمم على ذلك وكابر ، وجاهر بالعنـــاد من غير حجة وناظر . فأردت قطع الاحتجاج بالنقل ، إذ لا معوّل في مثل هذا على اشتقاق ولا عقل ، فاستقصيت كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئذ وكثرة وجودها في الوقوف وسهولة تناولها فلم أظفر به الا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء ، ويأس مع وجود بحث وامتراء ، فكان موافقا والحمد لله لما قلته ، ومكيلاً بالصاع الذي كلته . فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم لكتاب في هذا الشأن مضبوط ، وبالإتقان وتصحيح الالفاظ محوط . ليكون في مثل هذه الظلمة هاديا ، والى ضوء الصواب داعيا ، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الاولون ولم يهتد الغابرون .. الخ ماقال »

سوق صُحار

بلد من أعمر بلاد العرب وأغناها وأطفحها بالمتاجر، جاء في (مسالك الممالك) للإصطخري عند الكلام على عُمان : « وقصبتها صُحار ، وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب . وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً ولا تكاد تعرف على شاطىء بحر فارس بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار، وبها مدن كثيرة ، وبلغني أن حدود أعمالها (٣٠٠) فرسخ وكان الغالب عليها الشراة . »

وياقوت وصفها لنا كما شاهدها وصفاً أسهب وأدل على مكانتها التجارية الكبرى فقال :

« صحار قصبة عمان مما يلي الجبل (وتؤام : قصبتها مما يلي الساحل): مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه ، مبنية بالآجر والساج ، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها . وليس على بحر الصين (يريد فرض الجزيرة التي على بحر الهند) بلد أجل منه ، عامر آهل ، حسنٌ طيبٌ نزه، ذو يسار وتجار وفواكه ، أجلّ من زبيد وصنعاء ، وأسواق

عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر ، دورهم من الآجر والساج ، شاهقة نفيسة ، ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء . وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومعونة اليمن . والمصلّى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ . فتحها المسلمون أيام أبي بكر سنة (١٢) صلحاً . »

ونستطيع أن نفهم من هذا الوصف ـ وإن كان لعهد ياقوت ـ مدى الشأن التجاري الذي كانت تتمتع به صحار [1] في الجاهلية أيضاً . فقد كان بها تجارات واسعة تجلب الى مختلف أقطار الجزيرة العربية وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كُفن بثوبين صُحاريين .

* * *

تقيم العرب السوق العامة في صحار من عاشر رجب الى الخامس عشر منه بعد انفضاض سوق حباشة . والظاهر أنها تمتد الى ما بعد الخامس عشر من رجب ، فإن من لم يشهد الأسواق التي كانت قبلها لشغله عنها أو لأنه لا أرب له فيما يباع بما قبلها من الاسواق ، يوافيها فيجد فيها من البز المنشور وغيره من البياعات . وذكر المرزوقي [2] :

(١) في فهرس الاماكن لكتاب (صفة جزيرة العرب) : «صحار في اليمن» و «صحار في البحرين» فهما صحاران إذن . إلا أن المشهورة هي صحار اليمن وهي التي نتكلم عليها هنا . (٢) الأزمنة والامكنة ٢ : ١٦٣

« أنهم يقيمونها لعشرين يوماً من رجب . » ولا يناقض هذا ماقدمناه، لأن افتتاح السوق وانفضاضها لم يكن بساعة محتمة لاتقدم عنها ولا تأخر ، بل إن من العرب من لايكون حضر ماقبلها فيأتيها من أول رجب[1] . ومنهم من يكون في حباشة أو غيرها فيوافيها متأخراً . وتبقى البيوع قائمة حتى ينتهي اصحابها منها .

وليست صحار من الأسواق العامة ولا من المواسم مثل عكاظ حتى يحرصوا عليها ذلك الحرص ، وإنما هي سوق تجارية محضة لما حولها ولمن يقصدها ، على انها كثيرا مايأتيها التاجر البعيد .

وقيام هذه السوق في رجب يغني قاصدها عن الحماية فيقدمها الناس غالباً بلا خفارة ولاحذر إلا من المحلّين ، لأن رجب شهر حرام . فهي من هذه الجهة تمتاز من الأسواق التي تقوم في غير الشهر الحرام مثل سوق المشقر وغيرها .

يعشر الناس في هذه السوق الجلندى بن المستكبر[2] ، وذكر الأزرقي أن بيعهم فيها بإلقاء الحجارة على ماتقدم في فصل البيوع كما هو الأمر في سوق دومة الجندل .

(١) نص صاحب المحبر (ص ٢٦٥) على أن زمنها في الليالي الخمس من أول رجب .

(٢) المحبر ص ٢٦٥

سوق دبى

دَبى[1] ،سوق ذكرها المرزوقي في جملة أسواق العرب . والظاهر أنها كانت قديماً ذات شأن إذ كانت قصبة عمان ثم اضمحل مركزها وزاحتها صُحار وصارت هي قصبة هذا القطر فمن ثَمّ لم يكن لها من الشأن مثل ما لغيرها . ووصفها صاحب مراصد الاطلاع بأنها سوق من أسواق العرب بعمان وأنها مدينة عظيمة مشهورة . قال ياقوت : « دبى سوق من أسواق العرب بعمان وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها وكانت قديماً قصبة عمان . ولعل هذه السوق المذكورة كانت عندها . فتحها المسلمون أيام أبي بكر عنوة سنه ١١ للهجرة . »

* * *

جعل المرزوقي تاريخ قيام هذه السوق بين سوقي صحار والشحر . ونستطيع ان نفهم شيئاً من خطرها التجاري إذا علمنا أنها من فرض العرب المشهورة ، وأنه يكون فيها من لا يكون في غيرها من تجار

---

(١) وترسم بالألف

السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب [١] ، وتمتاز من غيرها بالبضائع الأجنبيه التي يحملها التجار من بلادهم في البحر وتنفذ منها تجارات العرب الى الخارج .

تقوم سوقها آخر يوم من رجب ويشترى بها بضائع جزيرة العرب وبضائع الاقاليم . ومن البديهي أن البيع فيها لا يكون بإلقاء الحجارة ولا بالإيماء ولا بغيرهما من البيوع الخاصة، لمكان الأجانب منها ، بل هو بالمساومة[٢] لأن السوق سوق مختلطة غير خالصة الصبغة .

ولا يباع فيها شيء حتى يبيع ملكها الجلندى بن المستكبر كل ماعنده ، وهو الذي يعشر الناس فيها كما يفعل غيره من الملوك في غيرها من الأسواق .

(١) المحبر ص ٢٦٥ (٢) المصدر السابق ص ٢٦٦

سوق الشحر

يطلق اسم الشِحْر على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب بين عدن وعمان ، والشحر مأخوذ من مشْحر الارض وهو مسبخ الارض ومنابت الحموض ، وتشتمل على بلاد وأودية وقرى ، والمراد بها هنا شحر مهرة وهي قصبتها ، وليس فيها زرع ونخيل وإنما أموالهم الإبل « وبها نُجُب من الابل تفضل في السير سائر النجب [1] » .

ونظراً لوقوعها في أقصى جنوب الجزيرة على بحر الهند ضربوا بها المثل في البعد فيقولون :

« لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر [2] » واختلاط أهلها بالنازلة من الحبشة والهند وفارس وغيرهم من التجار، مع مافي لسانهم من الفروق بينه وبين لغة الحجاز جعل أهلها غير فصحاء حتى قال الإصطخري « ألسنتهم مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها . » وأرضهم في الجملة مقفرة ، وعيش أهلها من الأنعام والتجارة والصيد .

اشتهرت منذ القديم بعنبرها الذي لا نظير له ، فكل عنبر جيد

---

(١) مسالك الممالك للأصطخري (٢) صفة جزيرة العرب للهمداني ص٢١٣

اليها ينسب ، قال الثعالبي في (ثمار القلوب) : « عنبر الشحر يضرب به المثل قال الشاعر :

. . . . ولو كنت عطراً كنت من عنبر الشحر »

واللبان الذي يحمل الى الآفاق منها يجلب .

* * *

تقوم هذه السوق في النصف من شعبان بعد انفضاض سوق «دبى» ويقصدها من كان ثمة من تجار البر والبحر ، والبضاعة الرائجة فيها البز والأدم والكندر والمر والصبر والدخن[١] .

ولا يسير إليها قاصدها إلا بخفارة لبعدها وانقطاعها فلا غنى لتجار العرب عن خفارة يتخفرون بها ، وكان يقوم أحياناً بهذه الخفارة أهل مهرة أنفسهم .

« ولم يكن بها عشور لأنها ليست بأرض مملكة وكانت التجار تتخفر ببني محارب من مهرة[٢] » وفي هذه السوق بيوع كالتي تقدمت في سوق دومة الجندل من رمي الحصاة وإلقاء الحجارة[٢] . وموضع هذه السوق ـ على ماذكر محمد بن حبيب ـ تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السلام[٢] .

(١) الكُندر : ضرب من العلك نافع لقطع البلغم ، والمر دواء معروف نافع للسعال ولسع العقارب وديدان الأمعاء ، والدُخْن : حب أصفر من حب الجاورس ، أملس جداً بارد يابس حابس للطبع (٢) المحبر ص ٢٦٦

سوق عدن أبين

قيل إن هذه التسمية نسبة الى أَبْيَن ، وعدَن بالمكان: أقام، فمن هنا قول من قال إنها اشتقت من العدْن لأن أبين، رجل من حمير أقام فيها . إلا أن صاحب تاج العروس قال : « نقل شيخنا عن حواشي الكشاف للفاضل اليمني وهو أعرف بلاده : أبين اسم قصبة بينها وبين عدن ثمانية فراسخ ، أضيفت إليها لأدنى ملابسة . »

وعدن مدينة ذات موقع جغرافي ممتاز ، على بحر الهند الى جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق . فيها مرسى للسفن الواردة الى آسية من البحر الاحمر ، وبها كانت تمر مراكب الهند ومصر والحجاز والحبشة منذ القديم للحط والإقلاع ، وهي في ذيل جبل ينتهي بسور الى البحر « رديئة الهواء لاماء بها ولا مرعى ، وشرب أهلها من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم[1] » والماء ينقل اليها على ظهور الدواب.

وأهم تجارات هذه السوق الطيب بأنواعه ، ويجلب اليها الأدم

---

(١) ياقوت .

والبرود من (معافر) وتكثر فيها اللطائم ، وبها مغاوص اللؤلؤ ، بقيت على شأنها هذا حتى الاسلام فازدهت في عهده تجارتها حتى « أصبحت فرضة اليمن ومقر كل فضل مستحسن » وإن الطيب الذي يستعمله سائر الناس كان يتخذ بها وصار لأهلها بصنعه مهارة فائقة، قال المرزوقي: « وكان طيب الخلق جميعاً بها يعبأ ، ولم يكن يحسن صنعه أحد من غير العرب ، حتى إن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول (بعدن) تفخر به في السند والهند ، وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم . وإن الناس على ذلك (الى اليوم) مايحسن اليوم حمله إلا أهل الاسلام بعدن[1] »

كان العرب إذا ارتحلوا من الشحر بعد انفضاض سوقها نزلوا عدن فأقاموا بها السوق مدة العشر الاول من رمضان ، أما تجار البحر فإنهم يستغنون عن شهودها بما شهدوا من الاسواق قبلها ، إلا من بقي من بيعه شيء لم ينفد بعد ، أو فاته حضور ماقبلها ، فإنه يشهدها مع الناس فيستدرك بها مافاته من اتجار . ثم ينفض الناس منها إلى رمضان من قابل .

وقاصد هذه السوق في غنى عن خفارة الناس لقيام حكومة

(١) الأزمنة والامكنة ٢ : ١٦٣

متظلمة فيها فإنها من مخاليف اليمن ، لذلك لا يتخفر أحد فيها وتؤدى عشور هذه السوق إلى ملكها من حمير أو من خلف حمير على ملكها . ولما صارت في حوزة الابناء من فارس حين غلبوا على اليمن كما امتد نفوذ مملكتهم على سواحل العرب الشرقية والجنوبية كلها ، جعل الناس يؤدون العشور فيها الى هؤلاء .

وذكر محمد بن حبيب أن « الابناء تعشرهم بها ولا تشتري في أسواقهم ولا تبيع »[1]

ولعل حال الاخذ والعطاء في هذه السوق أنشط وأوسع ، والتجارة فيها حرة أكثر ، لأن من قام على أمور عدن من حمير أو من الفرس لم يكونوا يتاجرون لأنفسهم فيها كما يفعل أكيدر في دومة أو الجلندى في صُحار فينحجز الناس عن عرض بضائعهم حتى يبيع الملك كل ماعنده من متاع ، فكانت التجارة تحظى في هذه السوق بشيء من الانطلاق لكف ملوكها عن مزاحمة الرعية على هذا المورد من الكسب .

(١) المحبر ص ٢٦٦

سوق صنعاء

صنعاء أطيب بلاد اليمن ، بل جنة جزيرة العرب كلها ، هي مضرب الأمثال في طيب الهواء واعتداله وحسن العيش، قال ياقوت : « صنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها تشبّه بدمشق لكثرة فواكهها وتدفق مياهها ، وليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء . وهي من الاعتدال في الهواء بحيث لايتحول الانسان من مكان طول عمره صيفاً ولاشتاء ، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف ،وغاية ساعات النهار بها اثنتا عشرة ساعة وإحدى وخمسون دقيقة [1] . طيبة الهواء كثيرة الماء . قدم يزيد بن الصعق صنعاء ورأى أهلها وما فيها من العجائب ، فلما انصرف قيل له : كيف رأيت صنعاء ؟ فقال :

ومن ير صنعاءَ الجنودِ وأهلَها ... وجنودَ حِمْيَر قاطنين ، وحميرا
يعلمْ بأن العيش قسم بينهم ... جلبوا الصفاء فأنهلوا ، ما كدّرا
ويرى مقامات عليها بهجة ... يأْرَجن هندياً ومسكاً أذفرا . »

وليس من الغريب أن نسمع يمنياً كالهمداني يشيد بذكرها فيقول:

(١) الإكليل ٨ : ١٢

« هي إحدى جنان الارض عند كافة الناس [1] ، فقد حيرت بحسنها وكثرة اشجارها ومياهها ومروجها وأنهارها وطيب أوديتها غيره فدهش أول مارآها وملكه الاعجاب [2] : « قال احمد بن موسى وهو من الشعراء المتأخرين حين رفع الى صنعاء وصار الى نقيل السود (على مقربة منها) :

إذا طلعنا (نقيل السود) لاح لنا   من أفق صنعاء مصطاف ومرتبع

ياحبــذا أنت ياصنعاء من بلد   وحبذا واديك الظهر والضلع [3] »

بقيت صنعاء [4] دار سلطنة وإمارة حتى يومنا هذا . وقد كان بها مقر ملوك اليمن قديماً وفيها قصر غمدان وهو بناء شاهق على تل عظيم اتخذه أقيال اليمن وليس في اليمن جميعه بناء أرفع منه .

---

(١) الإكليل ٨ : ١٢

(٢) ومن الطريف أن يذكر ياقوت أيضاً أن صنعاء اسم لقرية على باب دمشق دون المزة مقابل مسجد خاتون ، خربت وهي اليوم مزرعة وبساتين . وفي هـذا دلالة على أن العرب مولعون بذكر ديارهم وأوطانهم أينما حلوا ، هم على الوفاء لعهدها تحت كل سماء ، وإطلاقهم صنعاء على هذه القرية الخربة لعهد ياقوت ، كإطلاقهم في بلاد الاندلس وجناتها أسماء حمص ودمشق ... .

(٣) تاج العروس

(٤) نعتها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) نعتاً جليلاً حوى معارف قيمة جداً عن هذه البلدة العظيمة ، وانظر على سبيل المثال ماذكره عن ضروب=

« ويكون سوق صنعاء في واديها ، قيل هو وادي عليب ، وقيل هو أصل جبل نُقُم مما يلي قبليّه ، وقيل غدير الحقل[1] . »

كان العرب اذا ارتحلوا من الشحر وعدن أقاموا سوق صنعاء فاستمرّت من نصف شهر رمضان حتى آخره . يأتونها « بالقطن

-فواكهها فإنها في هذا فاقت دمشق نفسها قال ص ١٩٦ :

« جميع الثمار بها من العنب المُلاحي والدوالي والاشهب والدُربج والنواسي والزيادي والاطراف والعيون والقوارير والجُرشي والنشاني والتابكي والرازقي والضروع . ويؤتى اليها من خيوان بالرومي ، ومن الجوف بالوادي . وبها الرمان الحلو والحامض والممزوج والمليس والسفرجل ، وليس يلحق به سفرجل البلاد لأن فيه شيئاً من الحموضة والقبض ، والإجّاص والمشمش والتفاح الحلو والتفاح الحامض والممزوج . والخوخ الحميري والخوخ الفارسي والخوخ الهندي والجوز الفرك واللوز الفرك ، والحلو منه والمر والكمثرى وقد وُفِد إلى صنعاء قِدمة . وبها الورد والباقلاء الأخضر ولا يتركونه يبلغ ؛ وجميع أصناف البقول وجميع الحبوب ... » وكثير أن يكون ببلدة واحدة أربعة عشر صنفاً من العنب وحده . وقد أفاض الهمداني بعد هذا بتفصيل مستفيض عن طعامها وألوانه وعن خبزها بما هو غاية في الطرافة والخطر فليرجع اليه ثمة . ولو أن كل قطر عربي حظي بباحث كالهمداني لما كنا اليوم في معارفنا عن بلادنا في ظمأ وغلة لا نجد لها أدنى ري .

(١) تاج العروس . وكان بدل (جبل نقم) في الطبعة الاولى من كتابنا (جبل نعيم) فكتب الينا الاستاذ (كرنكو) أن الصواب : جبل نقم بضم النون والقاف وهو الجبل المطل على صنعاء واسمه كذلك الى يومنا هذا . اه

الزعفران والأصباغ وأشباهها مما ينفق بها ويشترون فيها مايريدون من البز والحرير [١] ، وكان أروج تجاراتها الغالية والأدم والبرود وكان هذان الصنفان الأخيران يجلبان إليها أيضاً من معافر إحدى قرى اليمن فتباع فيها وتصدر الى الاقطار وكذلك يجلب منها من الخرز شيء كثير .

كان يعهم فيها الجس جس اليد [٢] ، وكان يعشر الناس فيها الأبناء [٣] بعد أن كان يعشرهم أمراؤهم من حمير .

* * *

(١) ، (٢) الأزمنة والامكنة ٢ : ١٦٤ والمحبر ص ٢٦٦

(٣) اليعقوبي ، والمحبر ص ٢٦٦

سوق حضرموت

حضرموت إقليم واسع يشتمل على بلاد وقرى ومياه وجبال وأودية باليمن ، يكون الى جنوبه الشحر ، والى شرقه عمان والى غربه صنعاء . قريب من البحر وفيه رمال واسعة كثيرة تعرف بالأحقاف ، وهذا الصقع كثير الجبال والأودية وهو في جملته قاحل ، والبلد نفسها صغيرة ضئيلة الشأن ، راسل أهلها رسول الله ﷺ فدخلوا في طاعته صلحاً ، وقدم عليه الأشعث بن قيس في بضعة عشر راكباً مسلماً في وفد فأكرمه الرسول[1]

وأغلب قوت أهلها التمر ، لأن بها نخلاً كثيراً ، وقد كشفت الحفريات الآن في هذا القطر عن مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند ، مما يدل ان لسكانه في القديم شأناً يذكر .

---

(١) ياقوت ، وقد اهتم بعض القدامى من المؤلفين بما حظيت به من كثرة الاولياء ، ورأوا في تسجيل ذلك عوضاً مما فاتها من خصب وسعة فقال القزويني في عجائب المخلوقات : « نقل شيخنا عن تفسير أبي الحسن البكري في قوله تعالى: (وإنْ منكم إلا وارِدُها) : يستثنى من ذلك أهل حضرموت لأنهم أهل ضنك وشدة ، وهي تنبت الاولياء كما تنبت البقل وأهلها أهل رياضة .

يتخذ بها نعال جيدة ذات شهرة وتنسب إليها فيقـــال : نعل حضرمية وهي الملسّنة من النعال .

* * *

تقوم السوق في رابية بحضرموت فتعرف أيضاً بسوق الرابية ، من منتصف ذي القعدة حتى آخره ، وربما قامت هي وعكاظ في يوم واحد ، فكان بعض الناس يأخذ الى عكاظ وبعضهم يتوجه الى رابية حضرموت ، وهذه السوق خاصة بمن حولها ، ولكن كثيراً مايأتيها الناس من بعيد ، ولقريش قوافل الى هذه السوق ترسلها في تجاراتها ، وكثير من العرب يجوزها الى غيرها ولا يحضرها ، ونظراً لانقطاعها عما حولها لم يستغن قاصدها عن دليل وخفير قال المرزوقي :

« أما الرابية فلم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عزّ فيها بزّ صاحبه ، فكانت قريش تتخفر بني آكل المرار من كندة ، وسائر الناس (يتخفرون) بآل مسروق ابن وائل الحضرمي ، فكانت مكرمة لأهل البيتين ، وفضل أحدهما على الآخر كفضل قريش على سائر الناس [1] »

فيستفيد هذان الحيان من الخفارة والدلالة معاً ربحاً مادياً إذ كان كسبهم من أولئك التجار الذين يمشون بين أيديهم بسلاحهم يحرسون بضائعهم ويحمون حياتهم ويدلونهم على الطريق .

---

(١) الأزمنة والأمكنة ٢/١٦٥ . والمحبر ص ٢٦٧

سوق عكاظ

عكاظ [1] هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية ، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر : فهي مجمع أدبي لغوي رسمي ، له محكّمون تضرب عليهم القباب ، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، فما استجادوه فهو الجيّد ، وما يهرجوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر . يحمل الى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليمني والعماني ، كل ألفاظ حيّه ولغة قطره ، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلاً واصطفاءً حتى يتبقّى الأنسب الأرشق ويطرح المجفوّ الثقيل .

وهي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة ، يحمل إليها

(١) ورد في (عكاظ) الصرف وعدمه . وقد جرينا على منعه لأنا رأينا ع هو الاكثر فيها والاشهر .

من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه ، فإليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصرى ، والسمن من البوادي ، ويرد إليها من اليمن البرود الموشّاة والأدم ، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح .

ويباع فيها الحرير والوكاء والحذاء والمسيّر والعدني ، يحملها إليها التجار من معادنها ، وفيها من زيوت الشام وزبيبها وسلاحها مااعتادت قريش ان تحمله في قفولها الى مكة . ويعرض فيها كثير من الرقيق الذي ينشأ عن الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري[1] .

ويبيع فيها كل غاز سلبه وكثيراً مايكون هذا البيع سبباً في قتل صاحبه إذا أبصر السلاح أحد من ذوي المقتول فعرفه ، فإنه يضمرها في نفسه وينتظر ان يظفر بالرجل ليثأر منه .

---

(١) من ذلك أم عمرو بن العاص ، فقد كانت سبية بيعت في عكاظ ، عرفنا أمرها في خبر طريف يقصه ابن عبد ربه ؛ « خاطر رجل الى أن يقوم الى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول : : (أيها الأمير ، من أمك ؟ » ففعل ؛ فقال له : « النابغة بنت عبد الله : أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه ! » ـ العقد الفريد ١/٦٣ (سنة ١٩٤٠)

وقد كانت تجارة فارس يصل منها أشياء الى عكاظ : فإن النعمان ابن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة (وهي في الأصل العير المحملة مسكاً) في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ويحميها من كل معتـــدٍ حتى تصل سالمة الى عكاظ فتباع هناك ويشرى بثمنها مايحتاج إليه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع في عكاظ : من حرير وعصب مسيّر ، ويبعث فيها حلة ذي يزن فاشتراها حكيم بن حزام ليهديها رسول الله[1] ، بل إن عكاظ نفسها مشهورة بما يعرض فيها من جلود حتى قالوا : « أديم عكاظي » نسبة إليها .

حتى البضائع المجهولة الأصل المعروضة في عكاظ تجد من شرائع القوم وأعرافهم التي التزموها مايجعلها كاسدة لا يرغب فيها أحد ، فهذا بعض لصوص العرب « قرّب إبلاً للبيع في سوق عكاظ وكان أغار عليها من كل وجه ، فلما عرضها قيل له : « ماثارك ؟ » (أي ماسمة إبلك ؟ وكانوا يعرفون علامة كل قوم التي يسمون إبلهم بها ويعرفون كرمها من لؤمها)، فلما كثر ذلك عليه أنشأ يقول :

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ٤١٤ ، ٤١٥

يسألني الباعة أين نارها إذ زعزعتها فسمت أبصارها
كل نجار إبلٍ نجارها وكل نار العالمين نارها [1]

وهي معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية : فهاهنا (قس بن ساعدة) يخطب الناس ، يذكر الخالق ويعظهم بمن كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير [2] . وهناك خالد بن أرطاة الكلبي تتبعه قبيلته وقد جاء لينافر جرير بن عبد الله البجلي ومع هذا حيّه أيضاً وقد ساق كل منهما مالاً عظيماً ينافر عليه ، وعرضا الحكومة على رجالات قريش فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيّين ، فالرجلان في عكاظ ينتظران الأقرع بن حابس ليقوم بهذه الحكومة وقد ساقا الرُهُن فوضعوها عند عتبة بن ربيعة [3] دون جميع من شهد على ذلك المشهد ، وهاهنا عمر بن الخطاب في الجاهلية يصارع [4] ، وثمة كاهن

(١) ويروى البيتان هكذا :
يسألني الباعة مانجارها إن زعزعوها فسمت أبصارها
فكل دار لأناس دارها وكل نار العالمين نارها ـ بلوغ الأرب ١٦٣/٢

(٢) زعم أحد الكتاب أنه كان بعكاظ (أسقفية) النصارى ـ انظر مجلة المشرق (السنة ٣٥) ص ٨٤

(٣) انظر تفصيل ذلك في رسائل الجاحظ ص ١٠٢ (جمع السندوبي) ، وبلوغ الأرب ٣٠١/١ ـ ٣٠٥ وغيرها .

(٤) طبقات ابن سعد ٢٣٥/١

وعراف وعائف وقائف ، وقرد ، وغنم ، وصحيفة وكاتب .

وهناك أناس من غواة الشهرة : هـذا يمد رجله وينشد شعراً ويقول : « من كان أعز العرب فليقطـع رجلي » وآخر يأتي عكاظ ببناته ترويجاً لزواجهن ، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوجون اليه .. قال المرزوقي :

« كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب : كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيّد ، والحلة الحسنة ، والمركوب الفاره ، فيقف بها وينادي عليه : « ليأخذه أعز العرب » يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته . »

وكان كسرى يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطـع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه : « إن هذا بعثه الملك الى سيد العرب » فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسودد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية ، وكان كسري يريد بذلك معرفة ساداتهم ليعتمد عليهـم في أمور العرب فيكونوا عوناً له على إعزاز ملكه وحمايته من العرب .. »[١]

(١) مثير العزم الساكن في فضائل البقاع والاماكن لابن الجوزي ، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية (أدب ٤٦) الكراس الخامس عشر .

وهي أيضاً ندوة سياسية عامة ، تقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل : فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاؤوه بها ، ومن اراد تخليد نصر لحيه فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل الى عكاظ وخلده فيها شعراً ، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتى يسمع عامة الناس ، ومن أراد اعلان حرب على قوم أعلنه في عكاظ ، حتى (جمعية الأمم) او (هيئة الامم المتحدة) وماقامتا به من مجهود (رسمي) في سبيل السلم الخاص ، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر (لافي الحقيقة ، لأن عكاظ لم تكن ترائي فتستغل الدعاية الشريفة لتسيغ للقوي أكل الضعيف) ، فقد روى الأصفهاني أنه : « اجتمع ناس من العرب بعكاظ منهم قرة بن هبيرة القشيري والمخبّل وهو في جوار قرة ، في سنين تتابعت على الناس فتواعدوا وتوافقوا ألا يتغاوروا حتى يخصب الناس ! » [1] ولايخفى علينا أنه كانت تكون في عكاظ « وقائع مرة بعد مرة » [2] .

وكانت هذه السوق تقوم من العرب يومئذ مقام الجريدة الرسمية في أيامنا هذه وقد تقدم آنفاً شيء من ذلك في أمر الجوار وأخبار

(١) الاغاني ١٤ / ٣٧

(٢) بلوغ الارب ١/٣٦٨

الحروب . فمن اتى عملا شائنا تاباه مروءة العربي شهروا امره بعكاظ ونصبوا له راية غدر [1] فعرفوه فلعنوه واجتنبوه ، ومن أراد أن يستلحق امرأ بنسبه استلحقه وأعلن ذلك للناس في عكاظ ، ومن اراد التبرؤ من قريب لسبب ما ، تبرأ منه علناً ، فإذا أتى بعد ذلك جريمة أو خيانة كان المتبرىء ـ في عرف العرب يومئذ ـ في حل مما أتى قريبه : ذكروا « أن قيس ابن الحدادية من شعراء الجاهلية ، كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً خليعاً ، وقد جر على قومه خزاعة عنتاً وإرهاقاً كبيراً ، فخلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه [2] . »

وإذا أطلق لقب على أحد في عكاظ عرف صاحبه به ، وجرى له مجرى اسمه واسم أبيه : قاتل أبو ربيعة بن المغيرة من قريش يوم

---

(١) لم يقتصر هذا على عكاظ ، بل نجد نحواً منه في عامة المواسم ولاسيما مواسم الحج ، فاذا غدر الرجل بجاره أوقدوا النار بمنى ايام الحج على أحد الأخشبين ثم صاحوا : هذه غدرة فلان ليحذره الناس » ـ بلوغ الارب ١٦٢/٢ وهدد زهير بن ابي سلمى بني عبد الله بن غطفان ان لم ينصفوا بقوله :

وتوقدْ ناركم شرراً ويرفعْ لكمْ في كل مجمعة لواء

العقد الثمين ص ٣١

(٢) الاغاني ٢٠/١٢ .

شَرْب (وهو من أيام عكاظ) برحين فسمي ذا الرحين وبه يعرف ، وثبت في هذه الحروب من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الستة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو فسموا (العنابس) والعنبس الأسد [1] . وأمثال ذلك .

وغني عن البيان أيضاً مايدخره الصغار الذين يصطحبهم أهلوهم الى عكاظ من ذكريات عن تلك السوق لا تنسى ، هذه خولة بنت ثعلبة [2] تستوقف عمر بن الخطاب في خلافته فيقف لها فتقول : « إيهاً ياعمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تزع الصبيان بعصاك ، فلم تذهب الايام حتى سميت عمر ، ولم تذهب الأيام حتى سميت امير المؤمنين ! » [3]

وخير مايعطينا صورة واضحة عن عكاظ أن نعرض لأهم الأحداث التي جرت فيها ، فنتمثل بوساطتها أحوال العرب في هذه السوق الكبرى ، في بيعهم وشرائهم وتخاصمهم وتفاخرهم وحربهم

(١) القاموس مادة (عنبس)

(٢) التي سمع الله كلامها من فوق سبع سموات وأنزل فيها « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ..» انظر خبرها في كتابي (الاسلام والمرأة) ص ٣٩

(٣) اجتماع الجيوش الاسلامية لابن قيم الجوزية ص ٦٨

وسلمهم ، فإن في ذلك تفصيل ما أجملت [1] .

وأشد مايثير الاستغراب ، هذا الشبه الكبير بين عكاظ ومعارض هذا العصر ، بل إن عكاظ لأوسع مدى فيما يعرض فإنه لايقتصر على مواد التجارة والصناعة بل يتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات . . . فإذا أنا أفضت في وصف عكاظ وما فيها ، فإن ذلك إفاضة في وصف سائر أسواق العرب أيضاً ، فليس فيهن سوق تساميها . وما جرى في عكاظ جرى قريب منه في بقية الاسواق مع مراعاة صغر هذه واقتصارها أحياناً على أهل ناحية واحدة ، فليكن تاريخ عكاظ إذاً تاريخاً لكل أسواق العرب ، وتاريخاً لكثير من عاداتهم الاجتماعية أيضاً .

* * *

(١) هذه الاخبار مبثوثة في بطون الاسفار وقد لقيت في جمعها وتبويبها من المصابرة والعناء نصيباً غير يسير ، فانه ليس لدينا تفصيل جلي عن عكاظ مجموع في موطن واحد ، وأوسع فصل عنها هو ماذكره الألوسي رحمه الله في بلوغ الأرب ، ويكاد يقتصر هذا الفصل على ذكر حروب عكاظ ونتف تتعلق بالمفاخرة وهو شيء لا ينقع غلة ولايكاد يرسم الخطوط الاولى لصورة . ونحن نعلم أن الكلمة والكلمتين والثلاث ، والسطر والسطرين .. مما يكون عرضاً في خبر من الاخبار ، قد يكون له من البلاء الحسن في الكشف عن الحقائق والدلالة على العادات ، مالا يكون الفصل المطول تقرؤه في موضوع واحد .

عكاظ نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . هذا زبدة ما يستخلص من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ [1] تقوم السوق في مكان منه يعرف بالأثيداء فيه مياه ونخل ، وهو مستوٍ لا علم فيه ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية ، وبها من دماء

---

(١) من حسن الحظ أن ذهب فتحرى موضعها بنفسه باحث عربي موصفه لنا . وهو السيد خير الدين الزركلي الشاعر في كتابه (مارأيت وما سمعت) ص ٧٩ قال : « على مرحلتين من مكة للذاهب الى الطائف في طريق السيل ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين ، فيسير نحو نصف الساعة فاذا هو امام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها (القانس - بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ ... وهذه الباحة هي مجتمع الطرق الى اليمن والعراق ومكة ، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن ... والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين احدهما يسمى الدمة (بكسر ففتح) والآخر البيتة (بصيغة التصغير) وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل الى الطريق التي يمر بها سالكو دروب السيل .. وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون : ان عكاظاً كان في مكان يعرف اليوم باسم (القهاوي) في وادي لية من الطائف . غير أن الشيوع يؤيد ماقلناه آنفاً من أنه هو (القانس) نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار » .

هذا وقد نشر الدكتور محمد حسين هيكل كتابه « في منزل الوحي» بعد صدور الطبعة الاولى من كتابنا هذا بنحو سنة ، فإذا فيه بحث عن عكاظ وقد رجح المؤلف أن موضعها جنوب الطائف مستنداً الى قول (ابن رستة)=

البدن كالأرحاء العظام [1] . كانوا يطوفون حول صخور فيها ، وربما

= في الاعــلاق النفيسة والى أن (مولر) رسم خريطة الادريسي الغامضة وحــل ألغازهــا فكانت عــكاظ جنوب شرقي الطــائف أمــا قول ابن رستة فليس فيه تصريح بذلك وأما حل مولر الغاز خريطة الادريسي فلن يقف بحال لمــا تضافر عليه باحثو العرب قدماؤهم ومحدثوهم ، وخريطة الادريسي نفسها حافلة بالاغلاط ، ثم ينقل عن المستوفلبي رأيه في أن عكاظ في مكان السيل الصغير ص (٣٨٠) وقد مضى المؤلف بالسيارة الى حيث قيل له ورجح أن السوق كانت في موضع السيل الكبير ص ٣٨١ .

وخلو مصادر الدكتور هيكل من (أسواق العرب) دليل على أن هديتنا اليه لم تصله وقد ارسلناها اليه بعنوان (مجلة السياسية الاسبوعية) قبل صدور كتابه (في منزل الوحي) بعشرة اشهر . وكان الظن بمثله أن يطلع على الكتاب وقد كتب عنه في المجلات العلمية قبل طبع بحثه المذكور .

وفي شهر رمضان ١٣٧٠ هـ (تموز ١٩٥١ م) اي بعــد صدور الطبعة الاولى من (اسواق العرب) بـ١٤ سنة نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ص ٣٧٧ / ٢٦) محاولة السيد حمد الجاسر في تحديد السوق فإذا به يجعلهــا شرقي الطائف اي لا على طريق القاصد من مكة الى الطائف (في نحو ثلثي الطريق) على مافي تعاريف القدماء . ومع مابذل من جهد فان النفس لا تطمئن الى مذهبه مع اعترافه بأن اغلب الاعلام التي كانت حول عكاظ لا تعرف اليوم. ومع هذا فقد يوفق باحث في المستقبل الى الصواب المقنع .

ولما زرت الطائف بعد أيام الحج سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) حرصت أن أرجع بما يشفي النفس وتفرجت على المسيل الذي وصفوه ، وسألت العارفين وخرجت بصحبة وجيه الطائف السيد محمد صالح نصيف وعرفت منه ان الذي=

(١) معجم مااستعجم البكري ٦٦٠ ومراصد الاطلاع وياقوت .

كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون اليهـــا .
وبالأثيداء كانت أيام الفجار .

والظاهر أن مايطلق عليه (عكاظ) من الأرض متسع فسيح فيه حرار وفيه أرضون مسقية ذات نخيل. وقد مر في حروب الفجار أن (شرباً) من عكاظ، وأن (العبلاء) إلى جنب عكاظ، وأن (شمطة) موضع في عكاظ وأن (الحُوَيرة) حرة الى جانب عكاظ مما يلي مهب جنوبها ، وعرفت أن بني نصر صبروا مع ثقيف لأن عكاظ بلدهم وذلك الذي أحماهم.

ولا شك أن أرضاً اتسعت بعض أجزائها لمعارك عدة أرض فسيحة واسعة ، وبذلك نفهم كيف كانت السوق تتنقل في عكاظ فلا تلازم بقعـــة واحدة لاتحيد عنها يميناً ولا شمالاً على مدي السنين المتطاولة .

وهي وما جاورها ديار قيس عيلان وهوازن منهم خاصة .

وقد عرفت من حرب الفجار ص ١٧٠ أن قريشاً بادرت من

= استقر عليه رأي الباحث المرحوم السيد رشدي ملحس وابن بليهد وسمو الامير فيصل في عكاظ : انها متنقلة على ارض تمتد من جنوبي العشيرة الى المسيل الصغير و (الخاوية) .
وأظن جهداً يبذله الافاضل العارفون من اهل تلك النـاحية موصل الى الكشف عن موضع عكاظ بما يزيل كل ريب ان شاء الله .

عكاظ مسرعة إلى الحرم خوفاً من هذه القبائل بعد قتل البراض ، إذ كانت عكاظ في ديارهم ، وهم بها أكثر مايكونون منعة وعددا .

أما اشتقاق عكاظ ولم سميت بهذا الاسم ، فقد ذهب اللغويون فيه مذاهب ، وقلبوا الكلمة على معانيها المختلفة : فالقهر والحبس وردّ الفخر والتجادل والتحاجّ . . . كل هذه معان للعكظ وكلها صالحة لأن يعلل بها التسمية فيقول قوم : سميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة أي يقهره ويعركه ، وقال آخرون إنهامن تعكّظ القوم إذا تحبسوا لينظروا في أمورهم ، وذهب غيرهم إلى أنها من التعاكظ بمعنى التفاخر .

تقوم هذه السوق في ذي القعدة ، وللعلماء بعدُ خلاف في تعيين أيامها من هذا الشهر ، فالمرزوقي يجعلها تبدأ من نصفه حتى آخره ، وآخرون يجعلون وقتها في شوال [1] إلا أن الأكثرين على أنها تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه ، إذ تبدأ سوق مجنة فيرتحل إليها الناس وهي أقرب من مكة ، فإذا أهلّ ذو الحجة انقشع الناس من مجنة الى ذي المجاز قرب عرفة وبقوا فيها حتى يوم التروية فيبدأ الحج .

(١) ذكره صاحب مراصد الاطلاع وياقوت في إحدى روايتيه .

ويمكن جمع الأقوال المتقدمة بأن عكاظ قد تحفل بالناس في شوال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة : الزمن الرسمي للسوق . وحين تذهب جماعاتهم الى مجنة في العشرين من ذي القعدة يتخلف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشراءه فلا يتم خلوّ السوق تماماً إلا في غرة ذى الحجة عند اقتراب الحج[1] .

والسوق لقيس بن عيلان وثقيف وهي بعكد هوازن ، وأرضها لنصر ، حتى لقد منعت هوازن قريشاً مرة من حضور عكاظ ، فقد روى الهمداني أنه لما طرد عبد الله بن جدعان القرشي مئة ناقة لكلاب ابن ربيعة من هوازن ، أرسل هذا الى قريش : « إن سفيهكم أغار عليّ فطردنا[2] مئة ناقة ، فليس لكم أن تشهدوا عكاظ ، ولي عليكم ترة ، وكان عكاظ في وسط أرض قيس عيلان[3] » ونوت قريش قتل ابن جدعان لعدم استغنائها عن حضور السوق .

(١) هناك من نقل : أن لعكاظ غير تلك السوق السنوية التي تجتمع بها القبائل ، لها ايضاً سوق اسبوعية تقوم كل يوم أحد للبيع والشراء . انظر (مدنية العرب في الجاهلية والاسلام) لرشدي ص ٥٩

(٢) كدا ولعلها (طرد لي)

(٣) الاكليل ، ج ٨ ص ١٨٤

ينزل السوق « قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب[1] » يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة. فهي عامة حتى إنه ليس فيها مكّاس ولا عشّار لأنه لم تكن في ملك أحد من الأمراء. وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء، ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة هذه. أما الفصل بين الناس فيها فزعم المرزوقي « أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان في بني تميم يكون ذلك في أفخاذهم: الموسم على حدة، وعكاظ على حدة، وكان من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظارب العدواني وسعد بن زيد مناة من تميم، وقد فخر المخبّل بذلك في شعره فقال:

ليالي سعدٌ في عكاظ يسوقها   له كل شرق من عكاظ ومغرب

ثم وليه (فلان وفلان ..) حتى جاء الإسلام فكان يقضي بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وكان أبوه قاضيها في الجاهلية، فمات فصار ذلك ميراثاً لهم، وكان آخر من قضى منهم ووصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس. »

وكان الناس ينزلونها منحازين على مداعيهم وراياتهم في المنازل،

---

(١) الازرقي ١٣١

تضبط أمور كل قبيلة أشرافها وقادتها . ويختلط بعض الناس في بعض إذا هبطوا بطن السوق للبيع والشراء .

تقيم العرب هؤلاء الأيام في عكاظ يتهيؤون للحج ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتقارعون ويتنافرون ويتعاظمون [١] . ولم يكن مجمع للعرب أحفل من عكاظ ، فكانوا يضربون بكثرة أهلها المثل،وبقيت لها هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقدجاء في الأمالي : أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب لما سئل عن قتله علياً قال : « ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم [٢] » .

وكما كان يقوم بأمر الحكومة عامة فيها بنو تميم [٣] . كانت الحكومة في الشعر للنابغة الذبياني .

لا عاشر لهذهالسوق ، وأما بيعهم فيها فهو السرار وجس اليد [٤] .

---

(١) المفاخرة ان يتحاكم اثنان في : أيها آباؤه أكثر مفاخرة . والمنافرة ان يتحاكما في : أيها أعز نفراً من صاحبه . والمعاظمة ان يتحاكما في :أيها أعظم مصيبة . والمقارعة شبيهة بالمنافرة . هذا وقد يكتفي المتنافران بالحكم مجرداً وقد يجعلان بينهما جعلًا للذي حكم له بالغلبة ؛ إبلًا أو جارية أو مالا . . .

(٢) ج ٢ ص ٢٥٦

(٣) انظر كتاب (المحبر) ص١٨٢

(٤) انظر فصل (بيوع الجاهلية)منهذا الكتاب ص ٤٦

وإليك الآن مثُلاً مما كان يجري في عكاظ سياسة ومنافرة وفداء أسرى ، وأدباً وحرباً ومتاجرة :

١ - منافرة

اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر . فقالت أم كلاب امرأة أمية :

« من هذان الرجلان ؟ » فقال : « هذا يزيد بن عبد المدان، وهذا عامر بن الطفيل . » فقالت : « أعرف بني الديان ، ولا أعرف عامراً . » فقال : « هل سمعت بملاعب الأسنة ؟ » فقالت : « نعم » قال : « فهذا ابن أخيه » وأقبل يزيد يفاخر خصمه فقال :

- « ياأمية إن ابن الديان صاحب الكتيبة ورئيس مذحج ومكلّم العُقاب ، ومن كان يصوّب أصابعه فتنطف دماً ويدلك راحتيه فتخرجان ذهباً . »

فقال أمية : - « بخٍ بخٍ ! مرعى ولا كالسعدان »[1]

(١) في مجمع الأمثال للميداني « السَّعْدان أخثر العشب لبناً ، واذا خثر لبن الراعية كان أفضل مايكون وأطيب وأدسم . ومنابت السعدان . السهول وهو من نجع المراعي في المال، ولا يحسن على نبت كما يحسن عليه » ثم ذكر رويتين في أول من أرسل هذا المثل : الاولى أنه الخنساء الشاعرة، والثانية - رواه عن المفضل - : أن قائله امرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس . وارجع الى القصة هناك .

(فأرسلها مثلاً) :

فقال يزيد : ـ ياعمر ! هل تعلم شاعراً من قومي سار بمدحة إلى رجل من قومك ؟

قال : اللهم لا .

قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فهل لكم نجمٌ يمانٍ أو برد يمان أو سيف يمان أو ركن يمان .

قال : لا

قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟

قال : نعم

فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت

أميّ يابن الأسكربن مُدلج   لاتجعلنْ هوازناً كمذحج
إنك إن تلهج بأمر تلجج   ما النبع في مغرسه كالعوسج
ولا الصريح المحض كالممزج

فزوج أمية يزيد بن عبد المدان ابنته . ثم لج التهاجي بين الرجلين.

٢ - في سبيل بغي

وافى معاوية بن عمرو بن الشريد ، عكاظ في موسم من مواسم العرب ، فبينا هو يمشي بسوق عكاظ إذ لقي أسماء المُرّية ، وكانت جميلة ، وزعم أنها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت : « أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟ »

فأحفظته فقال : « أما والله لأقارعنَّه عنك . » قالت : « شأنك وشأنه . »

فرجعت الى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له فقال هاشم :

« لعمري لانريم أبياتنا حتى ننظر مايكون من جهده . »

ثم مضى عام وأصاب قوم هاشم غرة من معاوية فقتل في خبر طويل ، وكان بين الحيين يوم حوزة الأول ويوم حوزة الثاني ويوم ذات الأثل ويوم ملحان وهي من أيام العرب المشهورة الطافحة أدباً وشعراً ورجزاً . ولها الفضل في إتحاف اللغة العربية بأكثر قصائد الخنساء لأنها أخت معاوية هذا وأخيه صخر ، فلهذه الأيام قالت الخنساء أبلغ الرثاء في الشعر العربي .

٣ـ خطة غدر

لقي زُرْعة بن عمرو بن خويلد النابغة بعكاظ ، فأشار عليه أن يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم ، فأبى النابغة الغدر ، فبلغه أن زرعة يتوعّده فقال من قصيدة :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدي إليّ غرائب الاشعار
فحلفت يازرعَ بن عمرو إنني ... رجل يشق على العدو ضراري
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني ... تحت العجاج فما شققت غباري
أنا اقتسمنا خُطتينا بيننا ... فحملتُ بَرّةَ واحتملتَ فَجارِ[1]
فلتأتينْك قصائد وليدفعنْ ... جيشاً إليك قوادم الأكوار[2]
رهط ابن كوز محقبي أدراعهم ... فيهم ورهط ربيعة بن حذار . و . .
وبنو جذيمة حي صدق سادة ... غلبوا على خبْت إلى تعشار
متكنفي جنبيْ عكاظ كليهما ... يدعو بها ولدانهم عَرْعارِ[3] . الخ

وهكذا لم يخنع للتهديد قاضي الشعراء في عكاظ ، بل التزم

(١) برة اسم مرّف البر . وفجارِ : اسم الفجور .
(٢) الكور : رحل الناقة . والقادمة مقدمته .
(٣) عرعار : لعبة لصبيان الاعراب ، كانوا يتداعون بها ليجتمعوا للعب . يعني انهم آمنوا وصبيانهم يلعبون في عكاظ .

الوفاء وشهّر هذا الذي يريد أن يحمله على الغدر تشهيراً يدرك عارَه كل من في عكاظ .

٤ - معاظمة في المصائب

أيام حوزة والأثل وملحان ، ذهبت بوالد الخنساء عمرو بن الشريد وبأخويها صخر ومعاوية ، فطفقت الخنساء تبكي قتلاها ولا تزداد على الأيام إلا إعظاماً لمصيبتها فقرّحت أجفان الناس بما بكت على هؤلاء وخاصة أخاها صخرا .

انحدرت هذه الشاعرة العظيمة إلى عكاظ تسجل فيها رسمياً أنها أعظم العرب مصيبة ، فليس أحد أصيب بما أصيبت ، فكانت تنزل كل عام على هودج سوّمته لتلفت إليها الأنظار ، وجرت على هذه العادة أعواماً .

ثم كانت وقعة بدر ، التي انتصف فيها الاسلام من مناوئيه وقتل فيها من أعدائه صناديد قريش : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة .« فأقبلت هند بنت عتبة ترثيهم . وبلغها تسويم الخنساء هودجها في الموسم ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وأنها جعلت تشهد الموسم وتبكيهم وقد

سوّمت هودجها براية وأنها تقول : « أنا أعظم العرب مصيبة » وأن العرب قدعرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت هند بما أصيبت به وبلغها ذلك قالت : « أنا أعظم من الخنساء مصيبة . » وأمرت بهودج فسوّم براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها بقولها :

مَن حسّ لي الأخوين كالـ غصنين أو من راهما
قَرْمان[1] لا يتظالما ن ولا يرام حماهما
ويلي على أبوي والـ قبر الذي واراهما
لامثل كهلي في الكهو ل ولافتي كفتاهما . . . الخ

وقالت : « اقرنوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا ، فلما أن دنت منها قالت لها الخنساء : « من أنت ياأخيَّة ؟ » قالت : « أنا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغني أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم ؟ »

فقالت الخنساء : « بعمرو بن الشريدوصخر ومعاوية ابني عمرو ، وبمَ تعاظمينهم أنت ؟ »

قالت : « بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد ابن عتبة . »

(١) القَرْم : الفحل ، السيد .

قالت الخنساء «أوَ سواءٌ هم عندك ؟ !» ثم أنشدت تقول :

أبكّي أبي عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الخلي هجودها
وصنويّ ، لا أنسى معاوية الذي له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ، ومن ذا مثل صخر إذا غدا بساهمه الآطال قُبّاً يقودها (١)
فذلكِ ياهند الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها :

أبكّي عميد الأبطحيْن كليهما وحاميها من كل باغ يريدها
أَبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين يُنمى عديدها

وأمر هند والخنساء هذا في عكاظ ، من أغرب ما يؤثر في باب التنافس واعتناء الناس بمصائبهم واهتمامهم بالتنويه بها وتخليدها في آدابهم ومحافلهم العامة . ولعل هذا المنظر ، منظر تينك السيدتين بلباسها الاسود وجمليهما المسوّمين ، أطرف منظر شهدته عكاظ .

(١) الساهمة : الضامرة . والآطال جمع إطل : وهو الخاصرة . والقُبُّ جمع أقبّ وهو الدقيق الخصر الضامر البطن .

٥ ـ الفجار الأول

جلس بدر بن معشر الغفاري في مجلس له بعكاظ ـ وكان بدر رجلاً حدثاً منيعاً مستطيلاً بمنعته على من ورد عكاظ ـ فجعل يقول ورجل على رأسه قائم :

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يغطرف كأنهم لجة بحر مسدف[1]

وهو باسط رجله يقول : « أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز مني فليضرب هذه بالسيف فهو أعز مني » فوثب رجل من بني نصر ابن معاوية فضربه على ركبته فأندرها ثم قال له : « خذها إليك أيها المخندف » وأنشد وهو شاهر سيفه :

نحن بنو دهمان ذي التغطرف بحر لبحر زاخر لم ينزف

نبني على الأحياء بالمعرّف

فتحاور الحيان عند ذلك وثارا حتى كادت تكون فتنة ودماء . ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير .

وهذا الذي هاج أول أيام الفجار بين كنانة وهوازن .

---

(١) الغَطْرفة : الخيلاء والعبث والمُسْدِف : المظلم .

٦ - اتاوة

كان لزهير بن جذيمة العبسي إتاوة على هوازن ، وكان إذا كانت أيام عكاظ أتاها زهير ويأتيها الناس من كل وجه ، فتأتيه هوازن بالإتاوة التي كانت له في أعناقهم ، فيأتونه بالسمن والأقط والغنم ... ثم إذا تفرق الناس عن عكاظ نزل زهير بالنفرات .

أتت زهيراً يوماً عجوزمن هوازن، بسمن في نحي ، واعتذرت إليه ، وشكت السنين التي تتابعن على الناس ، فذاقه زهير فلم يرض طعمه ، فدعسها (طعنها) بقوس في يده عطل في صدرها فاستلقت على قفاها فانكشفت وبدت عورتها ، فغضبت من ذلك هوازن واضطغنتها عليه ، مع ما كان في صدرها من الغيظ والحسد . فتذامرت عامر بن صعصعة يومئذ ، وتألى خالد بن جعفر (من سراة هوازن) وقال : « والله لأجعلن ذراعي في عنقه حتى يُقتل أو أقتل . » وجعلوه من شأنهم في حروب وأيام حتى ظفروا به فقتلوه .

٧ ـ ظفر بثأر

« أقبل شأس بن زهير العبسي من عند النعمان بن المنذر ، وكان قد حباه بحباء جزيل ، وكان فيما حبـــاه قطيفة حمراء ذات هدب ، وطيلسان وطيب ، فورد منعجاً (وهو ماء لغني) فأناخ راحلته إلى جانب الردهة ، وعليها خباء لرياح بن الأسل الغنوي ، وجعل يغتسل، فناداه الغنوي : « استتر » فلم يحفل بما قال ، فقال : استتر ويحك ، البيوت بين يديك ، فلم يحفل ، وامرأة رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض ، فانتزعه رياح بسهم فقتله ونحر ناقته فأكلها وضم متاعه وغيَّب أثره .

فُقد شأس بن زهير ، ومكث قومه كذلك ماشاء الله حتى رأوا امرأة رياح هذه باعت بعكاظ قطيفة حمراء أو بعض ما كان من حباء الملك ، فعرفوها وعلموا أن رياحاً صاحب ثأرهم . فغزت بنو عبس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أو دية . وهرب رياح منهم ، وكان لعكاظ الفضل في معرفة القاتل إذ عملت في ذلك عمل رجال التحري اليوم .

بقي قوم شأس ووالده زهير خاصة يكثرون القتل في غني

ولا يشتفون ، وضرب الزمان ضرباته فالتقى خالد بن جعفر بن كلاب ، هو ووالد شأس القتيل العبسي في عكاظ في الشهر الحرام ، فقال خالد لزهير : « لقد طال شرنا منك يازهير أما آن لك أن تشتفي وتكف ؟» قال زهير : « أما والله مادامت لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له . » وأغلظ له زهير وحقره . وكان ذلك الكلام بينهما أمام رجال من قريش كانوا في عكاظ ، فلما حقره زهير وسبه قال خالد :

« اللهم أمكن يدي هذه ، الشقراء القصيرة من عنق زهير بن جذيمة ثم أعني عليه . »

فقال زهير : « اللهم أمكن يدي هذه البيضاء الطويلة من عنق خالد ثم خلِّ بيننا . »

فقالت قريش : « هلكت والله يازهير » . فقال : « إنكم ـ والله ـ الذين لاعلم لكم . »

وكانت هوزان تؤتي زهير بن جذيمة الإتاوة كل سنة بعكاظ وهو يسومها الخسف وفي أنفسها منه غيظ وحقد .

ومضى الرجلان وتفرق الجمع عن عكاظ وبقي خالد وقومه يتربصون بزهير حتى وجدوا منه غِرة فقتلوه .

وفي ذلك يقول خالد بن جعفر بن كلاب :

بل كيف تكفرني هوازن بعدما ... أعتقتهم فتوالدوا أحرارا
وقتلت ربهم زهيراً بعدما ... جدع الأنوف وأكثر الأوتارا
وجعلت مهر نسائهم ودياتهم ... عقل الملوك هجائناً وبكارا

٨ - سيف يثأر لصاحبه

قُتل الحارث بن ظالم - وكان أحد الجبارين الفتاكين الذين أضرموا الجزيرة فتناً ودماء - ، قتله ابن الخُسّ التغلبي ، ثأراً بأبيه الذي كان كاهن يزيد بن عمرو الغساني أمره بقتله الملك في خبر طويل ..

فأخذ ابن الخُسّ سيف الحارث بن ظالم ، فأتى به عكاظ في الأشهر الحرم ، فجعل يعرضه على البيع ويقول : « هذا سيف الحارث ابن ظالم . » فاشتراه قيس بن زهير بن جذيمة ، فأراه إياه فعلاه به حتى قتله ثم أنشد قيس يرثي الحارث :

وما قصرت من حاضنٍ دون سترها ... أبر وأوفى منك حارِ بنَ ظالم
أعز وأحمى عند جار وذمة ... وأضرب في كابٍ من النقع قاتم[1]

(١) حار في البيت الاول . مرخم حارث . وكبا الغبار : علا

٩ - شريف غير مقنع

كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا تقنّعوا كيلا يعرفوا ، وكذلك كان حال الشرفاء ، فإنه لايوافي عكاظ شريف إلا على وجهه برقع ، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه ، وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم ، لايتقنع كما كانوا يتقنعون .

فوافى عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان . وتطوع منهم رجل للأخذ بثأره من طريف فقال لقومه : « أروني طريفاً » فأروه إياه ، فجعل كلما مر به تأمله ونظر اليه فأمعن النظر . ففطن طريف فقال : « مالك تنظر إلي ؟ » فقال : « أتوسمك لأعرفك ، فلله عليّ إن لقيتك يوماً أن أقتلك » .

فقال طريف في ذلك :

أوَ كلما وردتْ عكاظ قبيلة ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسمُ
فتوسموني إنني أنا ذلكم ... شاكي سلاحي في الحوادث مُعلَم
تحتي الأغر ، وفوق جلدي نثرة ... زغْف ترد السيف وهو مثلَّم [1]

---

(١) النثرة : الدرع الواسعة . والزغف : الدرع اللينة أو الرقيقة الحسنة السلاسل . والشانيء : الكاره .

حولي أسيّد والهجيم ومازن وإذا حللت فحول بيتي خضّم[1]

ولكل بكري لديّ عداوة وأبو ربيعـــة شانىء ومحلّم

فمضى لذلك ماشاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من أيام العرب فقتله ثأراً لقتيله .

١٠ - تأديب سفيه

كان عبـد الله بن جعدة سيداً مطاعـاً ، وكانت له إتاوة بعكاظ يؤتى بها : يأتيه بها هذا الحي من الأزد وغيرهم ، فجـاء سُمَيْر بن سلمة القشيري وعبد الله جالس علّى ثيـاب قد جمعت له من إتاوته . فأنزله عنها وجلس مكانه ،فجاء رباح بن عمرو بن ربيعة بن عقيل - وهو الخليع ، سمي بذلك لتخلعه عن طاعة الملوك لا يعطيهم الطاعة - فقـال للقشيري : « مالك ولشيخنا تنزله عن إتاوته ونحن ها هنا حوله ؟ »

فقال القشيري : « كذبت ، ماهي له . » ثم مـد القشيري رجله فقال : « هذه رجلي فاضربها إن كنت عزيزاً . » قال : « لا لعمري ، لا أضرب رجلك . » فقال له القشيري : « فامـدد لي رجلك حتى

---

(١) قبيلة العنبر بن عمرو بن تميم ، والجمع الكثير من الناس . وانظر تفصيل هذا الخبر ومقتل طريف في يوم مبايض في العقد الفريد ٥/٢٠٨ (طبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٥ هـ) وبلوغ الأرب ١/٣٦٨

تعلم أأضربها أم لا ؟» فقال : « ولا أمد لك رجلي ، ولكن أفعل ما لا تنكره العشيرة ، وما هو أعزّ بي ، وأذلّ لك » ثم أهوى الى رجل القشيري فسحبه على قفاه ونحّاه وأقعد عبد الله بن جعدة مكانه .

١١ - اغاثة

أغار قيس بن عاصم المنقري على بني مرّة بن عوف بن ذبيان ، فأسر أحد رجلين من هوازن ، جاورا في بني مرة . ففدى كل قوم أسيرهم من قيس بن عاصم، وتركوا الهوازني فاستغاث أخوه بوجوه بني مرّة فلم يغيثوه .

ركب الهوازني الى موسم عكاظ فأتى منازل مذحج ليلاً فنادى يذكر أسيره ومن استغاث بهم فردّوه :

دعوت سناناً وابن عوف وحارثاً ... وعاليت دعوى بالحصين وهاشم
أعيذهمُ في كل يوم وليلة ... بترك أسير عند قيس بن عاصم
حليفهم الأدنى وجار بيوتهم ... ومن كان عما سرهم غير نائم
فصمّوا وأحداث الزمان كثيرة ... وكم في بني العلات من متصامم
فياليت شعري من لإطلاق غمّةٍ ... ومنذا الذي يحظى به في المواسم

فسمع صوتاً من الوادي ينادي بهذه الأبيات :

ألا أيهذا الذي لم يُجَبْ ... عليك بحي يجلّي الكربْ

عليك بذا الحي من مذحج فإنهمُ للرضى والغضب
فناد يزيد بن عبد المدان وقيساً وعمرو بن معد يكرب
يفكوا أخاك بأموالهم وأقلِلْ بمثلهمُ في العرب
أولاك الرؤوس فلا تَعْدُهم ومن يجعل الرأس مثل الذنب؟

فاتبع الصوت فلم يرَ أحداً . فغدا على المكشوح قيس بن عبد يغوث المرادي فقصَّ عليه قصته وأمر الأبيات التي سمعها ثم قال له : « بدأت بك لتفك أخي . » فقال المكشوح : « والله إن قيس بن عاصم لرجل ماقارضته معروفاً قط ولا هو لي بجار ، ولكن اشترِ أخاك منه وعليّ الثمن ، ولا يمنعك غلاؤه . » ثم أتى عمرو بن معديكرب فقال له مثل ذلك وسأله : « هل بدأت بأحد قبلي ؟ » قال : « نعم ، بقيس المكشوح . » قال : « عليك بمن بدأت به . » فتركه وأتى يزيد بن عبد المدان فقال : « يا أبا النضر إن من قصتي كذا وكذا ... » فقال له : « مرحباً بك وأهلا ، أبعث الى قيس بن عاصم: فإن هو وهب لي أخاك شكرته ، وإلا أغرت عليه حتي يتقيني بأخيك، فإن نلتها وإلا دفعت إليك كل أسير من بني تميم بنجران فاشتريت به أخاك . » فقال أخو الأسير : « هذا الرضى » فأرسل يزيد الى قيس ابن عاصم بهذه الأبيات :

ياقيس أرسل أسيراً من بني جُشَم   إني بكل الذي تآتي به جازي

لاتأمنِ الدهر أن تشجى بغُصته   فاختر لنفسك إحمادي وإعزازي

فافكك أخا منقر عنه وقل حسناً   فيما سئلت وعقّبه بإنجاز

فبلّغه الرسول ذلك وقال : « إن يزيد بن عبد المدان يقرأ عليك السلام ويقول لك : « إن المعروف قروض ومع اليوم غد ، فأطلق لي هذا الجشمي فقد استعان بأشراف بني جشم ، فلم يصب حاجته فاستجار بي . ولو أرسلت اليّ في جميع أسارى مضر بنجران لقضيت حقك . » فقال قيس بن عاصم لمن حضره من تميم :

« هذا رسول يزيد بن عبد المدان سيد مذحج وابن سيدها ومن لايزال له فيكم يد ، وهذه فرصة لكم فماترون ؟ » قالوا : « نرى أن نُغليه عليه ونحكم فيه شططاً فإنه لن يخذله أبداً ولو أتى ثمنه على ماله كله . » فقال قيس :

« بئسما رأيتم ، ألا تخافون سجال الحروب ، ودول الأيام ، ومجازاة القروض ؟ » فأبوا عليه فقال : « بيعونيه . » فاشتطوا بالثمن فتركه بأيديهم واعتذر الى يزيد قائلاً : « إن الأسير بيد رجل من سعد وقد اشتطوا في ثمنه . » فأرسل يزيد إلى السعدي وقال له : « احتكم . »

فقال : « مئة ناقة ورعاؤها معها . » فقال يزيد : « إنك لقصير الهمة ، قريب الغنى ، جاهل بأخطار بني الحارث ، اما والله لقد غبنتك يا أخا بني سعد ، ولقد كنت أخاف أن يأتي ثمنه على جلّ أموالنا ، ولكنكم يابني تميم قوم قصار الهمم . » وأعطاه مااحتكم . وفك الأسير الذي بقي هو وأخوه مجاورين لمن فكه حتى ماتا بنجران .

١٢ - حروب الفجار

اختلاط أحياء العرب بعضها ببعض ، وجمع عكاظ للأعداء المتنافرين في صعيد واحد ، وتحريمها قتال بعضهم بعضاً في أيامها التي هي في الأشهر الحرم ، لم يمنع الشغب بين الناس ولا الخصومة والنضال بالكلام أو الشعر . وكثيراً ما كان يهان أحد أفراد قبيلة بكلمة يثلبه بها خصمه من القبيلة المعادية فينادي : يالَ فلان ، وينادي الآخر : يالَ فلان ، ويهيج الشر بين القبيلتين . وكم جرّ من حروب على الحيّ سفهاؤه ، وما أكثر ما ألقى أراذل قوم كلمات غير مبالين ، فجرت من أجلها الدماء حتى أشرف الحيّان على الفناء والهلكة . وهذا ماوقع في أكثر أيام الفجار وهي حروب كانت في عكاظ بين قريش وكنانة من

جهة ، وهوازن من الجهة الثانية . وقد تعددت الوقائع فيها مرة بعد مرة ولذلك يقول دريد بن الصمة :

تغيبت عن يومي عكاظ كليهما ... وإن يك يوم ثالث أتغيبِ
وإن يك يوم رابع لا أكن به ... وإن يك يوم خامس أتجنب[1]

تعرف كتب الأدب والتاريخ من أحداث الفجار أربعة ، فأما الرابع الذي هو أهمها وأكبرها فقد تقدم الكلام عليه في فصل مخصوص أول الكتاب ص ١٦٢ .

ونتكلم هنا عن أيام الفجار الثلاثة الاولى وهي جميعاً لم تنته بحروب وإن كادت تشرف عليها ، لأن أسبابها تافهة ولأن عقلاء الفريقين حالوا دون الشر ، وبذلك نلمّ بأحوال سوق عكاظ إلماماً شافياً .

الفجار الأول : ـ تقدم آنفاً وهو حادث بدر بن معشر الغفاري (ص ٣٠٠)

الفجار الثاني : ـ كان بين قريش وهوازن[2] . وكان الذي هاجه

(١) بلوغ الأرب ١/٣٦٨
(٢) العقد الفريد

أن فتية من قريش جلسوا في سوق عكاظ إلى امرأة وضيئة من بني عامر بن صعصعة ، وقيل بل أطاف بها شباب من بني كنانة لا من قريش ، وعليها برقع وهي في درع فضل ، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم . فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري . فلما قامت تقلص الدرع من خلفها فضحكوا وقالوا : «منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا خلفها .»، فنادت المرأة : « يا آل عامر ! » فتحاور الناس وكان بينهم قتال ودماء يسيرة فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم .

الفجار الثالث : ـ « وهو بين كنانة وهوازن ، وكنانة هم حلفاء قريش . وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية . وكان الكناني فقيراً ، فرآه دائنه النصري بسوق عكاظ ، ومع النصري قرد وافى به السوق . فوقف في السوق ونادى : « من يبيعني مثل هذا القرد بمالي على فلان الكناني ؟ »وجعل يعيد النداء حتى أكثر ، تعييراً للكناني ولقومه . فمر به رجل من بني كنانة فسمعه فحمي وضرب القرد بسيفه فقتله. فهتف النصري : يا آل هوازن ! وهتف الكناني : يا آل كنانة ! فتهايج الناس حتى كاد

يكون بينهم قتال . ثم رأوا أن الخطب آيسر مما تكلفوا له فتراجعوا ولم يفقم الشر بينهم . »

١٣ - واعظ

احتشد الناس في ناحية من عكاظ يتوسطهم شيخ وقور ، على وجهه سمات اليقين والخير ، وهو على جمل أورق ، قد أرهف الناس إليه آذانهم مصغين ، وأعينهم الى وجهه ، وقد شدهتهم الحيرة من ألفاظ تجري على لسانه من خبر السماء وما بعد الممات ، وعظات لا عهد لهم بمثلها في أحيائهم النائيه وأوطانهم الشاحبة ، واذا هو يخطبهم ويقول :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ، إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا ، مابال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ ! أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟

يقسمُ قس بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً :

في الذاهبين الأوليـــ ـــن من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابرَ والأصاغر
أيقنت أني لا محـــا لة حيث صار القوم صائر.»

سمع الناس هذا ثم أخذت أبصارهم أولئك الذين يطوفون حول الصخور في السوق، فانصرفوا حيرى، في أنفسهم شيء. وكان بين المنصرفين غلام حدث، هو صاحب الشريعة الاسلامية ﷺ. بقي يذكر هذا المشهد حتي بعد أربعين سنة وقد طبقت الجزيرة دعوة الإسلام فأغارت وأنجدت، وقدمت على صاحبها وفود الأقطار بالطاعة والإجابة، وكان منهم وفد من إيادِ قوم قُس، وفدوا على رسول الله فسمع منهم وقال لهم: «مافعل قس بن ساعدة؟» قالوا: «مات يارسول الله.» قال:

«كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، ما أجدني أحفظه.»

فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يارسول الله.» فتلاه عليه فلما انتهى قال النبي ﷺ:

« يرحم الله قساً ، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده .[١] »

١٤ - تنافس شعراء

كان نابغة بني ذبيان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ : يجتمع إليه فيها الشعراء . فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى قد أنشده شعره وحكم له ، ثم أنشدته الخنساء قولها :

قذىً بعينك أم بالعين عوّار . . . . .

حتى انتهت الى قولها :

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وإن صخراً لكافينا وسيدنا وإن صخراً اذا نشتو لنحّار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير (كنية الأعشى) أنشدني قبلك لقلت : إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة . » قالت : « والله ومن كل ذي خصيتين . »

فقال حسان : « أنا والله أشعر منك ومنها . » قال : « حيث تقول ماذا ؟ » قال : حيث أقول :

---

(١) قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : « لقس ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ روى كلامه وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه . وهذا شرف تعجز عنه الاماني وتنقطع دونه الآمال . »

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى　　　وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّق　　　فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة : « إنك لشاعر لولا أن قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ![1] »

١٥ - تزويج بنات

كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة . وكان المحلّق الكلابي مئناثاً مملقــاً ، فقالت له امرأته « ياأبا كلاب مايمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه الى نفسه إلاو أكسبه خيراً . »

قال : « ويحك ماعندي إلا ناقتي وعليها الحمل . »

قالت : « الله يخلفهــا عليك . » قال « فهل له بـد من الشراب والمسوح ؟ »

---

(١) وفي رواية ثانية : « إنك قلت (الجفنات) ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت (يلمعن في الضحى) ولوقلت يبرقن بالدجى لكان أبلـغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت (يقطرن من نجـــدة دماً) فدلت على قلة القتلى ولوقلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » فقام حسان منكسراً . وأي الروايتين كانت فإن حـكم عكاظ خليق بنفوذ البصر وصحة النظر وقوة البديهة ، فما عن قليل رضيته العرب بحـكم في شعراء عكاظ .

قالت : « إن عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها . »

مرّ الشاعر فتلقاه المحلق قبل أن يسبق اليه أحد ، وابنه يقوده ، فأخذ الخطام فقال الأعشى : « من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ » قال : « المحلق » قال : « شريف كريم . »

ثم سلمه إليه فأناخه فنحر له ناقته و كشط له عن سنامها و كبدها ثم سقاه ،وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه ،فقال : «ماهذه الجواري حولي ؟» قال المحلق : « بنات أخيك وهن ثمان شريدتهن[1] قليلة .»

ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً .

فلما وافى المحلق عكاظ ، إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرّقُ ... ومابي من سقم ومابي تعشُّق

ولكن أراني لا أزال بحادث ... أغادى بما لم يمس عندي ويطرق

* * *

ومنها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق

تُشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى و«المحلق»

(١) أي بقية أموالهن .

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما بأسحم داج : عوض لا نتفرق[1]

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

يداه يدا صدق : فكف مبيدة وكف إذا ماضن بالمال تنفق

ومنها :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم فأنجد أقوام به ثم أعرقوا[2] .. الخ

فما أتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه.

ثم أتى المحلق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى :

« مرحباً بسيد قومه » ثم نادى : « يامعشر العرب هل منكم مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم . »

فتسابق الأشراف إليه جرياً ، يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى ، فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها . ولم تمس واحدة منهن إلا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل .

(١) اليفاع : الارض المرتفعة . تشب النار : تضرم . والمقرور : من أصابه البرد ، وتقاسما : حلفا الأيمان . والأسحم : الأسود . والداجي : المظلم (يعني بالاسحم الداجي : الليل) عوض : ظرف لاستغراق الزمن المستقبل .

(٢) الكف المبيدة : المهلكة التي لاتبقي على مال . أنجد : أتى نجداً أعرق : سار الى العراق .

فما قولك بفطنة امرأة المحلق ، وحسن دعاية الأعشى ؛ وهذا النوع من البضاعة التي روّجتها عكاظ .

١٦ - منحة محرّرة

حضر عكاظ من سراة الناس في أحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي ، وابناه معاوية وصخر أخوا الخنساء الشاعرة . وحضرها مَعْمر بن الحارث جد جميل الشاعر الغزِل . فلما نظر معمر إلى عمرو صافنه (قام حذاءه) وأمر ولده أن يخدموه ففعلوا .

فلما تقوّضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنيه معاوية وصخراً

« إن معمراً قد طوقني مالم يطوّقني أحد من العرب ، وقد أحببت أن أكافيه . » فقالا : « افعل مابدا لك . » فدعا بكاتب وصحيفة فكتب :

(هذا مامنح عمرو بن الشريد السلمي ، معمر بن الحارث العذري) :

منحه ماله بالوحيدة من أخلاف يثرب ، أطلالَ ذاك ومغانيَه ورسومه وأعراصه ودواويه وزحاليفه وقريانه وبراذعه وقَسْوَرَه

وعُجرُمه وبَشامه وينعه وتاليه وحَماطه وشَبْحه وأراكه وأحزته وحذاريه وآكامه وبُرقه وعُلْجانه، وكل ماصاء وصمت فيه، وبكت السماء عليه وضحكت الأرض عنه فهو لمعمر دون عمرو . وممنوح به من نيات الصدر ، لايشوبه كدر الامتنان ولا أمارات الامتهان ، مستنزَل من هضاب الجَندل وجرثومة وُد بُعيد المحل لاتخلق الأيام جدّته ولا يركد لمتنسّم بارحُه مادام الزمان ، وتوقّد الحران وسمر ابنا سَمير وأقام حراء وثبير[1] .

(١) الوحيدة : من أعراض المدينة بينها وبين مكة . الخِلْف : ما أنبت الصيف من العشب والجمع أخلاف . الأطلال جمع طلل : وهو ماشخص من آثار الدار . والمغنى : المنزل الذي غني به أهله ثم ظعنوا . والرسم : ركية تدفنها الأرض ، وما لا شخص له من الآثار . والاعْراص جمع عَرْصة : وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. الدويّة: الارض غير الموافقة ، والدّو والدويّة والداويّة : الفلاة . والزحاليف جمع زُحلوفة : وهي (هنا) المكان المنحدر المملّس . والقَرِيّ : مسيل الماء من التلاع ، ومدْفعه من الربْو الى الروضة ، والقَرو ، حوض طويل ترده الإبل والأرض لاتكاد تقطع ، ومسيل المعصرة ، وأسفل النخلة ينقر فينتبذ فيه والجمع قُريّ . والبراذع جمع بردعة : وهي الأرض لاغليظة صلبة ولا سهلة. والقسورة : نبات سهلي ، والجمع قسور، وقسورَ النبتُ : كثر . والعُجرم ، جمع عجرمة : وهي شجر . والبشام : شجرعطر الرائحة يسوّدالشعر ويستاك بقضيبه والينع: جل الشجر . والحماطجمع حماطة : شجر شبيه بالتين أحب شجر الى الحيات أوالتين الجبلي أو الأسودالصغير

وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل . »

ثم بعث بالكتاب مع طرف من طرائف اليمن وعدد الى معمر.

قال الاصمعي : فهي باقية الى الآن يفيض على ولده دخلها وذلك في أيام الرشيد رحمه الله (١)

وهذا سند تمليك محرر ، صدر عن عكاظ ليعرفنا كم تهز الأريحية من نفوس الكرام .

= أو الجيز . الشبح : الباب العالي البناء وأشباح المال : مايعرف من الإبل والغنم وسائر المواشي . والأراك : القطعة من الارض ، وشجر من الحمض يستاك به . والأحزّة جمع حزيز : وهو الموضع الغليظ المنقاد ، كثرت حجارته وغلظت كأنها سكاكين . والحذاري جمع حِذرية : وهي الاكمة الغليظة ، والقطعة الغليظة من الارض ، وحرة لبني سلَيم وهم قوم عمرو صاحب هذا القول . والبرَق جمع برقة : غِلظ من الارض فيه حجارة ورمل وطين مختلطة وبرق ديار العرب تنيف على مئة ذكر صاحب القاموس كثيراً منها فارجع إليه . والعلجان : كل شجر ذي شوك ، وكل عظيم طويل من الشجر . وماصمت من المال : الذهب والفضة . وماصاه منه : الإبل وما إليها . وودّ : الوتد ، واسم جبل ، واسم صنم معروف . والبارح : الريح الحاره في الصيف . وابنا سمير : الليل والنهار تقول : لاأفعله ماسمر السمير وابن سمير وابنا سمير : أي مااختلف الليل والنهـار .

(١) الازمنة والامكنة ٢ : ١٦٨

١٧ ــــ صفقة خاسرة

« أخسر صفقة من شيخ مَهْو »

كانت إياد تسبّ بالفسو وتُعَيَّر به ، فقام رجل من اياد بسوق عكاظ ومعه بردا حِبرَة فقال :

« من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين ؟ »

فقام عبد الله بن بيدرة أخو مهو (ومهو حي من عبد القيس) فقال :

« هاتهما ، واشهدوا أني اشتريت عار الفسو من إياد لعبد القيس بهذين البردين . »

فلما أتى رحله وسئل عن البردين قال : « اشتريت لكم بهما عار الدهر . » فوثبت عبد القيس وقالت :

إن الفساة قبلنـــا إيادُ   ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن عكاظ بابتياع عبد القيس عار الفسو حتى قال الشاعر :

يامن رأى كصفقة ابن بيدرة   من صفقـــة خاسرة مخسرة

المشتري الفَسْو بِبُرديْ حِبَرَة شلّت يمين صافق ما أخسره

وسارت هذه الصفقة الخاسرة مثلاً بين الناس .

قال ابن دارة :

وإني إن صرمت حبال قيس وحالفت المزون على تميم
لأخسر صفقة من شيخ مهو وأجور في الحكومة من سدوم[1]

وتلك غريبة في بابها بين جميع مآتي القوم في عكاظ .

١٨ — فتنة جمال

زعموا : « أن جارية بن سليط كان أحسن الناس وجها وأمدهم جسماً ، وأنه أتى عكاظ فأبصرته امرأة من خثعم فأعجبها ،وتلطفت له حتى وقع عليها ، فلما فرغ قالت : « إنك قد أتيتني على طهر ، وإني لا أدري لعلي سأعلق لك ولداً ، فموعدك فصال ولدي إن حملت لك . » فسمّى لها اسمه .

ثم وافى عكاظ لرأس ثلاثة أحوال . وأقبلت المرأة مع أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ حتى رأته المرأة فعرفته وقالت لأمها : « هذا جارية . » قالت أمها: « بمثل جارية ، فلتزن الزانية ، سراً أو علانية . »

(١) ثمار القلوب للثعالبي ص ٨٢ في الاصل (ضربت حبال قيس)

ـووجد الرجل أن المرأة قد ولدت غلاماً وفطمته . ثم دفعن اليه الغلام فسماه عوفاً فشرف وساد قومه وهو عوف الأصم [1] . »

١٩ -- راية غدر

والذي يثلج الصدر ويشفي النفس من مآثر عكاظ ، مشهد نستطيع أن نفيد فيه درساً بليغاً . ومثالاً فعالاً وأسلوباً ناجحاً في محاربة الخائنين ، ووددت - والله - لو أخذنا به في أيامنا العصيبة هذه، واحتذينا مثاله ، إذاً لبقي كل ساع في فساد يذوق الموت ألواناً حتى يلاقي ربه بالموت المريح . قال المرزوقي :

« كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة ، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : « ألا إن فلان بن فلان غدر . فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه . »

فإن أعتب وإلا جعل له مثل مثاله في رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم !! وهو قول الشماخ :

ذعرت به القطا ونصبت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين . »

---

(١) أمثال الضبي ص ١٨

وهي خطوة حاسمة موفقة في السياسة السلبية لمحاربة الرذائل، ما أظن أن أحداً اهتدى اليها قبل العرب ولا بعدهم.

لم يغفل العرب في عكاظ أن يرفعوا مقابل ذلك راية وفاء لمن أتى مكرمة كلّفته المغارم ثم مضى فيها ولم ينكص، فقد ذكروا: أن عامر بن جوين رفعت له كندة راية غدر في صنيعه بامرىء القيس ابن حجر في وجهه إلى قيصر، ورفعت له فزارة راية وفاء في صنيعه بمنظور بن سيار حيث أقحمته السنة فصار بماله وإبله وأهله إلى الجبلين فأجاره عامر ووفى له. وصار الناس بين حامد له وذام[1]

٢٠ - داعية الإسلام

وقف رسول الله ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة. وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم، فعزم ليقصدنّ المواسم وليأتين فيها القبائل، كل قبيلة بمنزلها، وكل جماعة في حيهم، يعرض عليهم هذا

(١) انظر كتاب الازمنة والامكنة ٢ : ١٧٠

الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد ، قام في عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا » ويتبعه رجل له غديرتان كأنّ وجهه الذهب وهو يقول :

« يا أيها الناس إن هذا ابن أخي وهو كذاب فاحذروه »

فعرف الناس أن هذا (الصادّ عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، يكذّبه كلما قال كلمة الحق .

عاود الدعوة مراراً فلم يُجب ولم ييأس ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحي في موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شيء . من رضي الذي أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ، إنما أريد ان تحوزوني مما يراد بي من القتل ، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء [١] »

كان الناس يعجبون من آمره وآمر عمه ، وهم بين راض وغاضب

(١) دلائل النبوة ص ١٠٢

ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الامر لايهمه ، منهم من لاينكر مايسمع ومنهم من يرد اقبح الردّ ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .

كان هذا دأبه أبداً يوافي به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، ما آن لك أن تيأس ؟ » من طول ما يعرض نفسه عليهم .

* * *

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ الى بني محارب ابن خفصة . فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة ، فكلمه ودعاه الى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه فقال الشيخ : . أيها الرجل قومك أعلم بنبئك ، والله لايؤوب بك رجل الى اهله الا آب بشر مايؤوب به أهل الموسم ، فأغنِ عنا نفسك . » وإن أبا لهب لقائم بسمع كلام المحاربي . ثم وقف أبو لهب على المحاربي فقال : « لو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه ، إنه صابيء كذاب . » قال المحاربي : « أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ولحمتك . » ثم قال المحاربي : « لعل به يا أبا عتبة لمماً ، فإن معنا رجلا من الحي يهتدي لعلاجه . » فلم يرجع أبو لهب بشيء [1]

(١) دلائل النبوة ص ١٠١

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا :

[أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال : « ممن القوم؟» قلنـــا : « من بني عامر بن صعصعة . » قال : « من أي بني عامر ؟ » قلنا : « بنو كعب بن ربيعة . » قال : « كيف المنعه فيكم ؟ » قلنا : « لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا . » فقال :

« إني رسول الله فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء ؟ » قالوا : « ومن أي قريش أنت ؟ » قال : « من بني عبد المطلب » قالوا : « فأين أنت من بني عبدمناف ؟» قال : « هم أول من كذبني وطردني . » قالوا : ولكننا لا نطردك ولا نؤمن بك ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . »

فنزل إليهم والقوم يتسوّقون إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال : « من هذا الذي أراه عندكم أنكره ؟ » قالوا : « هذا محمد بن عبد الله القرشي . » قال : « ومالكم وله ؟ » قالوا : « زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب الينا ان نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . » قال : « فماذا رددتم عليه؟» قالوا : « قلنا : في الرحب والسعة ، نخرجك الى بلادنا ونمنعك مما نمنع به انفسنا . » قال بجرة : « ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع

بشيء أشر من شيء ترجعون به ، بدأتم لتنابذكم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذّبوه فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم . » ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : « قم ، الحق بقومك . فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك . »

فقام رسول الله ﷺ الى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته . وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة الى بنى عمها فقالت : « يالَ عامر ولا عامر لي ! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لايمنعه أحد منكم ! ؟ »

فقام ثلاثة نفر من بني عمها الى بجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الارض ثم جلس على صدره ثم علقوا وجوههم لطماً ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء . »

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر الى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لايقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا اذا رجعوا إليه

حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم فقالوا :

جاءنا فتى من قريش ثم حدّث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا الى أن نمنعه و نقوم معه ونخرج به معنا الى بلادنا . »

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

« يابني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذُناباها من تطلّب ؟ فوالذي نفس فلان بيده ، ماتقوّلها إسماعيلي قط ، ألا إنها الحق ، فأين كان رأيكم ؟ ! ! »][1] .

٢١ - عمر

بعث رجل من بني جشم امرأته - واسمها عبلة بنت عبيد بن خالد ... بن حنظلة - الى عكاظ بأنحاء سمن تبيعها له فيها ، فباعت السمن وراحلتين وشربت بثمنها الخمر ، فلما نفد الثمن رهنت ابن أخيه وهربت ، فطلّقها فقالت في شربها الخمر :

شربت براحلتيْ مِحْجَنٍ ... فياويلتى ، مِحجنٌ قاتلي
وبابن أخيه على لذة ... ولم أحتفل عذْلة العاذل

(١) دلائل النبوة ص ١٠٠

وتزوجها عبد شمس بن عبد مناف فولدت له أمية الأصغر ، وعبد أمية ونوفلاً ، وهم العبلات .

٢٢ - تلقيب

ساوم ربيعة بن عمرو بقدح في عكاظ فاستصغره فقال لصاحبه : « لو وضعت في حوثرتي (حشفتي) لملأته . » فسمي حوثرة بذلك .

٢٣ - تصاريف القدر

وهذا غلام وقع في الأسر وبيع في عكاظ وكان له في هذا البيع وذلك الأسر كل الخير ، إذ افتتح لنفسه صفحة في التاريخ مجيدة فأصبح من أعلامه ، ولنترك الطبري يقص كيف بدأ أمره في عكاظ في مواسم الحج :

زارت أم زيد بن حارثة قومها من بني معن بن طي وزيد معها ، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية ، فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد ، فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام يفعة قد أوصف ، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله ﷺ

وهبته له ، فقبضه رسول الله ﷺ إليه وقد كان أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده قال :

بكيت على زيد ولم أدر مافعلْ ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الاجلْ
فوالله ماأدري وان كنت سائلاً ... أغالك سهل الارض أم غالك الجبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه اذا قارب الطفلْ
وان هبت الارواح هيجن ذكره ... فيا طول ماحزني عليه وما وجل
سأعمل نص العيس في الارض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي علي منيتي ... وكل امرىءٍ فانٍ وان غره الأمل
وأوصي به عمراً وقيساً كليهما ... وأوصي يزيداً ثم من بعدهم جبلْ

قال : (يريد جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر من زيد ، ويعني يزيد أخا زيد لأمه وهو يزيد بن كعب بن شراحيل .)

وحج ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه فقال أبلغوا أهلي هذه الابيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ وقال :

ألِكني الى قومي وان كنت نائياً ... بأني قطين البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكمُ ... ولا تعملوا في الارض نص الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة كرام معدٍّ كابراً بعد كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه ، فقال : ابني ورب الكعبة ، ووصفوا له موضعه وعند من هو ، فخرج حارثة و كعب ابنا شراحيل بفدائه وقدما مكة فسألا عن النبي ﷺ فقيل هو في المسجد ، فدخلا عليه فقالا : يابن عبد الله يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيد قومه !. أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير ، جئناك في ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإنا سنرفع لك في الفداء) قال : « من هو ؟ » قالوا : « زيد بن حارثة » فقال رسول الله ﷺ فهلا غير ذلك ؟ قالوا وما هو ؟ قال أدعوه فأخيره فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً ، فقالا قد زدتنا على النصف وأحسنت ..

فاختار زيد محمداً وقال « إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً » فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه الى الحجر فقال : « يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني » فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا [1]

(١) المنتخب من (ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين) الطبري ص ٣ - ٥

٢٤ - نداء

وهذا منادي عامر بن الطفيل وهو واحد من منادين كثيرين قائمين وطوافين، نستمع إليه فإذا هو يقول:

«هل من راجل فنحمله، أو جائع فنطعمه، أو خائف فنؤمنه..»[1]

٢٥ - منهب المعزى

في ناحية من عكاظ، وقف شيخ هِمّ حطمته السنون فلا يكاد يستقل واقفاً، ومن ورائه معزى كثيرة تكاد تملأ السهل، وأسارير الشيخ ناطقة بالغضب وحرج الصدر، وان الناس يتساءلون - وقد عرفه بعض وجهله بعض -: ما باله ؟

فيجيب المجيب: «ذلك سعد بن زيدمناة بن تميم الملقب بـ(الفِزْر) أكثر قومه مالاً وولداً»، ويجتمع عليه الناس وقد علموا أن له لشأناً، فاذا به يقول:

«أيها الناس، ألا إن هذه معزاي، فلا يحل لرجل ان يدع أن يأخذ منها شاة، ولا يحل لرجل أن يجمع منها شاتين.»

---

(١) تاريخ دول العرب والاسلام لمحمد طلعة حرب ٩٩/١

فاندفع الناس على الغنم ينتهبونها ويذهب كلٌّ لطيته ، فما هو أن يسأل سائل عما حمل سعداً على إنهاب معزاه حتى يعلم انه طلب يوماً الى ابنه هبيرة ان يسرح في معزاه فيرعاها فأجاب هبيرة : « والله لا أرعاها سنَّ الحسْل [1] » فنادى سعد ولده الآخر صعصعة قائلا : « يا صعصعة اسرح في غنمك . »

قال : « لا والله لا أسرح فيها ، ألْوَةَ [1] الفتى هبيرة »

فغضب سعد وسكت على ما في نفسه حتى اذا أصبح ساق المعزى كلها الى عكاظ ، فكان منه ما رأى الناس .

* * *

سار هذا الحدث في عكاظ بين العرب واشتهر حتى صار مثلاً يضرب ، إذا أراد أحدهم قطع أمل صاحبه من أمر قال : لا أفعله « حتى يجتمع معزى الفِزْر » وأصبحت هذه القولة من أمثال العرب .

قال شبيب بن البرصاء :

ومُرَّة ليسوا نافعيك ولن ترى   لهم مجمعاً حتى ترى غنم الفِزْرِ [1]

---

(١) انظر أمثال الضبي ص ٢٢ طبعة الجوائب - الحسل : ولد الضب ولم توجد دابة قط أطول عمراً منه ، وسن كل دابة يسقط إلا سن الحسل . والمعنى : لا أرعاها أبدا . ألوة : يمين ، قسم .

٢٦ - نهب الرزق

أما هذا ففتى المشرق نهيك بن مالك ، « قدم مكة بطعام ومتاع للتجارة ، فرآهم مجهودين ، فأنهب العير بما عليها » وهاهم أولاء الناس يتهافتون على أرزاقه في عكاظ يأخذ كل مايقشع به عن نفسه وأهله الجوع والفقر . فلما انكشف الناس ولم يبقوا في أرض عكاظ من مال نهيك شيئاً ، وكان الخبر قد طار في أقطار عكاظ ، أقبل خاله عليه يعاتبه على انهاب ماله ، فقال نهيك :

ياخالُ ذرني ومالي : مافعلت به ومايصيبك منه ، إنني مودي
إن نهيكاً أبى إلا خلائقه حتى تبيد جبال الحرة السود
فلن أطيعك إلا أن تخلدني فانظر بكيدك : هل تسطيع تخليدي
الحمد لايشترى إلا له ثمن ولن أعيش بمال غير محمود[1]

٢٧ - فرسان العرب

« اجتمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة :

ففارس تميم عتيبة بن الحارث بن شهاب أحد بني ثعلبة بن يربوع ابن حنظلة : صياد الفوارس وسم الفرسان .

---

(١) الإصابة ٨٤/٦ آخر الترجمة ٨٩١١

وفارس قيس : عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب

وفارس ربيعة بسطام بن قيس ... بن بكر بن وائل »

« ثم اختلفوا فيهم حتى نعوا عليهم سقطاتهم[1] »

٢٨ ـ مارأيت شيخاً أكذب

مر المستوغر بن ربيعة ، شاعرٌ معمَّرٌ ، بعكاظ يوماً وعلى ظهره ابن ابنه شيخاً هرماً ، فأعيا من حمله فوضعه بالأرض وقال : « عنيتني صغيراً وكبيراً » فسمعه رجل فساءه ذلك فالتفت إليه ناصحاً :

ـ ياعبد الله أتقول هذا لأبيك؟! أحسنْ إليه فطالما أحسنَ إليك.

قال : أو تدري من هو !

قال : نعم ، هو أبوك أوجدك .

قال : هو والله ابن ابني

قال الرجل : مارأيت شيخاً أكذب ، لو كنت المستوغر بن ربيعة ما زدت . قال : فأنا المستوغر بن ربيعة ![2]



(١) هذا قول أبي عبيدة ـ الكامل للمبرد ص ٨٩ طبعة ليدن

(٢) عمّر طويلاً جداً وأدرك صدر الاسلام ، ولقد بالغوا في عمره حتى بلغوا به (٣٢٠) سنة ورووا قوله : =

الآن وقد استعرضتَ هذه المشاهد ، وذكّرتك هذه الفقرات جواً خاصاً تتصوره لعكاظ كلما مرت بك في نقلة من نقل الأدب أو التاريخ ، الآن تستطيع أن تفهم : لمَ يعدُّ مؤرخو الادب عكاظ في أول ما وحّد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن ، وهيأ لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكّم في اللغة والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات ، وعرفتَ أيضاً أن عكاظ دنيا تعج بالقاصدين من كل فج عميق ، وأن فيها الخطباء المصاقع يخطبون ، والشعراء الفحول ينشدون ، والأعزة والأشراف يتفاخرون

= مئة أتت من بعدها مئتان لي   وازددت من عدد الشهور سنينا

وقد سئم حياته حين كان أحفاده صغاراً ووصف حاله بقوله :

إذا ما المرء صمّ فلم يناجى   ولم يك سمعه إلا ندايا
ولاعب بالعشي بني بنيه   كفعل الهر يحترش العظايا
فذاك الهم ليس له دواء   سوى الموت المنطق بالمنايا

العظايا جمع عظاية وعظاءة : دابة على خلقة سام أبرص ، أعظم منه قليلاً - المنطّق المحاط في موضع النطاق .

انظر : معجم الشعراء المرزباني ص ٢١٣ ، والشعر والشعراء ص ٣٤٤ ومختلف تأويل الحديث لابن قتيبة ص ٣٦٠ .

ويتنافر ونويتسابقون [1] ، والموتورين يؤمونها للبحث عن واتريهم ، ومن له أسير سعى إلى عكاظ في فكاكه ، ومن أراد أن يأتي عملاً تعرفه له العرب عامة أتاه في عكاظ ، ومن أتى مكرمة في قطر فأحب أن تخلد جاء الى عكاظ فشهر فيها أمره .

قال أبو ذؤيب :

إذ بني القباب على عكاظ　　　وقام البيع واجتمع الألوف

وقال آخر يضرب بها المثل :

فإنك ضحاك إلى كل صاحب　　　وأنطق من قُس غداة عكاظها

وهجا أمية بن خلف الخزاعي حسّان وأراد إيلامه فعنونها إلى عكاظ فقال :

ألا من مبلغٌ حسان عني　　　مغلغلة تدب إلى عكاظ

---

(١) جلس القلمّس في عكاظ يسابق بين ابنتي الخس قائلا : « إني سائلكما لأعلم أيكما أبسط لسانا وأظهر بيانا وأحسن للصفة إتقانا ؟ » ثم كانت الأسئلة لكل منهما حول الابل والخيل والمعزى والسحاب والرجال والنساء « أيها أحب اليك ؟ » ثم « أيها أبغض اليك ؟ » ثم استنشدهما فأنشدتاه في الحكم وتجارب الحياة . في حوار طريف وحديث مسهب ، ثم ختم المجلس بقوله : « أحسنتما وأجملتما فبارك الله فيكما » ، ووصلهما وحباهمـــا . وانظر المجلس بطوله في (بلاغات النساء) ص ٥٨-٦٤ فهو قيم حافل .

أليس أبوك فينا كان قيناً لدى القينات فسْلاً في الحفاظ

يمانياً يظل يشدّ كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ[1]. الخ

فيجيبه حسان :

أتاني عن أمية زور قول وما هو بالمغيب بذي حفاظ

سأنشر ما حييت لهم كلاماً ينشّر بالمجامع من عكاظ[2]

فأنت إذ تجول في عكاظ يتقسّم سمْعَك خطب وقصائد ومفاخرات ومنافرات وخصومات وأنماط من البيع لا تتشابه ، وأزياء في اللبس والتكلم والمراكب .. تجمّعت من كل صوب .

ولما قال عمرو بن كلثوم قصيدته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا . . .

في العراق ، أحبّ أن تسير في الناس ويكتب لها الخلود ، فسعى الى عكاظ في الموسم ، فقام بهذه القصيدة خطيباً ثم قام بها أيضاً في موسم مكة .

وكذلك قل في بقية القصائد الطوال التي يسمونها (المعلقات) ،

(١) المغلغلة: الرسالة السريعة . والقيْن : الحداد. والفسل: الرذْل الساقط

(٢) ديوان حسان ص ٢٤١ وتاريخ النقائض ص ٩٧ ، وبعده

قوافي كالسلام اذا استمرت من الصم المعجرفة الغلاظ

فما كان الإجماع ليعقد على أنها أجود الشعر لولا أن المحكّمين في عكاظ شهدوا لها بذلك وأقر السامعون بتفوقها .

تلك مشاهد عامة مما كان يجري في عكاظ ، وكأن العرب الذين عرضوا في هذه السوق متاجرهم وأموالهم وأنعامهم ، وعرضوا فيها أدبهم وشعرهم ، أبوا إلا أن يعرضوا بقية مقوماتهم فرأينا مشاهد عن سياستهم وصلحهم وحربهم . ولو كان لعربي أن يصبر على ضيم قريب أو بعيد لصبر هؤلاء الجيران في هذه السوق العامة ، ولكن طرح الخسف وردّ الضيم في نفس العربي هو قبل التجارة والأدب ، ورفع الذل عنده أهون وسائله إهراق الدماء وقطع وريد الحياة ، لأنه لايفقه عيشاً بقيد ولا يتصور حياة بذل .

والظاهر أن احتفال الناس بعكاظ لم يكن واحداً دائماً ، فقد كان في بعض السنين يربي على الغاية في الازدحام والحركة ، حتى تضيق السوق بمن فيها وحتى يربح التاجر والجالب إليه ربحاً عظيماً لايتأتى إلا في الفرط النادر . قال المرزوقي : « فلما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن مالم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين ، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقدوا بتاعوا أمتعة مصر والعراق والشام . . »

مي إذاً معرض عام للجزيرة العربية : فيها عرض لتجارات جميع الاقطار وعرض للبيوع وعرض للعادات وللأديان واللغات والآداب ، وللسياسة . . . وفيها لجان رسمية على نحو ما نألف في معارضنا اليوم ، تحكم للمتفوّق بتفوّقه حكماً نافذاً من أقصى الجزيرة إلى أقصاها . وتزيد على معارضنا بميزة جليلة ، وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواضعاتها لتنتقي منها أحسنها وأخلقها بالبقاء .

لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة إلا أنا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي [1] ، ولما جاء الإسلام وتوطدت أركانه في

(١) في بعض المراجع القديمة والحديثة تخبّط في تعيين سنة افتتاحها وتناقض ظاهر : خذ لك مثلا هذه المصادر : بلوغ الارب للألوسي ، دائرة معارف وجدي ، الوسيط للأستاذين الإسكندري والعناني ؛ فإنها اتفقت على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة مع أن هناك حديثاً يفيد أن رسول الله ﷺ كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار وعمره أربع عشرة سنة أي بعد الفيل بأربع عشرة سنة فتكون الفجار ونبل الرسول فيها قبل وجود عكاظ بسنة وهو تناقض بيّن . والغريب حقاً أن ينقل صاحبا الوسيط - وهما ما هما فضلاً وتحقيقاً - هذا التحديد عن بلوغ الارب على علاته في الطبعة الخامسة للوسيط ص ١٢ ثم ينقضاه هما نفساهما ص ٢٧ من الكتاب المذكور فيذكرا نبل الرسول وعمره أربع عشرة . كما فعل الألوسي تماماً . ولو نجا أحد من زلل لنجا هؤلاء الأفاضل الثقات .

أما دائرة معارف وجدي فمع ارتكابها الخطأ نفسه فقدعزّزته بثان فقالت : =

الجزيرة والعراق والشام بدأ شأنها يضئول، ولم تزل قائمة إلى أن خرجت الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف بمكة سنة (١٢٩) للهجرة فنهبوها فتركت إلى الآن .

وعلى هذا تكون هذه السوق قد عمرت اكثر من قرنين ونصف القرن .

-« عكاظ اتخذت سوقاً بعدالفيل بخمس عشرة سنة أي سنة (٥٤٠) ميلادية»؟ وهذا غير صحيح لأن حادث الفيل كان سنة (٥٧٠-٥٧١) م. ولعل الألوسي رحمه الله أراد « قبل الفيل بـ ١٥ سنة » فغيرت في الطبع كلمة (قبل) بـ (بعد) ثم تابعه على الخطأ من بعده .

ثم اطلعنا بعد صدور الطبعة الاولى بسنة فإذا الدكتور محمدحسين هيكل يقول في كتابه (في منزل الوحي ص ٣٦٤ الطبعةالاولى): « أدق مايروى(!) أنها اتخذت بعد الفيل بـ ١٥ سنة وقد عرفت آنفاً مبلغ هذا النقل في الدقة .

وإذا تأملت أحداث عكاظ التي عرضنا لهـا عرفت أن بعضها يرتفع الى ماقبل جميع هذه التواريخ التي ذكروها: فالمرأة التي باعت أنحاء السمن بعكاظ تزوجت بعد ذلك بعبد شمس ، وعمرو بن كلثوم الذي أنشد قصيدته في عكاظ عاش حول سنة (٥٠٠ م) . وإذا أضفت الى هذا مافطن له الاستاذ أحمد أمين (الرسالة : السنة الاولى : العدد ١٣ ص ٢٥) في بحثه عن عكاظ والمربد ، من أن المرزوقي عد عشرة ولوا القضاء بعكاظ قبل الإسلام ، استظهرت أن السوق مضى على إنشائها زمن قبل أن تصير فيه هذه الاحداث كلها . من كل ذلك تعرف صحة ماذهبنا إليه من أنها كانت قبل سنة (٥٠٠م) حتماً .

سوق مجنه

مَجَنَّة موضع (وقيل بلد) قرب مكة على أميال منها ، تقع بمر الظهران ، قرب جبل يقال له الأسفل وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها ، ميمها بالفتح وتكسر [1] . والظاهر أنها من المواطن التي لاينساها أهل مكة لبعض جمال فيها ولأنها ذات مياه ، فقد جاء في في كتب السيرة : أن بلالاً لما هاجر الى المدينة وأصيب بالحمى ، تشوّق الى مكة ومواطنها وتغنّى بقوله :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة　　بفَخٍّ وحولي إذْخِرٌ وجليل
وهل أردنْ يوماً مياه مجنّة　　وهل يبدونْ لي شامة وطفيل [2]

(١) لهم في اشتقاقها أكثر من مذهب ، فقد جاء في تاج العروس أن المجنة الكثيرة الجن ، وفي الصحاح : أرض مجنة : ذات جن . قال ابن جني « يحتمل مجنة وزنين ، أحدهما أن يكون مَفعَلة من الجنون كأنها سميت بذلك لشيء يتصل بالجن أو بالجنَة أعني البستان أو ماهو سبيله ، والآخر أن يكون فَعَلّة من مجن يمجُن كأنها سميت بذلك لأن ضرباً من المجون كان بها . هذا ماتوجبه صنعة علم العربية ، فأما لأي الامرين وقعت التسمية فذلك أمر طريقه الخبر . »

(٢) أخبار مكة للازرقي ص ١٣١ . الإذخر والجليل : نبتان . وشامة وطفيل : جبلان مشرفان على مجنة .

هذه السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة ، تقوم في العشر الأخير من ذي القعدة[1] ويقصدها العرب بقضّهم وقضيضهم بعد أن تنفضّ سوق عكاظ ، يتممون فيها ماقصدوا له من تجارة وفداء وتفاخر و ... على شبه التفصيل المتقدم في عكاظ . ويجلب اليها مايجلب الى تلك من متاع وعروض ، ولم تكن الخمر لتقلّ فيها شأناً عن بقية الأسواق فقد كانت تحمل إليها من معادنها من الشام ، ومن بصرى وغزة حتى صار يشيد بذكرها الشعراء ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

سُلافة راح ضُمِّنَتْها إداوة مقيَّرة رِدفٌ لمُؤْخِرَة الرَحْل
تزوّدها من أهل بُصْرى وغزةٍ على جَسْرةٍ مرفوعة الذيل والكفل
فوافى بها عُسْفان ثم أتى بها «مجنة» تصفو في القلال ولا تغلي[2]

ومجنة وعكاظ وذو المجاز تستوي في نظر المحرمين من العرب

(١) هذا قول جمهرة العلماء ، اما ياقوت فمع انه وافقهم على هذا عند كلامه على (مجنة) ، خالفهم وناقض قوله هو نفسه فقال عند الكلام على عكاظ هذا القول الغريب : « كانت العرب تقيم سوق عكاظ في أول شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج »

(٢) السُلافة : الخمر وكذا الراح . والإداوة : المطهرة . والمقيَّرة : المطلية بالقار . الرِدْف : الراكب خلف الراكب وكل ماتبع شيئاً فهو رِدْفه . =

وتتمتع منهم جميعاً باحترام واحد حتى إن بعضهم لا يردها إلا محْرِماً .

قال الأزرقي :

« كانت قريش وغيرها من العرب تقول : « لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز إلا محرمين بالحج . » وكانوا يعظّمون أن يأتوا شيئاً من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم[1] . »

ومجنة ـ وإن قرنت في أغلب الأحيان مع عكاظ وذي المجاز ـ دون هاتين السوقين شأناً حتى إن المرزوقي لم يذكرها مستقلة كما ذكر غيرها بل اكتفى بقوله : « وزاد بعضهم في الاسواق المجنة وهو قريب من ذي المجاز . »

= والرَحْل : مركب للبعير . والجَسْرة : الناقة العظيمة الماضية . والكِفْل : مركب للرجل يؤخذ من كساء فيعقد طرفاه فيلقي مقدمه على الكاهل ومؤخره مما يلي العجز . القلال جمع قلة : وهي الجرة العظيمة .

(١) أخبار مكة ص ١٣٢

سوق ذي المجاز

لهم في تحديدها قولان : أحدهما أنها على فرسخ من عرفة بناحية كَبْكَب ، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الإمام اذا وقف . ذكره ياقوت وغيره وهو أحد قولين نقلهما الزبيدي ، والثاني : أنها موضع بمنى ، ومنى بين مكة وعرفات في نصف الطريق تقريباً ، والذين نقلوا الأول أكثر عدداً وان كان القول الثاني أدنى الى القبول. وسمي ذا المجاز لأن إجازة الحاج كانت منه ، ولعل السوق أحياناً تمتد أو يتنقل الناس فيها : يقتربون ويبتعدون حتى تشغل هذه المسافة[1]. وذو المجاز من ديار هذيل ، هم أهلها وجيرانها الأدنون .

يكثر ورود ذي المجاز في شعر العرب ولاسيما شعراء هذيل ، لأنها من أسواقهم الكبرى ، ومن المواسم أيضاً قال أبو ذؤيب الهذلي:

وراح بها من ذي المجاز عشية   يبادر أولى السابقات الى الحبل

وقال اللذبي :

(١) وذو المجاز علم يضاً على موضع قريب من العراق لاشأن لبحثنابه.

للغانيات بذي المجاز رسومُ   في بطن مكة عهدهن قديم

أما التي ذكرها الحارث بن حلّزة في معلّقته :

واذكروا حلف ذي المجاز وما   قدم فيه العهود والكفلاء

فالغالب أنها التي في شمال الجزيرة ، لأن مقام قبيلته يَشْكُرُ والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك .

* * *

اذا انقشع الناس عن مَجَنّة حين يهل ذو الحجة ، ساروا بأجمعهم الى هذه السوق وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذي الحجة ، وهو يوم التروية ، سمي بذلك لانهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم لما بعده اذ لا ماء بعرفة . والى هذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الاسواق قبلها ، او لم يشهدها وأتى للحج خاصة ، اذ أن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم .

تحفل[1] ذو المجاز لوقوعها أيام الحج بجموع العرب وتجارهم

(١) خير تعبير عن ازدحام هذه السوق بالناس كلمة فاه بها أبي بن خلف دلت على أنهم يضربون المثل بمن فيها كثرة ، وذلك أنه قصد الرسول ليقتله وهو يقول : « أين محمد ؟ لانجوت إن نجا » فلما دنا تناول الرسول حربة من أحد أصحابه وانتفض بها انتفاضة أطارت من حوله من الأصحاب ثم استقبل بها أبيا فطعنه طعنة وقعبها عن فرسه فكسر ضلعاً من أضلاعه ولم يخرج له دم ، فلما =

وأشرافهم ، وهي تلي عكاظ في الشأن ، ويجرى فيها مايجري في هذه من تبايع وتناشد وتفاخر وفداء أسرى وطلب ثأر .. الخ ، يقصدها صاحب الثأر ليتعرّف فيها واتره ، فيتربص به انقضاء الشهر الحرام ان كان من المحرمين والا عاجله فأخذ بثأره واليك بعض أحداثها :

١

روى الأصفهاني: «أن قيس بن الخطيم لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله ، وظفر بقاتل جدّه بذي المجاز ، فلما أصابه وجده في ركب عظيم من قومه ، ولم يكن معه إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حذيفة بن بدر الفزاري فاستنجده فلم ينجده ، فأتى خداش بن زهير فنهض معه ببني عامر حتى أتوا قاتل عدي (جد القيس) فإذا هو واقف على راحلته في السوق ، فطعنه قيس بحربة فقتله ثم استمر . فأراده رهط الرجل فحالت بنو عامر دونه ...الخ . »

= رجع أبي الى قريش قال : « قتلني والله محمد » فقالوا : « ليس عليك بأس » ما أجزعك ! انما هو خدش لو كان بعين أحدنا ماضره » فقال : « واللات » لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين !! » — انظر شرح الزرقاني للمواهب ٢/ ٤٥

حالف ابو الازيهر الدوسي وكان عظيم الشأن في الأزد أبا سفيان ابن حرب عظيم بني أمية ،وكان بين أبي الازيهر هذا وبني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة،فإن أبا الأزيهر لقاعد في مقعد أبي سفيان بسوق ذي المجاز إذ جاء هشام بن الوليد فضرب عنقه في مقعده ذاك بذي المجاز وانتظر الناس أن يأخذ ابو سفيان بثأر حليفه من هشام فلم يفعل ولم يدرك به عقلا ولا قوداً من بني المغيرة ، وتحدث بذلك أهل السوق من قبائل العرب وراجت في الناس حتى عيروا بها أبا سفيان وحتى قال حسان بن ثابت فيها :

غدا أهل حضني ذي المجاز بسحرة
وجارُ ابن حرب لايروح ولا يغدو
كساك هشام بن الوليد ثيابه فأبلِ وأخلق مثلها جدداً بعد[1]

٣

كثيراً مايغير قوم على قوم فيسبون من ذراريهم فيستعبدونهم . فينشأ هؤلاء الذراري أرقاء في غير قومهم ، فيباعون في الاسواق أيام المواسم ، فكانت الجواري والأطفال من جملة العروض التي

---

(١) رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ص ٧٦ بتصرف يسير

يقتنيها العربي في الجاهلية ويبيعها ويشتريها كما يفعل بالتمر والثياب والسلاح حتى جاء الاسلام فأبطل سبي العربي ، جاء في الاغاني (١١ : ٧٥) :

« أن أبا وجزة لحق أباه عبيداً - وهو صبي - سباء في الجاهلية ، فبيع بسوق ذي المجاز ، فابتاعه رجل من سعد واستعبده ، فضرب عبيد هذا يوماً ضرع ناقة لمولاه فأدماه ، فلطم المولى وجه العبد ، فخرج عبيد الى عمر مستعدياً فلما قدم عليه قال : « يا أمير المؤمنين انا رجل من بني سُليم ثم من بني ظفر أصابني سباء في الجاهلية كما يصيب العرب بعضها من بعض ، وأنا معروف النسب ، وقد كان رجل من بني سعد ابتاعني فأساء إلي وضرب وجهي ، وقد بلغني أن لا سباء في الاسلام. » فما فرغ من كلامه حتى كان مولاه قد أتى عمر على أثره فقال : « ياأمير المؤمنين هذا غلام قد ابتعته بذي المجاز ، وقد كان يقوم في مالي ، فأساء ، فضربته ضربة والله ما أعلمني ضربته غيرها قط ، وإن الرجل ليضرب ابنه أشد منها فكيف بعبده ، وأنا أشهدك أنه حر لوجه الله . » فقال عمر لعبيد : « انه لا سباء على عربي ، وان هذا الرجل قد امتنّ عليك ، وقطع عنك مؤونة البيّنة ، فإن أحببت فأقم

معه فله عليك منة ، وان أحببت فالحق بقومك . » فأقام عبيد مع السعدي وانتسب في بني سعد بن بكر بن هوازن » اهـ

وعمر نفسه اشترى خادمه « اسلم » من سوق ذي المجاز ، وكان أسلم هذا حبشياً أسود مشرطاً [1]

* * *

هذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو المجاز التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب ، شهدت الى جانب مناظر البيع والشراء ، والمفاخرة والإنشاد ، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكّر والأذى لصاحب الشريعة الاسلامية ﷺ وابتلعت تلك الاسواق بضجيجها وما كانت تعجّ به من حوادث ، صوت الدعوة الاسلامية فيما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها في ذلك الرُّغاء والصخب والزحام ، فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس الى الاسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز ،

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣/٧ و(أسلم) هذا أروى الناس لسيرة عمر رضي الله عنه وكان ابن عمر يعظمه ، ومن طريف ما يذكر ابن عساكر عنه أن (أسلم) وعاصم بن عمر حكيا عمر في : أيها أحسن غناء !

يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردّون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون له ، « قومك أعلم بك[1] . »

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج ، موزّع السمع بين داع الى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لإجازة او حمالة ، وداع الى عصبية ، وآمر بمنكر ... فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث واربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط ، ولاسمع بمثله : رجلاً كهلاً وضيئاً عليه سمات الوقار والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلةقبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ؛ وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرةوحنيفة ، وسليم وعبس ، وهنا بنو نصر و كندة ، و كعب،وعذرة ، وهؤلاءالحارث ابن كعب وأولئك الحضارمة ... الخ

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد الى شريفها يدعوه بالرفق الى الله ،

(١) شرح المواهب ١ : ٣٠٩ . وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١٥/٤

وفعل الخير ، فيتجهم له هـــذا ، ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ويحقره آخر .. فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه مالقي ، ولا يكفه ما أوذي ، فيمضي متشدداً حزيناً الى قبيلة اخرى وشريف آخر : يعرض نفسه عليهم ويقول : « هل من رجل يحملني الى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي . » فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيّه بوفد الأنصار .

هذا ما حفظته لنا كتب السير والأدب من مشاهدمؤثرة ،فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة الى خير ، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدف عنه الناس وازورّوا في أسواق الجاهلية لقد ملأ هذا الصوت فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبّق الخافقين بآثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً وعلماً وانسانية وسعادة ومُثُلاً عليا . ومازال يستجيب لهـذا الصوت كل يوم ، أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، في آسية وأوربة وامريكة ، صدّ عنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زُمر المتحضرين من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي ، ومفكر يستضيء بعلمه وفكره الملايين من الخلائق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحتفظ بهذا الدرس ، فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً ، لابد أنه ظافر في النهاية عليه . ولنعلم أن اليأس لاينبغي أن يجد سبيلا الى قلب المؤمن ، وأنه :

(لايَيْأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الكافِرُونَ)

سوق نطاة خيبر

خيبر قرية شمالي المدينة ، بينها وبين تبوك . وهي عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع . ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضاً . وقيل هي خيبر نفسها . وحول القرية نخيل كثير يسقى بعين فيها والبلدة وبئة معروفة في العرب بحمّاها .

أهلها يهود استوطنوا الحجاز منذ القديم واشتغلوا بالزراعة والتجارة [١] .

ونظراً لوقوع هذه القرية على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن والشام أسهم أهلها بتجارة الجزيرة ، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية في سفرها الى الشام . ونجح أهلها في متاجرهم حتى أفادوا منها غنى واسعاً واستفاضت لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رؤوس الأموال الضخمة . ولا نبعد إذا قلنا إن خيبر مصرف الجزيرة المالي . ولما فتحها الرسول ﷺ صالح أهلها على الشطر من الثمر والحب . ويذكر أصحاب السيرة غنائم خيبر وما وجدوا فيها من

---

(١) انظر ص ٢٢ ومابعدها في هذا الكتاب

كنوز ، فيذكرون أموالاً جمة ودنيا عريضة . بنى اليهود فيها حصوناً عديدة جعلوا فيها أموالهم وميرتهم من طعام وحب وتمر . وهم في الجملة أهل بأس وشكيمة قاوموا كثيراً قبل أن يفتح المسلمون حصونهم ، ثم غلبوا على أمرهم فافتتح المسلمون حصن ناعم ثم القموص ثم حصن الصعب بن معاذ وهو أعظم حصونها غناء وأكثرها طعاماً وودكاً ، ثم الوطيح ، ثم السلالم ثم الشق . وكان في الغنائم ذهب كثير وفضة كثيرة ، فجعل الصحابة يتبادلونها حتى نهى الرسول ﷺ أن يبتاع الذهب بالذهب والفضة بالفضة . بين تلك الحصون حصن الشق وحصن نطاة وحصن الكتيبة . كان لكل حصن خازن يخبىء أموال أهله وكان كنانة بن الربيع عنده كنز بني النضير فلما أسر سئل عنه فأنكر فاهتدى الفاتحون إليه فوجدوا أموالاً طائلة .

اتسعت تجارات اليهود في خيبر وغيرها حتى استطاع الرجل الواحد منهم كأبي رافع الخيبري أن يسيّر قوافل تجارية لحسابه الى الشام . وهم نشروا في الجزيرة التعامل بالربا كما تقدم في أول الكتاب وأثروا إثراء ضخماً . وكلما مرت عِير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق في خيبر . وقد جعل المرزوقي زمنها بعد زمن سوق ذي المجاز أي بعد أشهر الحج وقبل أن تبتدىء سوق حجر .

سوق حجر

تقع بلاد اليمامة إلى غربي البحرين وجنوبي العراق . والطريق إليها من العراق وغيره طويلة شاقة . وقصبتها وأمّ قراها (حَجْر) وذكر اللسان أنها (الحَجْر) بالتعريف وحكى فيها الكسر أيضاً .

ينزل أمراء اليمامة وولاتها في حجر ، حيث السوق وحيث تجاب إليها الأشياء ، إذ هي مصر اليمامة عامة وفي وسطها . وهي في قاعٍ فيه نخيل وماء وكان به قصور في القديم حين كانت البلدة ذات شأن . وأصلها لبني حنيفة إلا أنها شركة كالبصرة والكوفة : لكل قوم فيها خِطة . لكن العدد فيها لبني عبيد من بني حنيفة وكان قد تحصن فيها مسيلمة الكذاب لما تبعته سجاح المتنبئة قبل أن يتزوجها ويقتسما الارض بينهما . وهي ذات شهرة في العرب ، اشتهرت منها زرقاء اليمامة التي ضرب المثل بحدّة بصرها واشتهر أيضاً منها عرّافها الذي كان يقصد من بعيد ، والذي روي فيه بيت عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

حَجْر من الأسواق المتوسطة ، يقصدها العرب لما يقصدون إليه بقية الأسواق من بيع وشراء وتناشد . ثم صار لها في الإسلام

ذكر مكرّر في أحاديث الأدب والأخبار لأنها دار جرير بن الخطفى الشاعر، وكثيراً ما كان ينزلها أيضاً ذو الرمة، وكانت في مأمن من السلطان، لبعدها. وبقيت سوقها حتى آخر العصر الأموي، وذكروا أن عمران بن حطان هرب من الحجاج إلى اليمامة فنزل بحجر.

كان يجري في هذه السوق قريب مما يجري في عكاظ من المفاخرة.

١ - منافرة

قال علي بن شفيع: «إني لواقف بسوق حَجْر، إذ أنا برجل عليه مقطّعات خزّ وهو على نجيب مهري، رجل من هيئته وحالته.. لم أر قط أحسن منه وهو يقول: «من يفاخرني؟»، من ينافرني ببني عامر بن صعصعة، فرساناً وشعراء وعدداً وفعالاً؟» قلت: «أنا.» قال: «بمن؟» قلت: «ببني ثعلبة بن... بن بكر بن وائل.» فقال «أما بلغك أن رسول الله ﷺ نهى عن المنافرة؟.» ثم ولّى هارباً. فقلت من هذا؟ فقيل: «عبد العزيز الكلابي.»

٢ـ جرير يبكي الفرزدق

ولعل أفحل من بها (وبغيرها) من الشعراء في الإسلام جرير ، كان إذا انتهى من أحداثه الشعرية في العراق أو الشام وملأ الأجواء بهجائه وفخره ، أوى إلى بلده وقومه الذينَ ينافح عنهم ، فأكرموا مثواه وطاروا بأشعاره ، وإن مجلس جرير ليعدّ أحد المشاهد في سوق حجر :

« كان يوماً جالساً بفناء داره في حجر فإذا راكب أقبل فقال له جرير : « من أين وضح الراكب ؟ » قال « من البصرة . » فسأله عن الخبر فأخبره بموت الفرزدق ، فقال :

هلك الفرزدق بعدما جدّعته[1] ليت الفرزدق كان عاش قليلا

فقال له المهاجر : « بئس ماقلت ، أتهجو ابن عمك بعدما مات ، لو رَثيته كان أحسن بك . » ففكّر قليلاً ثم قال : « والله إني لأعلم أن بقائي بعده لقليل ، وإن كان نجمي ليوافق نجمه ، أفلا أرثيه .. » فقيل له : « لو كنت بكيته مانسيتك العرب . »

ثم قال جرير من أبيات يرثيه :

(١) جدعه : قطع أنفه

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولاذات بعل من نفاس تبلّت[1]
هو الوافد المأمون والواثق الرضى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت . »

٣ - شاعر يطاف به مجلودا

هجا البعيث بطناً من باهلة يقال لهم بنو أصخب، فاستعدوا عليه إبراهيم بن عدي عامل الوليد بن عبد الملك ، فضربه بالسياط وأمر فطيف به في سوق حجر . ويراه جرير فيقول :

لئن هجوت (بني صخب) لقد تركوا للأصبحية في جنبيــــك آثارا
قوم هم القوم لو عـــاد الزبير بهم
لم يسلموه وزادوا الحبل إمرارا[2]

وهكذا كانت سوق حجر خاتمة المطاف لهذه النقائض الممتعة والحرب السجال الطويلة بين فحلين . فحل شعراء العرب ، استأثر سوق المربد بالبصرة بأكثرها وختمت هنا في حجر .

ففي هذه السوق إذاً ، أثارات مما كان يكون في عكاظ من بيع وشراء ومفاخرة ومجالس أدب .

كانت تقوم هذه السوق بين عاشوراء وآخر المحرم .

(١) صحت وعوفيت
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٢٢/٥ ـ الأصبحية : السياط

سوق دير ايوب

دير أيوب قرية بحوران من نواحي دمشق يزعمون أنها مسكن أيوب النبي عليـــه السلام ، وأن الله ابتلاه فيها ويزعمون أيضاً أن العين فيها هي التي ركضها برجله .

هذا ماذكره ياقوت . أما القرية فهي الى شمـال بصرى وغرب أذرعات (درعا) وتعرف اليوم باسـم (شيخ سعد)[1] ولا يزال الى اليوم فيها مقام للنبي أيوب وفيها العين التي أشار إليها ياقوت وهي من القرى الصغيرة في حوران ، قليلة النفوس والشأن .

ويظهر أن لها في القديم خطراً كبيراً يقارب مالبصرى فقـــد هبطتها منذ سنين بعثة أثرية (تشيكوسلوفاكيّة) ونقّبت في تربتها فعثرت على آثار رومانية قديمة ، حملت منها الى بلادها قسماً مهماً وكان في جملة ماعثرت عليه آثار حبشية ومصرية وأبقت منهـا نصباً في دار العظم بدمشق .

(١) انظر في ذلك (الطبوغرافية الأثرية لسورية وفلسطين) لدوسو ص٢٤٤

فالبلدة إذن ذات مكانة قديمة لعهد الجاهلية وصدر الاسلام .

ويذكر الطبري [١] أنه لما « انصرف مروان (الجعدي) منهزماً ، جمع قومه وجنده ، ومضى إليه أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق من معه وأسر ثلاثة رجال من ولده وهم نعيم ، وبكر ، وعمران فبعث بهم الى مروان . . . وهو بدير أيوب فأمر بمداواة جراحاتهم . » ثم ذكر ما يفيد أن مروان جعلها قاعدة حربية لتجهيز جنده و بعثهم الى الاطراف المنتقضة فيقول : « فأقبل نحو من عشرة آلاف ممن كان مروان قطع عليه البعث بدير أيوب لغزو العراق مع قوادهم حتى حلوا بالرُصافة [٢] . »

و بقيت دير أيوب من القرى المهمة في حوران حتى ضؤل شأنها كما ضؤل شأن بصرى وأذرعات وسائر حوران .

وهذه السوق أول أسواق الشام قياماً . فكان العرب وقريش اذا انتهوا من أسواقهم الموسمية : عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وأنهوا حجهم ورجعت وفود البلدان ، نظّموا عـيرهم وتهيؤوا للسفر الى الشام فأقاموا تجاراتهم فيها وبدؤوا بسوق دير أيوب هذه .

ومتى انتهوا منها وانقضت اعتدوا سبعين يوماً [٣] ثم أقاموا سوق بصرى .

(١) ٢:١٨٩٤ (٢) ٢:١٨٩٧ (٣) الأزمنة والأمكنة ٢:١٦٩

سوق بصرى

بصرى من مشارف الشام وهي عاصمة حوران ومن كبار مدن الشام منذ الزمن الأطول قبل الإسلام ، حتى إن اسمها ليتردد في كثير من أشعار العرب . وكان أهل الشام عامة على علاقات متواصلة مع سكان الحجاز ، لكثرة أسفار هؤلاء إلى الشام . وكان النبط كثيراً مايحملون تجاراتهم بين الحجاز والشام وينقلون الأخبار بين البلدين . بل إنا انجد لبصرى من الشهرة في الجاهلية مالانجد لدمشق نفسها ، لأنها كانت محطّ رحال تجار العرب من بلاد الشام يَقْدَمون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن . فكانت هذه العلائق سبباً في جريان الألسنة بذكرها دون دمشق التي لانكاد نعثر على ذكر لها في الأشعار القديمة .

كانت بصرى أيام الرومان على جانب من العظمة والمكانة وقد أنجبت أحد أباطرة الرومان : « فيليبس » الذي نصب إمبراطوراً سنة (٢٤٤) من الميلاد فقد كان عربياً من بصرى حوران . جاء في خطط

الشام [1] في صدد الكلام على حوران وعمرانها :

« ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران وأحصن مدن (باشان) ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في بلاد تلك المدينة من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع ميل وعرضها ميلا . ويحيط بالسور ربَض كثير المباني ، ومحيطها خمسة أميال ، لها سور عالي الجدران وثيق البنيان ، وقلعة لا أحصن منها في عامة بلاد الشام . ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه ، وشوارع رحبة ، وفيها مايفوق الوصف من غرائب الصناعة . وبدائع البناء ، وأساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، وركام الانقاض وبيوت الأقدمين. وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار إمبراطوراً وهو من أهـالي بصرى . والمشهد نصف دائرة قطره (٢٧١) قدماً وهو مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس . عـــدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة . وبعضها مايصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوروبة الآن . » اه

---

(١) ٥ : ٢٥٨

ونظراً لمركزها التجاري المهم وكونها سوقاً عامة للقوافل الآتية من جزيرة العرب وتوسطها بين أماكن قبائل النبط والبدو وغيرهم حصنها الرومانيون وعنوا بها عناية فائقة وجعلوا فيها الحاميات القوية لمراقبة قبائل الصحراء وحركاتهم ، فهي قلعة الرومان في وجه البادية والصحراء ، ومعقلهم يصدون منها ما قد تتعرض له الشـــام من هجمات القبائل .

انتظم سير القوافل التجارية العربية إلى بصرى قبل الإسلام بزمن طويل . وكان رحل إلى الشام فسكنها وماحولها : عرب من اليمن بعدحادث سيل العرم. وكانت تُزْعَم لها الشهرة قبل هذا الحادث أيضاً فقد جاء في الأغاني :

لما أرسل الله سيل العرم. على أهل مأرب قام رائدهم فقال : من كان يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأمير ، والديباج والحرير ، فليلحق ببصري والحفير ، وهي من أرض الشام فكان الذين سكنوه غسان . اه

ولما عظم أمر قريش صارت عيرهم ترد بصرى في مقدمة ما ترد من مدن الشام وتعددت أسفارهم إليها ، وليس في قريش تاجر إلا رحل اليها مراراً وعرفها حق المعرفة ، كما عرف أغلب مدن الشام ، فاستفادوا من خبرتهم بهذه

الديار فوائد جلّى لما بدأت الفتوحات بعد الإسلام . وفيما يذكر رواة الأخبار دليل على احتفال العرب ببصرى وسوقها ، فيروي الحافظ ابن عساكر مثلا عن الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله أحد العشرة أنه قال : « كنت في سوق بصرى ، فإذا راهب في صومعته يقول : « سلو أهل هذا الموسم : أفيهم أحد من أهل الحرم ؟» فقال طلحة : «نعم أنا» فقال : « هل ظهر أحمد بعد ؟ » .. الخ[1] فالموسم جامع للناس من أقطار شتى وأهل الحرم ممن يرد .

وكتب السيرة تذكر أن رسول الله ﷺ سافر إليها مرتين : مرة طفلاً ومرة تاجراً ابن خمس وعشرين سنة[2] وتزعم اجتماعه بأحد الرهبان في دير[3] هناك ، وأن الراهب دعا الى وليمته جميع من في العير ... مما يدل على

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٧٣

(٢) انظر ص ١١٣ من هذا الكتاب

(٣) جاء في مسالك الأبصار ١ : ٣٤٧ ما يأتي :

دير بصرى : هو بالشام ، وقيل هو الذي كان فيه بحيرى الراهب ، حكى المازني : قال : نزلت بدير بصرى . فرأيت في رهبانه فصاحة ، وهم عرب متنصرة من طيىء من بني الصادر ، أفصح من رأيت . فقلت لهم : مالي لا أرى فيكم شاعراً مع فصاحتكم ، فقالوا والله مافينا رجل ينطق بالشعر ، إلا أمة لنا كبيرة=

وجود العلائق بين الفريقين وتفاهمهم معاً باللغة العربية . بحيث يجوز لنا أن نعد كورة بصرى قطراً عربياً في الجاهلية . وقد راسل رسول الله ملك بصرى عاصمة حوران فأرسل إليه كتاباً مع الحارث بن عمير كما بعث الى غيره من الملوك . ولمـــا كانت خلافة أبي بكر لم يفت المسلمين شأن بصرى وعظمتها ، فكانت أول مافتحت صلحاً بعد حصار قليل، لما سار خالدبن الوليد من العراق لمدد أهل الشام وقدم على المسلمين وهم نزول ببصرى ، وضايقوا أهلها فصالحوهم ، على أن يؤدّوا عن كل حالم ديناراً وجَريب حنطة ثم افتتح المسلمون حوران جميعها وقد تمّ ذلك سنة ١٣ للهجرة . قال القعقاع بن عمرو يذكر أمر بصرى هذا وقد كان في الجيش المحاصر .

بدأنا بجمع الصُفّرين فلم ندع　　لغسان أنفاً فوق تلك المناخر

= السن . فقلت : جيئوني بها. فجاءت ، فاستنشدتها فأنشدتني لنفسها :

- أيا رفقة من آل بصرى تحملت　　تؤم الحمى لُقّيت من رفقة رشدا
إذا ما بلغتم سالمين فبلّغوا　　تحية من قد ظن أنْ لا يرى نجدا
وقولوا : تركنا الصادريّ مكبّلا　　بكبل هوى من حبكم، مضمرا وجدا
فياليت شعري هل أرى جانب الحمى　　وقـد أنبتت أجراعه بقلا جعدا
وهل أردنْ الدهر ماء وقيعة　　كأن الصبا تسدى عَلى متنه بُردا

فوهبت لها دريهات . وبت في ديرهم وأكرموا ضيافتي .

صيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذّهم بالبواتر
وجئنا الى بصرى بصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

ونحن - وإن لم يكن في يدنا نص عربي قديم يشير الى غناها وكثرة أرزاقها - نجد في شروط الصلح مايدل على وفرة خيراتها، حتى لقد ادّعى صاحب بصرى مرة أنه صالح المسلمين على طعام وخلّ وزيت فكذبه أبو عبيدة [1]. كما أن في كثرة ورودها على ألسنة الشعراء مايدل على شأنها، فإنا اذا أردنا التقصي تعذّر علينا إحصاء مافي الشعر القديم من مثل:

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا رسالتنا لُقّيتِ من رفقة رشدا،

وقول الصمة بن عبد الله القشيري:

نظرت وطرف العين يتّبع الهوى بشرقيّ بُصرى نظرة المتطاول

وقول المتلمس (وهذا كان له ولد يقال له عبيد المنان هلك ببصرى ولا عقب له):

لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق اذا ديس الكراديس

---

(١) طبقات ابن سعد

وقول الآخر :

ولو أعطيت من بلاد بصرى وقِنّسرين من عرب وعجم

وورد في كتب السيرة ذكر لقصور بصرى هذه .

* * *

لم ينقطع قيام سوق بصرى بعد الاسلام بل زاد أمد قيامها . وكان العرب في جاهليّتهم اذا انتهوا من سوق دير أيوب أقاموا سوق بصرى حيث كان يشرف عمال الرومان . وتطول مدة هذه السوق طولاً يتناسب هو وما قطعوا في سفرهم إليها من زمن . وقد بقيت تلك السوق حتى زمن المرزوقي (القرن الخامس الهجري) إذ ذكر أنه أدركها تقوم خمساً وعشرين ليلة ، ونقل أنها كانت تقوم بولاية بني أمية من ثلاثين ليلة الى أربعين وهي مدة طويلة ليس للعرب مثلها في عامة أسواقهم .

اشتهر لبصرى نوعان من البضاعة اختصت بهما. أما الأول فالخمر لأنها كانت من مدن الشام التي يحمل منها الخمـــر [١] ويتبجح العرب بذكرها . قال ابو ذؤيب الهذلي يذكر خمرتها :

سُلافة راح ضُمنتها إداوة مقيّرة رِدف لمؤخرة الرحل

(١) كذلك صرخد، وحلبون كانتا مشهورتين بخمرهما أيضاً .

تزودها من أهل بصرى وغزة   على جسرة مرفوعة الذيل والكفل[1]

وأما الثاني فالسيوف وقد اشتهرت بصنعها بصرى كما اشتهر كثير غيرها من قرى الشام التي تدنو من الريف حتى قيل للسيف « مشرفي » نسبة الى مشارف الشام وبصرى أحدها فتنتسب إليها السيوف البصرية قال الشاعر :

يعلون بالقلْع والبصريّ هامهم[2]

وقال الحصين بن حمام المري يصف خيل الغارة :

عليهن فتيان كساها مُحَرّق   وكان اذا يكسو أجاد وأنعما
صفائحَ بُصْرى أخلصتها قيونها   ومُطّرداً من نسج داوود معلما[3]

وأمر هذه السوق من إشراف ومكس ، الى عمال الروم عليها وكثيراً ما يكونون عرباً من غسان .

(١) مر شرحها ص ٣٤٥

(١) القلع : فأس صغيرة تكون مع البنّاء ، ومعدن ينسب إليه الرصاص الجيد . (٢) الصفائح : السيوف . والقيون : الحدادون . والمطّرد : الدرع . والمُعلم : ماعليه علامة .

سوق آذرعات

أذرعات بلد بالشام قرب البلقاء (وهي اليوم تعرف بدرعا) أمرها قريب من أمر بصرى وتليها في الشأن ، وعلائق العرب التجارية بها في الجاهلية كعلائقهم ببصري ، واستفاضتها على ألسن شعرائهم تشبه مابالبصرى ، من مثل قول امرىء القيس :

تنوّرتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عالي[1]

وقول الآخر :

وهيجتني من أذرعات وما أرى بنجد على ذي حاجة طرباً بعدا ؟

واشتهرت بخمرها في الشعر فقال أبو ذؤيب الهذلي :

فما إن رحيقٌ سَبَتْها التجا ر من أذرعات فوادي جَدَرْ

وقال :

فما فضلة من أذرعات هوت بها مذكّرةٌ عَنْس كهادية الضحل[1]

---

(١) تنوّر النار من بعيد : أبصرها . (٢) المذكّرة : الناقة العظيمة الرأس . والعَنْس : الناقة الصلبة . والضَّحْل : الماء القليل . وهادية الضَّحل وأتانه : صخرة على فم الرَّكيّة ، ملساء أو بعضها وبعضها غائر . ديوان الهذليين ١/٣٩ (طبعة دار الكتب المصرية) .

سلافة راح . . . الخ ، وتنسب إليها فيقال خمر أذرعية .

كان يحكمها في الجاهلية عمال للروم فلما جاء الإسلام صولح أهلها ونالوا عهداً لأنفسهم وبلدهم . فلما كانت جيئة عمر إلى الشام استقبلوه . قال عبد الله بن قيس :

« كنت بمن لقي عمر مع أبي عبيدة مَقْدَمَه الشام ، فبينا عمر يسير إذ لقيه المقلِّسون [1] من أهل أذرعات بالسيوف والريحان فقال عمر : « مه ، امنعوهم . » فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين هذه سنتهم ، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم . » فقال عمر : « دعوهم . »

تقوم هذه السوق بعد سوق بصرى بسبعين ليلة [2] . ويطول أمدها . والغالب أنهم يقيمونها مدى الصيف . وبقيت هذه السوق قائمة بعد الاسلام بكثير ، فقد أدركها المرزوقي ووصف طول قيامها بقوله : « وسوق أذرعات اليوم أطولها قياماً وربما لقيت الناس صادرين منها وأنا وارد . »

(١) التقليس : الضرب بالدُّف والغناء واستقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو ، وأن يضع الرجل يديه على صدره ويخضع ـ القاموس .

(٢) الازمنة والامكنة ٢ : ١٧٠ .

سوق الحيرة

لم يذكر هذه السوق أحد ممن تعرض لذكر أسواق العرب مع عظم شأنها وقصد تجار العرب إليها . وليس من المعقول أن تقصد قريش وأهل الطائف ، فارس، للتجارة فيها ولا يكون لهم أسواق موسمية في العراق وهي طريقهم وأهلها عرب .

إلا أن في الأغاني مايدلنا على أن بها سوقاً عظيمة موسمية ، قال أبو الفرج :

« خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر يريد الحيرة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة[1] . »

وبلدة كالحيرة بعيدة الصيت في جزيرة العرب ، يتحدثون بخصبها وعظمتها ومنازهها... وأحداث ملوكها بني نصر ، وعلاقتهم مع من جاورهم من العرب ، ويتحدثون عن الشعراء العظام الذين قصدوا ملوكها للنوال والهبات كالنابغة الذبياني والأعشى وحسان بن ثابت وغيرهم ... بلد كهذا لا بد أن يكون مرتبطاً بما جاوره من الأقاليم

---

(١) الاغاني ١٦ : ٩٥

ارتباطاً تجارياً وثيقاً ، وهي أولى من بصرى وأذرعات بأن يكون فيها للعرب أسواق عامة .

ويطلعنا التعمّق في التنقيب على أسواق ثانية تقام في أماكن من العراق ولا تقتصر على العرب وبضائعهم ، بل يخالطهم فيها أجانب من فرس وغيرهم ويحمل إليها متاع الهند وفارس كما يحمل إليها أمتعة الشام واليمن والبحرين فقد جـــاء في الطبري عند كلامه على فتوح العراق :

« سوق الخَنَافس سوق يتوافى إليها الناس ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم ... قال رجل من أهل الحيرة للمُثَنّى : « ألا ندلّك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى والسواد وتجتمع بها في كل سنة مرة ، ومعهم فيها الأموال كبيت المال ؟ وهذه أيام سوقهم ... » فصبّحهم في أسواقهم فوضع فيهم السيف...وأخذوا ماشاؤوا .وقال المثنّى : « لا تأخذوا إلا الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع إلا مايقدر الرجل منكم على حمله على دابّته . وهرب أهل الأسواق وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحر من كل شيء ...[1] »

* * *

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٢٠٣ طبع أوربة

الحيرة مدينة واسعة الشهرة منذ القديم · ذكروا أن بانيها بختنصّر ، وأنه بناها لتجار العرب الذين وجد بحضرته ثم صارت من بعده عاصمة ملوك العراق حتى إن الطبري ليذكر أن لها قبل الاسلام أكثر من خمسة قرون [1] · وموضعها الى شمال الكوفة على ثلاثة أميال منها · طيبة الهواء كثيرة البساتين · ردّد ذكرها الشعراء منذ الجاهلية وفتنوا بها وبخمرها وحاناتها وأديارها فكانت بحقٍّ مقصف العرب عامة. ونسبوا إليها فقالوا : (حاري) على غير القياس، وقالوا: (حيري) على القياس ، فمن الأول قول عمرو بن معد يكرب :

كأن الإثمد الحاريَّ منها   يسف بحيث تبتدر الدموع [2]

ومن الثاني قول بعضهم :

فلما دخلنـــاه أضفنا ظهورنا   الى كل حاريٍّ قشيب مشطَّب [3]

ولها تاريخ طويل يدل على قدمها وشهرتها قبل الإسلام وأنها كانت ميداناً لحوادث جسام ليس هذا مقام سردها فليرجع إليها في مظانّها .

(١) تاريخ الطبري ١ : ٧٤٨ طبع أوربة

(٢) الإثمد : حجر الكُحل . وأسفَّ الجرحَ دواءً : أدخله فيه .

(٣) الحاريّ : السيف ، والمعنى أنهم احتبوا بالسيوف ـ لسان العرب ، مادة (حير) .

وذكر ياقوت في سبب بنائها أن : « بختنصر قد جمع من كان في بلاده من العرب بها فسمتها النبط أنبار العرب ... فصار في الحيرة من جميع القبائل من مذحج وحمير وطيء وكلب وتميم وتنوخ ... فأهل الحيرة ثلاثة أصناف : فثلث : تنوخ وهم كانوا أصحاب المظال وبيوت الشعر ينزلون غربيّ الفرات بين الحيرة والأنبار فما فوقها . والثلث الثاني : العِباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها ، وهم قبائل شتى تعبّدوا لملوكها وأقاموا هناك ، وثلث : الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها .» وأشار الى بعض هؤلاء الشاعر :

وغزا تبّع في حِمْيَرَ حتى نزل الحيرة من أهل عدن

واشتهر في ظاهر الحيرة بناءان عظيمان هما قصر الخورنق وقصر السدير . وبقيت مسكن ملوك العرب من بني نصر ولخم حتى كان آخرهم المناذرة الذين انقضى ملكهم بالإسلام .

ارتباط هذه البلدة بفارس وخضوع أمرائها لهم وكثرة العلائق بين البلدين ، وسّع أفقها التجاري وأكثر فيها الغنى والترف وأحدث فيها نوعاً من الثقافة ليس في غيرها . فقد مرّ بك أن قريشاً تعلمت الكتابة من أهل الحيرة ، وأن الذي قرأ صحيفة المتلمس غلام حيري ، وأن النضر بن الحارث شيطان قريش تعلم من الحيرة أخبار ملوك

فارس وأحاديث دياناتهم وأساطيرهم فكان إذا جلس رسول الله يدعو قريشاً إلى الاسلام ويحذرهم ، خلفه في مجلسه فقص عليهم من أحاديثه التي نقلها من الحيرة ، وعلمت أن لقريش رحلات وقوافل تجارية الى الحيرة ، وأن للنعمان ملك الحيرة لطائم يجهزها الى عكاظ كل سنة . وهذا الاختلاط الشديد بين أهلها والفرس والأنباط جعل أنساب الحيريين في منزلة دون منزلة بقية أنساب العرب ، حتى إن من العرب من يُعيِّر بالنسب الى الحيرة . وانظر إن شئت ما كان بين قيس بن عاصم وعمرو ابن الأهتم بين يدي رسول الله ﷺ فقد جاء في الاغاني أن قيس ابن عاصم قال في عمرو : « والله يارسول الله ماهم منا ، وإنهم لمن أهل الحيرة !! » وقال فيه :

لولا دفاعي كنتمُ أعبداً   مسكنها الحيرة فالسَّيْلَحون

فقال عمرو بن الاهتم متأثراً بهذا التعيير الذى لم يجد له ما ينفي به إلا أن ينسب خصمه الى الروم : « بل هو يارسول الله من الروم وليس منا . » ثم قال :

إن تبغضونا فإن الروم أصلكُم   والروم لاتملك البغضاء للعرب[١]

هـــذا وإن نحن استرشدنا بنتفٍ من الاخبار تأتي عرضاً في

(١) الاغاني ١٢ : ١٥٠

مطاوي الكلام ، عرفنا أن للحيرة شأناً تجارياً ممتازاً ، وأن عادة العرب جرت منذ القديم بالمتاجرة الى الحيرة ، وأنها كانت تؤمها القوافل الكبرى التي تقصد البرّ حاملة متاجر الهند من عُمان الى الشام ، فكانت الحيرة محطة كبرى لتلك القوافل المحمّلة . وكان أكثر الطُرّاء عليها تجاراً يختلفون إليها[1]

ولما قتل الشُّيظم بن الحارث الغساني رجلاً من قومه وهرب الى الحيرة تظاهر بأنه « رجل من خيبر أقبل إلى هذه البلدة بتجارة[2] . »

وخرج خمسة نفرٍ من طيء من ذوي الحجا والرأي يريدون سواد بن قارب الدوسي ليمتحنوا علمه .. « فأهدوا اليه طرفاً من طرف الحيرة فضرب عليهم قبة ونحر لهم ..[3] »

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن الأعشى باع في سوق الحيرة « كِرْشاً مدبوغة مملوءة عنبراً بثلاثمائة ناقة حمراء[4] »

مما تقدم ، ومما سنذكره بعد قليل ، يتبين أن للحيرة مع شأنها التجاري شأناً صناعياً راقياً حتى صارت طرفها مما يتهادى به ، وليس

(١) الطبري ١ : ٢٦٧٧ . (٢) الامالي : النوادر ص ١٧٩ طبعة دار الكتب المصرية . (٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٨٩ . (٤) الاغاني ٩ : ١٢٥ دار الكتب .

هذا بغريب فإن اختلاطها الواسع بفارس جعل اهلها يحذقون صناعات كثيرة مما أفادوه من الايرانيين « والمعروف أن سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الإسلام »[١]

يعرض في هذه السوق الأدم والعطر والبرود والجواهر والخيل والاموال وسائر مايعرض في بقية أسواق العرب ، مما يحمل من الشام أو اليمن أو عمان أو الحجاز أو البحرين أو الهند وفارس ، عدا ما يحمل الاعراب اليها من إبل وشياه وقرود أحياناً[٢]

وفيها أيضاً إلى هذا ، أدب وشعر وخطابة ومنافرات ومماجدة كما يكون في غيرها من الأسواق ، وسنعرض لبعض مايجري فيها بعد قليل .

فلما كان الإسلام تضاءل شأنها التجاري ، وانصرف الناس الى الفتوحات فلم يمض القرن الأول للهجرة حتى صارت الحيرة ذات لون أخّاذ يفتن الشبان وأهل اللهو والمجون . فطار لها صيت بعيد سائر في منازهها وخمرها وحاناتها[٣] وأديارها ، وصرنا بعد هذا

(١) زكي حسن (مجلة المقتطف ، عدد يوليو سنة ١٩٣٨ ص ٢٣٣)

(٢) الأمالي : ٢ : ٤٤ . وانظر تاريخ ملوك الحيرة الأعظمي ص ١٣٦

(٣) عقد صاحب مسالك الابصار فصلا في كتابه عن حانات الحيرة فارجع اليه في ١ . ٢٨٩ - ٢٩١ وكذلك من في أديارها .

الزمن لانجد ذكراً للحيرة إلا حيث مجلس شراب ، وجماعة قصف وبذخ ، وخليفة يخرج للترويح عن النفس ، وفتيان سئموا حياة الجد فخرجوا الى الحيرة فنزلوا أحد أديرتها أو إحدى حاناتها فذبحوا وطعموا وشربوا وغنّوا وأنشدوا . وأثري أصحاب الحانات من وراءذلك إثراءعظيماًفصاروا يتنافسون بتجويدالخمر،وجذبالزائرين حتى كثر الذين ذهبت ثرواتهم وفدَحهم الدَّين من جراءخمرة الحيرة .

« ولما حرّم بعض امراء الكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة وركب فكسر نبيذهم . . جاء بكر بن خارجة يشرب عندهم على عادته، فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق ، فبكى طويلاً وقال شعراً [1] ويظهر ان الأمراء لم يشدّدوا على الخمارين حتى رأوا من إقبال الفتيان عليهم الشر المستطير ، وحتى كان رجال كأبي حية النميري يشربونها في الحيرة بنسيئة ، وصارت السُّكْرة في الحيرة إحد المنى الغالية :

هل إلى سكرة بناحية الحيـ ـرة يوماً قبل الممات سبيل!؟

أما بساتين الحيرة فحدّث ولاحرج عما فيها من منازه نضرة وفتنة تحيّر اللب وتأسر العقل ، وحسبك أن تعلم أن إبراهيم الموصلي

(١) الأغاني ٢٠ : ٨٧ .

خروج في ركب الرشيد إلى الحيرة ، فلما نام الرشيد اغتنم غفلته فركب يدور في ظهر الحيرة فنظر الى بستان فقصده ، فإذا على بابه شاب حسن الوجه . . وإذا جنة من الجنان في أحسن تربةوأغزرها ماء ... فقال فيه :

جنان شُماري ليس مثلك منظر ... لذي رَمَدٍ أعيا عليه طبيب
ترابك كافور ونَوْرك زهرة ... لها أرَج بعد الهُدُوّ يطيب

ثم صنع فيه لحناً وغناه الرشيد ، فأعطاه ثمن البستان أربعة عشر ألف دينار .

لم نهتد إلى الزمن الذي تقوم فيه هذه السوق . أما رَيْع الطريق فقد جعله النعمان طُعْمة لبني لام من طيء لأنهم أصهاره [1] ونظراً لوقوع هذه السوق في سلطة المناذرة كانت كانت عشورها اليهم لأنهم هم المسيطرون عليها . والأمر فيها على كل حال اكمل وأتم من بقية الأسواق من حيث النظام والأمن لأنها في ارض مملكة .

واليك الآن مشاهد مما كان يجري في تلك السوق على سبيل المثال ، ولا تعجب إذا كان اكثرها في الخمرة لأن الخمرة والنضرة والعزف والشعر والغناء ، هن الطابع الخاص للحيرة :

(١) المصدر نفسه ١٦ : ٩٥

١ - منافرة عامية

خرج الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، ومعه عطر يريد الحيرة، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كل سنة . فمر بحاتم بن عبد الله الطائي ، فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصير الى الحيرة ، فأجاره . ثم أمر حاتم بجزور فنحرت وطبخت أعضاء فأكلوا .

ومرّ حاتم بسعد بن حارثة بن لام (وكان النعمان جعل ربع الطريق لبني لام لأنهم أصهاره) وليس من بني أبيه غير ابن عمه ملْحان ، فوضع حاتم سُفْرته وقال : « اطعموا حيَّاكم الله . » فقالوا : « من هؤلاء معك ياحاتم ؟ » قال : « هؤلاء جيراني . » قال له سعد : « أفأنت تجير علينا في بلادنا ؟ » قال له : « أنا ابن عمكم وأحق من لاتخفرون ذمته . » فقالوا : « لست هناك . » وأرادوا أن يفضحوه كما فُضح عامر بن جُوَيْن قبله ، فوثبوا إليه ، فتناول أحدهم حاتماً فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبة أنفه ، ووقع الشر حتى تحاجزوا ، فقال حاتم :

ودِدت وبيت الله لو أن أنفه ... هواءٌ كما مت المخاط عن العظم
ولكنما لاقاه سيف ابن عمه ... فآب ومَرّ السيف منه على الخَطْم[1]

فقالوا لحاتم : « بيننا وبينك سوق الحيرة فنماجدك ونضع الرُّهُن . »

ثم نفذوا ما قالوا فوضعوا تسعة أفراس رهناً على يد رجل من كلب ، ووضع حاتم فرسه ثم خرجوا حتى انتهوا الى الحيرة .

وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائي ، فخاف أن يعينهم النعمان ويقويهم بماله وسلطانه للصهر الذي بينهم وبينه ، فجمع إياس رهطه من بني حيّة وقال :

---

(١) الخطم : الأنف

« يابني حية إن هؤلاء القوم أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم في جِواده . » فقال رجل منهم : « عندي مئة ناقة سوداء ، ومئة ناقة حمراء أدْماء » وقام آخر فقال : « عندي عشرة حصن ، على كل حصان منها فارس مدجّج لا يرى منه إلا عيناه »

وقال حسان بن جبلة الخير :

« قد علمتم أن أبي قد مات وترك مالاً كثيراً ، فعليّ كل تمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة ! »

ثم قام إياس فقال : « عليّ جميع ما أعطيتم كلكم . »

وكان حاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا . فذهب الى مالك بن جبار ابن عم له بالحيرة كان كثير المال ، فقال : « يابن عم ، أعنّي على مخايلتي (مفاخرتي) » فقال مالك : « ما كنت لأخرب نفسي ولا عيالي وأعطيك . » فانصرف عنه .

ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم يومئذ مصارماً له لا يكلمه ، فقالت له امرأته : « أيْ وهم ! هذا والله أبو سَفّانة حاتم ، قد طلع . » فقال : « مالنا ولحاتم ، ثبّتي النظر . » فقالت : : « حاتم ! » قال : « ويحكِ ، هو لا يكلمني ، فما جاء به إليّ ؟ » فنزل حتى سلّم عليه فرد سلامه وحياه ثم قال : « خاطرت على حسبك وحسبي . » قال : « في الرحب والسعة ، هذا مالي (وعِدّته يومئذ تسعمائة بعير) تأخذها مئة مئة ، حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . »

فقالت له امرأته : « أنت تخرجنا عن مالنا وتفضح صاحبنا (تعني زوجها) ؟ » قال :

« اذهبي عني فوالله ما كان الذي غمّك ليردّني عما قبلي . »

ثم إن إياس بن قبيصة قال : « احملوني الى الملك . » وكان به نِقرِس ، فحمل حتى أدخل عليه . فقال : « أنعم صباحاً أبيت اللعن . » فقال النعمان : « وحيّاك إلٰهك . » فقال إياس :

« أتمد أختانك بالمال والخيل وجعلت بني ثعل في قعر الكنانة ؟[1] أظنّ

---

(١) الأختان : الاصهار . والكنانة : جعبة السهام .

أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوَيْن ، ولم يشعروا أن بني حية بالبلد ؟ فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفحَ الوادي دماً ، فليحضروا لجادهم غداً بجمع العرب . »

فعرف النعمان الغضب في وجهه وقال له :

« يا أحلمنا لا تغضب فاني سأكفيك . »

وأرسل النعمان الى سعد بن حارثة والى أصحابه : « انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه ، فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تبذّرونه ، وما أطيق حمه

فخرج بنو لام الى حاتم فقالوا له : « أعرض عن هذا الجاد . » وتركوا أرْش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا :

« قبحها الله وأبعدها ، فانما هي مقاذيف . »

فغدا اليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس[1].

٢ ـــ حرمة شاعر في ولده

قدم لَبَطة بن الفرزدق الحيرة فمرّ بقوم من بني تغلب فاستقراهم فقرَوْه ثم قالوا له : « من أنت ؟ » قال : « ابن شاعركم ومادحكم ، أنا ابن الذي يقول :

أضحى لتغلب من تميم شاعر   يرمي الأعادي بالقريض الأثقل[2]

(١) الاغاني ١٦ : ٩٥ . والأرش : الدية .

(٢) ثفله : نثره بمرة واحدة . وثفل الرحى : وضع تحتها ما يقيهـــا من الارض ولا يثفلون الرحى إلا إذا كانت طاحنة .

إن غاب كعب بني جُعَيْل عنهم وتنمّر الشعراء بعـــد الأخطل
يتبـــاشرون بموته ووراءهم مني لهم قِطَعُ العذاب المرسل.»

فقالوا له : «أنت ابن الفرزدق إذن؟» قال : «أنا هو.» فتنادوا : «يا آل تغلب ، اقضوا حق شاعركم والذائد عنكم في ابنه.»
فجعلوا له مئة ناقة وساقوها اليه فانصرف بها[1].

٣ ـــ علوط

شرب طُغَيْم الأسدي بالحيرة ، فأخذه العباس بن مَعْبد المُري، وكان على شُرَط يوسف بن عمر ، فحلق رأسه ، فقال :

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلّط إذا حلف الأيمان بالله برّتِ
لقد حلقوا منا غُدافاً كأنها عناقيد كرم أينعت فاسبطرّت[2]
يظلّ العذارى حين تحلق لمتي على عجل يلقُطْنها حين جُزّت[3]

٤ ـ حمارة وشرطي

كان الأُقَيْشِر الشاعر يكتري بغلة أبي المضاء المُكاري فيركبها الى الخمّارين بالحيرة ، وكان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم : يجعل درهمين في كري بغل الى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهماً للطعام .. فيقال إنه دفع ثمن البغل في الكراء[4] .

(١) الاغاني ١٩ : ١٣ .
(٢) الغداف الأسود : يعني شعره . واسبطرت : طالت وامتدت .
(٣) الاغاني ٨ : ١٧٩ (دار الكتب) . واللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن . وجز الشعر : قصه .
(٤) الاغاني ١٠ : ٨١ .

شرب يوماً في بيت خمار بالحيرة فجاء شرطي من شرط الامير ليدخل عليه ، فغلّق الباب دونه ، فناداه الشرطي : « اسقني نبيذا وأنت آمن » فقال : « والله ما آمنك ، ولكن هذا ثقب في الباب فاجلس عنده ، وأنا أسقيك منه . » ثم وضع أنبوباً من قَصَب في الثُّقْب وصبّ فيه نبيذاً من داخل ، والشرطي يشرب من خارج البـــاب حتى سكر ، فقال الأقيشر :

سالني الشرطي أن نسقيَه   فسقينـاه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنـــا   فسلوا الشرطي ما هذا الغضب[١]

٥ - مسخ

قد جرت الطير أيامنينا
قالت - وكنت رجلا فطينا - :
هذا ورب البيت إسرائينا[٢] .

قال أبو بكر في كتاب المتناهي في اللغة : « هذا أعرابي أدخل قرداً الى سوق الحيرة ليبيعه ، فنظرت اليه امرأة فقالت : « مسخ » فقال هذه الابيات .

(١) الاغاني ١٠ : ٨٦ . هذا وقد قال عبد الملك بن مروان للأقيشر : « أنشدني أبياتك في الخمرة . » فأنشده :

تريك القذى من دونها وهي دونه   لوجه أخيها في الإناء قطوب
كميت اذا فضت في الكأس وردة   لها في عظام الشـــاربين دبيب

فقال : « أحسنت ، ولقد أجدت وصفها ، وأظنك قد شربتها ! » فقال : « والله يا أمير المؤمنين إنه ليريبني منك معرفتك بهذا !! » .

والقذى : الوسخ في الشراب . والكميت : الاشقر .

(٢) الامالي ٢ : ٤٤ وإسرائين : اسرائيل ، أوردها القالي في فصل (ماتتعاقب فيه اللام والنون) .

٦ ـ وطنية صادقة

أختم الكلام عن الحيرة بهذا الدرس البليغ الذي ألقاه علينا أحد فتيان الحيرة منذ ثلاثة عشر قرناً في حب الوطن ونصرته . وهو درس عملي يخلق بقادة الفكر وزعماء العرب أن يستفيدوا منه فيكونوا قدوة في الوطنية العملية الحقيقية .

بلغ العرب في الاعتماد على أنفسهم والاقتصار على صناعاتهم في جميع شؤونهم أمراً عجيباً ، حتى إن بلدة كالحيرة ليست من البلدان الكبرى حينئذ في الأقطار الاسلامية ، استطاع أهلها أن يعتمدوا على محصول بلدتهم ويكتفوا به في كل حاجاتهم حتى الكمالية منها . نرى ذلك في هذا الخبر الطريف الذي سنرويه لك عن الاغاني ونودّ لو جرؤنا على تقليد أسلافنا في مكرمتهم تلك ، إذاً لكنا حذقنا درساً في الإخلاص الصادق للوطن ، ولما استعبدتنا أموال الغرب وشركاته ، ولما كنا جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً ، جنوداً لهم ـ على رغم أنوفنا ـ نوطّد أقدامهم في بلادنا بما نتهافت على استهلاكه من بضائعهم ، وبما يطير من جيوبنا الى خزائنهم ومصانع أسلحتهم من أموال باهظة ، لا داعي الى تبذيرها إلا التقليد الأعمى وقشور التمدن السخيف والترف الكاذب ، واليك هذه الطرفة الثمينة :

« كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة أيام بني أمية ، فقال له رجل من أهلها وكان عاقلا ظريفـاً : « أتعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والإسلام ؟ » .

قال : « وبماذا تمدح ؟ » قال : « بصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها : تصلح للخف والظلف ، سهل وجبـل ، وبادية وبستان ، وبر

وبحر . محل الملوك ومزارهم ومسكنهم ومثواهم ، وقد قدمتها أصلحك الله مُخِفاً فرجعت مُثقِلاً وزرتها مقلاً فأصاورتك مكثراً . » قال : « فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل ؟ » قال : « بأن تصير إليّ ، ثم ادع ما شئت من لذائذ العيش فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه ! » .

قال : « فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك » قال : « أفعل . »

فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها ، وما صيد من وحشها : من ظباء ونعام وأرانب وحُبارى . وسقاهم ماءهـا في قلالها ، وخمرها في آنيتها ، وأجلسهم على رَقمها (وكان يتخذ بها من الفُرُش أشياء ظريفة). ولم يستخدم لهم حراً ولا عبداً إلا من مولّديها ومولّداتها من خدَم ووصائف كأنهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غناهم حنين (الحيري) وأصحابه في شعر عدي بن زيد شاعرهم وأعشى همْدان ، لم يتجاوزهما ، وحياهم برياحينها ، ونقّلهم على خمرها ، وقد شربوا بفواكهها . ثم قال له : « هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وافترشت وشممت وسمعت بغير ما في الحيرة ؟ » .

قال : « لا والله ، ولقد أحسنت صفة بلدك ونَصَرْته فأحسنت نصرته والخروج مما تضمّنْتَه ، فبارك الله لكم في بلدكم[1] . »

(١) الاغاني ٢ : ٣٥٩ (دار الكتب)

الظلف : للبقر كالخف للبعير وكالحافر للفرس . والحبارى : طائر طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض طول . والرقم : ضرب مخطط من الوشي أو الخز . والوصائف جمع وصيفة : وهي الجارية البالغة حد الخدمة وكذلك الوصيف . ونقلهم : أطعمهم النقل ، والنقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح وغيرهما .

أسواق العرب

ب ـــ في الاسلام

الاسواق في الاسلام

لم يعد ـ وقد تحضر العرب ـ من حاجة إلى مواسم وأسواق على ما كان عليه الحال في الجاهلية ، لأن العرب سكنت المدن الكبار من بلاد الشام والعراق ومصر وفارس والروم، ومصّرت هي لأنفسها أمصاراً عظم شأنها مع الزمن كالكوفة والبصرة وبغداد والقيروان ...

فصارت تستغني كل مدينة بأسواقها الدائمة عن أسواق المواسم، وكفى الله العرب مؤونة الترحال بين أسواق الجزيرة ، بما فتح عليهم وسهّل من تجارات تأتيهم إلى مدنهم ، بحيث يجدون في كل بلد عُروضَ كثيرٍ من البلدان . وعدل الذين يعانون التجارة منهم عن أسفار البوادي إلى أسفار البحار . وأصبح من المنتظر تضاؤل الأسواق الجاهلية بتضاؤل آثار البداوة من حياة العرب ، وانتقلوا إلى حضارة وارفة الظلال ريّانة الجنبات يأتيهم فيها رزقهم رغداً من كل مكان ، فامّحت أسواق الجاهلية قبل انقضاء القرن الثاني للهجرة ورسخت أقدام التجارة في المدن والثغور .

ولكنْ سوقاً واحدة نشأت في الإسلام احتفظت بكثير من خصائص أسواق الجاهلية ، وزادت عليها بميزات واسعة أسبغتها الحضارة الجديدة واقتضتها حاجات الرقي الحديث : تلك هي سوق المِرْبَد في البصرة ، السوق التي استطاعت أن تكون مرآة تعكس حياة العرب في الجاهلية كما تصوِّر حضارتهم في الإسلام . وسنرى كيف استطاعت هذه السوق أن تصهر الحياتين معاً في بوتقة واحدة ، لتصوغ منهما هذه الحِلْية العجيبة التي نعرضها عليك الآن :

البصرة ـ المربد

يتقاضانا الكلام على المربد أن نصف البصرة ، المدينة التي كان المربد سوقها العامة ، نظراً لمكانتها التجارية ، إذ أنها ثغر العراق في الإسلام . وليس من المستطاع أن نفهم المربد على حقه إذا لم نعرف أحوال بلده البصرة ، وسيغنينا هذا التمهيد عن شروح وحواشٍ كثيرة عند كلامنا على المربد نفسه .

مصِّرت البصرة سنة (١٧) أيام عمر بن الخطاب « في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم كما أمر الخليفة عمر رحمه الله » ، وكانت في الجاهلية من ثغور العراق ، فيها خليط من أمم شتى ، فرس ويونان أحلهم فيها الاسكندر ، وهنود انتشروا في بطائحها ، وقد نزلها العرب منذ القديم ، كما فيها أنباط غير قليلين . وكانت هي والأُبُلَّة مركزين للتجارة الداخلية والخارجية ، وكان يرتادها تجار العرب ، وتردد عليها أبو بكر الصديق في الجاهلية مرات .

ولم تكن على عهد الراشدين بالمدينة الكبيرة، لحداثة نشأتها العربية ، وكانت مستوخمة رديئة الهواء والماء ، ليست بالخصبة ولا الغنية ،

حتى اضطر عمر إلى أن ينظر إلى أهلها نظر رحمة ، حينما شكوا إليه أمرهم ، فقد جاء في فتوح البلدان[1] :

« قدم الأحنف بن قيس على عمر في أهل البصرة فجعل يسألهم رجلاً رجلاً والأحنف في ناحية البيت ، في بَت[2] لا يتكلم فقال له عمر : « أما لك حاجة ؟ » قال :

« بلى يا أمير المؤمنين : إن مفاتح الخير بيد الله ، إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العَذْبة والجنان الملتفّة ، وإنا نزلنا سَبْخة بشّاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأُجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنا زرْع ولا ضرْع ، يأتينا منافعنـــا وميرتنا في مثل مريء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فتربق[3] ولدها كما تربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع ، فإلا ترفعْ خسيستنا وتجبرْ فاقتنا نكن كقوم هلكوا . »

---

(١) ص ٣٥٦

(٢) البتّ : طيلسان من خز .

(٣) ربقه : ربطه بالرِبق وهو حبل فيه عدة عُرى .

فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء . وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهراً .

هذه بداية أمر البصرة وقد ظلت على حالها ، لم تترقَّ منها إلى خير منها ، حتى صدراً من أيام الأمويين ، ومضت خلافة معاوية ولم ينفرج ضيق أهلها تمام الانفراج فقد قدم الأحنف أيضاً على معاوية وافداً لأهل البصرة يستعطفه لهم ، وكان فيما وصف به أهلها قوله : « أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحُول ، فالمكثر فيها قد أطرق ، والمقلّ قد أملق ، وبلغ منه المخنّق[1] . »

وبانقضاء عهد الفتن فيها واستقرار الأمر بمثل زياد وابنه والحجاج ، انصرف أهلها لشؤونهم فعكفوا على الزراعة والتجارة وانتعشوا واستفاض لهم زرع ونخيل وتجارات ، فمن ثَمّ عدّت البصرة من أكبر ثغور الإسلام قاطبة .

أما الهواء فيها فرديء وكذلك الماء فهو غير عذب ، حتى إنهم

(١) زهر الآداب ١ : ٨٧ (الطبعة الثانية – مبارك) المحول جمع مَحل : وهو القحط . والذُحول جمع ذَحل : وهو الثأر : يعني أنهم تفانوا لكثرة الحروب والفتن بينهم . وأطرق : غضّ بصره حياء لأنه لا يجد ما يعطي . وأملق : افتقر .

ليجلبونه من المسافات البعيدة . وقد حفرت فيهـــا أقنية وجداول كثيرة تتشعب عن النهر الأعظم ، ووصف الأقدمون كثرتها وصفاً نكاد لانصدقه . جاء في مسالك الممالك للإصطخري :

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم ، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر ، ومصّرها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل كلها . ويحيط بغربيّها البادية ، وليس فيها إلا أنهار . وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عُدّت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على (١٢٠٠٠٠) نهر « كذا ! ! » تجري فيها الزوارق . وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهـــار في أيام بلال . حتى رأيت كثيراً من تلك البقـاع ، فربما رأيت في مقدار رَمية سهم ، عدداً من الأنهار صغـــاراً تجري في كلها زواريق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي ، فجوّزت أن يكون ذلك في طول هـذه المسافة وعرضها . وأكثر أبنيتها بالآجر (هذا على عهد الإصطخري في القرن الرابع الهجري) وهي من بين سائر العراق مدينة عُشْرية ، ولها نخيل متصلة من عَبْدس إلى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً متصلاً لا يكون الإنسان منه في مكان إلا

بحيث نهر ونخيل أو يكون بحيث يراهما ، وهي في مستوى لا جبال فيه ولا بحيث يقع البصر على جبال ... وبها نهر يعرف بنهر الأبُلَّة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبلة[١] ، وعلى حافتي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدّت على خيط واحد . ويتشعّب هذا النهر إلى أنهار كثيرة ، فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر ... وهذه الأنهار كلها مخترقة بعضها إلى بعض وكذلك عامة أنهار البصرة حتى إذا جاءهم مدّ البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير تكلّف ، فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الانهار ، إلا أن الغالب على مائهم الملوحة وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر مَعْقِل ثم يعذُب فلا يضره ماء البحر . »

ونحن مَعْنِيّون بأن نعرف عن البصرة ميناء العراق الأكبر ، تفاصيل مُسْهبة لانها سوق العراق العامة يومئذ ، فلا غنى لنا عمن شاهدها ونعتها لنقف على مكانتها وسعة غناها . ولولا هذه الصفات

(١) قال في القاموس : الأبلة : موضع بالبصرة ، أحد جنان الدنيا

التي وصلتنا عن الاقدمين في مختلف حالاتها ، لما استطعنا أن نعلم التدرُّج الذي ترقَّت فيه البصرة من الاملاق إلى الثروة . ثم صار لهذه الأرض السبخة القفرة على عهد عمر ، الشأن العظيم والمكانة البعيدة في نفوس الكبار حتى قال زياد : « لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها !(١) » .

والذين نعتوها متفقون على رداءة هوائها مع سعة عيشها ، فقد روى ابن عبد ربه عن أبي العباس أنه قال : « إنما مثل الكوفة مثل اللهَاة من البدن ، يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة مثل المثانة يأتيها الماء بعد تغيُّر وفساد . » وقال الحجاج: « الكوفة

(١) العقد الفريد ٤ : ٢٦٥ . هذا وقد ألف العلماء في البصرة وخططها وأسواقها وأخبارها تواليف مستقلة لم نطلع عليها . وحسبك أن ابن حزم الظاهري وهو أندلسي في أقصى المغرب يقول في رسالته في فضل الأندلس:

«... ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة ، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريزي النسب ، وصفاها وذكرا أسواقها ومحالها وشوارعها . » — نفح الطيب ٢/١٢٩

فاذا كان ما اطلع عليه ابن حزم في أقصى المغرب أربعة كتب فقط ، فمن المحتمل أن تزخر مكاتب الشرق بالكتب عن البصرة .

بكر حسناء والبصرة عجوز بَخراء أوتيت من كل حلْي وزينة[1] .

وسماها الناس ، لتقلب هوائها بالرّعناء قال الفرزدق:

لولا أبو مالك المرجوّ نائله   ماكانت البصرة الرعناء لي وطنا

والرعونة الحمق والاسترخاء .

إلا أن وخامتها لم تمنع أن يتكاثف فيها السكان ويطّرد لها النموّ ، حتى أصبحت كما وصفها جعفر بن سليمان بقوله : « العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق . »

انقضى القرن الهجري الأول والبصرة قد قطعت شوطاً بعيداً في الازدهار ، ولم تستقرّ الأمور لبني العباس في عهد المهدي ومن بعده حتى صارت البصرة « باب[2] بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ، نظير مرسيلية اليوم بالنسبة إلى فرنسة ، أو جنوة لإيطالية ، أو ليفربول لبلاد الانكليز . بل امتازت البصرة على تلك المراسي بنصيب أوفر وحظ أكبر إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب ، من مجاهل

---

(١) المصدر نفسه . وانظر أيضاً ما جاء في أحسن التقاسيم وفي رحلة ابن بطوطة من تقلب هوائها وعفنها . اللهاة : المنة المطبقة فى أقصى سقف الفم . والبَخَر : نتن ريح الفم .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب (مجلة المجمع العلمي العربي) ١٢ : ٣٢١

الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى ، ولذلك استفحل بها العمران وكثرت فيها المصانع والصناعات ، وصارت واسطة العرب والعجم وحُق لها أن تتلقّب « بقبة الإسلام » كما سماها عمر بن الخطاب. ناهيك ببلد جمع لحسن الموقع أضداد الأشياء وأشتات الأرزاق ومختلف المكاسب والمطالب ...

اشتهر أهل البصرة من قديم بالتطوّح في الآفاق والترامي على الأسفار البعيدة والضرب في مناكب الأرض طلباً للرزق والتماساً للثراء (اشتهاراً) جعل الجاحظ يصرّح : « بأنه ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت واجد به البصري والمدني[1] » وقد اتفقت كلمة السائحين وأصحاب الرحلات على بعد همة البصريين في الترحال وغَوْرهم في الاغتراب حتى قال أبو بكر الهمذاني ـ وناهيك به من خبير ـ : « وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى [شرقاً] والسوس الأقصى [غرباً] فلا بد أن يرى فيهما بصرياً أو حميرياً[2]. » اهـ ملخصاً .

---

(١) البخلاء (طبعة مصر سنة ١٣٢٣) ص ١٦٠

(٢) البلدان للهمذاني (ليدن) ص ٥١

وكثرت الأصناف المجلوبة إلى البصرة من عامة الأقطار حتى لقّبت بحق بـ (خزانة العرب[1]) واستطاع أحد أبنائها وهو الجاحظ، أن يؤلف في بضائع البصرة كتاباً مستقلاً يذكر فيه الأحجار الثمينة كالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد . . الخ والطيب والعطر والروائح الطيّبة والوشي والفرش وما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري وما يختار من البزاة والشواهين والبواشق والصقور . . . يبتدىء بصفة النوع وما يستجاد منه ومن أين يجلب وأين أحسنه . والجاحظ كما نعلم لم يرحل إلى الهند ولا إلى فارس ولكنّ عنده في بلده تجارات تلك الأمم كلها . ولا نكون إلى الغلوّ إذا قلنا إن البصرة في عصر العباسيين الذهبي كانت سوق العالم قاطبة .

ولم يقصّر البصريون في الزراعة بل عكفوا عليها وجوّدوها حتى اختصّوا بمعرفة النخيل وضروبه وأصول غراسه اختصاصاً فاقوا به كل أحد . قال الهمذاني في كتابه البلدان : « ولأهل البصرة من النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كُوَر النخيل، وذكر الجاحظ أنهم أحصوا أصناف نخيل البصرة دون نخل المدينة ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان

(١) انظر تاج العروس .

ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها والأهواز وما بها ، أيام المعتصم ، وإذا ثلاثمائة وستون ضرباً من مُغَلّ معروف وخارجي موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب . »

وهذا افتنان غير قليل في إجادة الزراعة يدل على حذق بها ورقي بالغ . وذلك عدا ما شهرت به من الأسماك وأنواع اللحوم والألبان والأقطان وسائر التجارات .

ولها إلى ذلك شهرة أخرى تعنينا هنا في بحثنا كثيراً ، وهي ما استفاض فيها من علوم ولغة وأدب وشعر حتى صارت تقصد لذلك دون سائر البلاد ، وكثر فيها العلماء والشعراء والادباء والكتاب والفقهاء والقراء ... كثرة تستعصي على الإحصاء ، وسنلمّ بذلك في كلامنا على سوقها الكبرى : المربد .

ولم تخل إبّان ازدهارها من أن تكون متعة للناظرين ومنازه للمتفرجين ، واشتهر فيها وادي القصر الذي قال فيه الجاحظ :

« ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكافور ، ورأى ضباباً تُحتَرَش ، وغزلاناً وسمكاً وصيّاداً ، وسمع غناء ملاّح في سفينته ، وحُداء جمّال خلف بعيره . »

وكأنّ هذه الجملة الموجزة نثر ما كان الخليل بن أحمد قاله قبله :

زر وادي القصر نعم القصر والوادي   في منزل حاضر إن شئت أو بادي

ترى به السفن والظّلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي

وليس في أيدينا نعت للبصرة أبلغ ولا أكثر إحاطة ولا أصدق ولا أدقّ مما قاله خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان ، فقد جمع لنا فيه من صفات البصرة وخصائصها ما لم نجده عند غيره ، ولا ريب فهو ابن البصرة وأحد بلغاء الناس ، وكل من أراد معرفة البصرة في القرن الاول الهجري فهو عيال على صفة خالد هذه ، قال :

«يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشّبوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم». ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً، وخزاً وديباجاً، وبرذوناً هِملاجاً ، وخريدة مغناجاً ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، أوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب :

فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه ، كالزيتون عندكم في منابته ، هذا على أفنانه ، كذاك على أغصـــانه ، هذا في زمانه ، كذاك في إبّانه ، من الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ، الملقحات بالفحل ، يخرجن أسْفاطاً عظاماً ، وأوساطاً ضخاماً كأنما ملئت رياطاً . ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الابيض ، ثم تتبدل قضبانَ الذهب منظومة بالزبرجد الاخضر ، ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر ، ثم تصير عسلاً في شَنّة من سحاء

ليست بقربة ولا إناء ، حولها المذابّ ، ودونها الحراب ، لا يقربها الذباب ، مرفوعة عن التراب . ثم تصير ذهباً في كِيَسة الرجال ، يستعان به على العيال[1] .

وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عَنَقاً ، فيفيض مندفقاً ، فيغسل غثها ، ويبدي مبثها ، يأتينا في أوان عطشنا ، ويذهب في زمان رِيّنا، فنأخذ منه حاجتنا ، ونحن نيام على فرشنا ، فيقبل الماء وله عُباب وازدياد ، ولا يحجبنا عنه حجاب ، ولا نغلق دونه الابواب ، ولا يتنافس فيه من قلة ، ولا يحبس عنا من علة[2].

وأما بيوتنا الذهب،فإن لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور، نأخذه في أوقاته ، ويسلمه الله تعالى من آفاته ، وننفقه في مرضاته .»

هذا ولم تحظ ـ فيما نعلم ـ بلدة من بلاد الإسلام ، بمثل ما حظيت به البصرة ، فقد تشارك في صفتها ثلاثة من فرسان البلاغة والعبقرية: خالد بن صفوان ، والخليل بن أحمد ، والجاحظ .

---

(١) الشبوط والشيم :نوعان من السمك . والساج : خشب يجلب من الهند. والهِمْلاج : الحسن السير . والأسفاط مفردها سَفَط : وعاء يجعل فيه الطيب ونحوه . والرباط جمع رَبْطة : وهي الملاءة والشَنّة : القِربة البالية . والسحاء : القشر . والمذابّ جمع مذبّة : وهي من شعر ذنب الفرس يدفع بها الذباب . والكيَسة جمع كيس . (٢) العَنَق : سَير فسيح سريع والغث: الرديء. والعباب : موج أو ارتفاع الماء .

سوق المربد

نتتقل من أسواق العرب في الجاهلية إلى أسواقها في الإسلام . ونلاحظ أننا لا نرى في هذه الاسواق الشأن الكبير الذي كان لأسواق الجاهلية ، لأن العرب ـ كما تقدم ـ تحضّرت وسكنت الأمصار وكثرت فيها الاسواق الدائمة تحوي كل نوع من أنواع البضائع المعروفة لهم . فلم تستجدّ في الإسلام سوق لم تكن في الجاهلية ، إلا ما كان من أمر المِرْبد[1] الذي ورث عكاظ ، وقضى على ما كانت تتمتع به من ميزات ، منذ عصر الراشدين ، وأخذ أمر المربد (عكاظ الإسلام) بالازدياد حين بدأ شأن عكاظ (الجاهلية) بالخمول فالانتقاص فالموت .

نزلت العرب البصرة سنة أربع عشرة ومصّرتها سنة سبع عشرة على تخطيط وضعه عمر وأرسل من يقف على تنفيذه . وكان المربد على الجهة الغربية من البصرة إلى البادية ، ليكون أول ما ينزلون إذا قصدوا البصرة ، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها . ليقضوا فيه متاعاً لهم ومرافق يتبلّغون بها في ظعنهم وإقامتهم .

---

(١) المربد على وزن منبر هذا هو المشهور . وكان الأخفش يقول المربد كمسجد ـ انظر شرح مقصورة ابن دريد ص ٤١ الطبعة الثانية (مصر ١٣٢٨هـ) ـ هذا والكوفة سوق تعرف بـ (الكناسة) ليس لها ذلك الشأن .

معنى المِربَد : محبِس الابل ومربطها . والمربد أيضاً بيدر التمر لانه يربد فيه فيشمّس . والرُبدة لون إلى الغبرة.

ومربد البصرة هذا متسع للإبل تُربَد فيه للبيع . وكان في الاصل سوقاً للابل ، حتى إذا كان عهد الامويين صار سوقاً عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج إليها الناس كل يوم ، كل إلى فريقه وحلقته وشاعره ، وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرُجّاز ويؤمها الاشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون ويتهاجون ويتشاورون وقد وجدوا فيه مستجماً لأبدانهم وأرواحهم التي نهكتها الفتوحات ، وحنّت إلى سابق عهدها في عكاظ فجدّدت منه ما سمح به الدين الجديد . بل غضّت النظر فتسامحت أحياناً وأحيت ما أمات الاسلام من حميّة جاهلية وإحن وثارات وأثارت عداوات ، كان يبعثها الناس من تلقاء أنفسهم ، أو بتشجيع خفي من بعض خلفاء الامويين ، ليشغلوا الناس بعضهم ببعض عن الخلافة وما يأتي الخلفاء من هنوات .

فالمربد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها . وهو مجتمع العرب ومتحدثهم ومتنزه البصريين ، يؤمه منهم من عاف رخاوة المدن . وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال ، حتى اشتد ولوع الناس به وارتيادهم له . ويظهر أن الأمر

زاد على ما نعرف للمتأزه اليوم من خطر ، فقــــد بنيت فيه الدور الجميلة وتفاقم أمره حتى صار من الضروري لكل أحد في عصر العباسيين ، أن يغشى المربد ، إن لم يكن لحاجة فلترويح النفس وتمتيع البصر وترويض البدن ، وحتى قال جعفر بن سليمان الهاشمي جملته المشهورة :

« العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد[1] » . وما زال في مجده هذا حتى خرب وخربت البصرة وتقلّص العمران بينهما إلى أن صار بين المربد والبصرة ثلاثة أميال خراب على عهد ياقوت[2] الذي ذكره في معجمه فقال:

« مربد البصرة من أشهر محالّها . وكان يكون سوق الابل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنهـــا الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء والخطباء . وهو الآن بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب فصار المربد كالبلدة المنفردة في وسط البرية . »

نقلت قول ياقوت هذا في البصرة ومربدها ، لأقول إن الذي طرأ عليها من الخراب والتأخر ، طرأ على العراق كله فمن يقرأ وصف العراق وبلدانه وجنانه ونعيمه وسكانه وعمرانه وخيراته .. في كتب

(١) ثمار القلوب ص ١٢٨ (٢) توفي ياقوت سنة ٦٢٦ هـ

الأدب ، وخاصة في المئة الثانية والثالثة والرابعة للهجرة ، ثم يرحل إليه أول هذا القرن، لا يجد وصفاً للعراق أصدق من قول ياقوت في تلك الأميال الثلاثة التي كانت عمراناً متصلاً بين البصرة ومربدها وأصبحت على عهده خراباً يباباً أفرد المربد من أمه وكان سوقاً من أسواقها ، وجعله قرية بائنة لا خطر لها .

ولئن كان لعكاظ ذلك الأثر في اللغة العربية : ألفاظها وأساليبها، إن المربد كان له أيضاً في اللغة أثر بعيد يختلف بعض الاختلاف عن أثر عكاظ ، لما بين الزمانين والمكانين من التباين ، فعكاظ في قلب الجزيرة العربية يحج إليها أشراف العرب وفصحاؤها ، لا عجمة فيها ولا أثر لأعجميين البتة . والأمر في المربد على العكس : هو في طرف الجزيرة على الخليج الفارسي وبينه وبين الفرس قرب قريب . وزاد الاسلام والفتوح اختلاط العرب بالعجم فتطرق إلى اللغة الفساد والعجمة واللحن وغشي هذا الضعف مجالس الخاصة من العرب، وأزرى بلهجات الفصحاء حتى صرت تسمع الأمير على المنبر في المواسم يلحن على ملأ من الأعراب والبلغاء والأشراف ، فعيب على الحجاج لحن وأثر عن عبيد الله بن زياد مثله ، وكذلك نقلت لحنات

عن أشراف العرب[1]. فكان المربد يعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو ، معهم محابرهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب فيه ، وهذه الظاهرة لم تكن في عكاظ قط ، فهذا أبو عمرو بن العلاء يسأل الأصمعي : « من أين أقبلت ؟ » فيجيبه : « جئت من المربد. » فيقول: « هات ما معك » ، فيقرأ عليه الأصمعي ما كتب في ألواحه ، فإذا ستة أحرف (كلمات) لم يعرفها أبو عمرو ، فيخرج يعدو في الدرجة ويقول للأصمعي : « شمَّرت في الغريب . » أي غلبتني[2].

ويشبه المربد عكاظ في أمر الشعر وحلقاته ، بل يزيد عليه،فلكل شاعر حلقة ، ولكل متهاجيين مجلس ، ولكل قبيلة ناد وشاعر يذود عنها ويرد عدوان قريعه من القبيلة الثانية : فللعجاج ولرؤبة حلقة ، ولأبي النجم العجلي حلقة ، ولجرير والفرزدق وراعي الابل وذي الرمة ، لكل منهم حلقة . وكثر هـــذا المحصول من الرجز والشعر والنكات الادبية كثرةً ملأت أمهات كتب الأدب بأخبارها،ولاشك في أن المربد في هذا فاق عكاظ مراحل واسعة وفاته بعدد الشعراء والرجّاز وكثرة الروّاد وطلاب الادب . وفي المربد أطفئت ثالثة

(١) انظر كتابنا في أصول النحو ص ٨- ١٤ (مطبعة الجامعة السورية) سنة ١٩٥٧

(٢) النوادر للقالي ص ١٨٢

جمرات العرب ، أطفأها جرير بقصيدته الدمّاغة . كان لكلٍ من الشعراء رواة ينقلون له ما قاله خصمه وينشرون في الناس جواب شاعرهم عليه، وكان اهتمام الناس بالشعر والادب من أقوى الاسباب العاملة في غزارته وكثرة المقبلين على تعلّمه وروايته .

ويتفرّد المربد بأمر علمي محض لم يكن له في عكاظ من أثر، وهو أنه أرفد اللغة بمادة كثيرة ، عليها أسّس النحاة قواعدهم وأصلحوها ، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الاعراب يسألونهم فيما فيه يختلفون، ويأخذون عنهم مستفيدين ومتعلمين . وحسبك أن تقرأ أياً شئت من كتب الادب الاصول كالأغاني والأمالي والبيان والتبيين والكامل و ... لتجد أن أكثر مادتها فيما يتعلق بالعصر الاول والثاني للهجرة ، كان المربدُ ميدانه وينبوعه . وخذ إن أردت كتب التاريخ الكبرى كالطبري مثلاً ثم ابلغ في فهرس أماكنه إلى المربد ، يأخذك العجب من كثرة المواطن التي ورد ذكر المربد فيها مع أن الكتاب كتاب سياسة وأخبار ملوك لا كتاب عامة وأدب.

فمن المربد وعلى هامشه غذي الادب بقصص وأساطير كما غذي التاريخ بالاخبار الواقعة ، ووضع من وضع من الرواة والأخباريين أحاديث حاكوا بها ما وقع . وفي حلقاته اصطرعت الأهواء المتباينة

والنزعات المتضاربة ، استغلها الشعوبيون والمنافحون عن الحقائق على السواء ، وشهدت هجوماً من أولئك ودفاعاً من هؤلاء .

والغريب أن هذا المربد لم يكتف بأن يستأثر بكل ميزة كانت لعكاظ ، بل جمعها وضم إليها ميزات جديدة أفادها من خصائص عصره وطبيعة اجتماعه ، فإن كانت في عكاظ حروب موضعية بين قبيلتين فإن المربد كان ميداناً لأكبر فتنة وأشد حرب داخلية وقف فيها المسلم أمام المسلم يكافحه بسيفه ويشرع إليه رمحه . كان المربد ميداناً لإحدى مواقع الجمل ، أول حرب فرّقت كلمة هذه الامة المخيفة وجعلت بأسها بينها ، وكانت حلقة أولى في هـذه السلسلة الطويلة التي نخرت الجسم الاسلامي ومكّنت عدوه منه وكانت أفتك به من كل حرب صليبية وغارة تترية ووحشية أوروبية .

فلأعرض على القارىء مشهداً صغيراً مما جرى في المربد من هذه الحرب ليحمل باقي المشاهد عليه :

خرجت السيدة عائشة مطالبة بدم عثمان ، ناقمة على خلافة علي ، ومعها مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ مهاجرين وأنصاراً ، منهم الزبير وابنه ، وطلحة وابنه ، ونفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم ، وآخرون غير هؤلاء ، فقصدت البصرة لأن لها فيها نفراً على رأيها .

وكان على البصرة عثمان بن حنيف والياً لعلي ، وقد مهدت لأمرها بكتب أرسلتها إلى رؤساء البصرة وساداتها فأجابها قليل وردّ عليها قوم وحايد قوم . بعد هذا التمهيد القصير أنقل وصف هذا المشهد معتمداً على ماجاء في تاريخ الطبري:

« أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من أعلاه ، أمسكوا ووقفوا وتلقّاهم الناس حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان . وخرج عثمان أمير البصرة لعليٍ فيمن معه ، ولحق بعائشة من أهل البصرة من شاء حتى غصّ المربد بالناس واحتلّ طلحة والزبير وجموعهما ميمنة المربد واحتلّ عثمان بمن معه ميسرته . فوقف طلحة يتكلم فأنصتوا له :

فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضي الله عنـــه وفضله والبلد وما استحلّ منه بقتل عثمان الخليفة ، وعظم ما أُتي إليه . ودعا إلى الطلب بدمه وقال : إن في ذلك إعزازاً لدين الله عز وجل وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ولم يكن لكم نظام . وتكلم الزبير بمثل ذلك ، فقال من بميمنة المربد وكانوا يحطبون في حبل الخارجين على علي : « صدقا وبرّا وقالا الحق وأمرا

بالحق . » وقال من في ميسرته : « فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان . » وتحاثى الفريقان وتحاصبوا وأرهجوا[1] .

فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة فحمدت الله وأثنت عليه وقالت : « كان الناس يتجنّون على عثمان رضي الله عنه ويزْرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم ، فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقيّاً وفيّا ونجدهم فجَرة غدَرة كذَبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروا ، فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . ألا إن مما ينبغي ـ ولا ينبغي لكم غيره ـ أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل وتلت : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ[2] . »

---

(١) تحاثى : ترامى ، والحثى : التراب . تحاصبوا : تراموا بالحصْبة : وهي الحجارة . وأرهجوا : أثاروا الرهج وهو الغبار .

(٢) سورة آل عمران ٣ الآية ٢٣ .

فماج الناس وافترق أصحاب عثمان بن حنيف بعد سماعهم ما تقدّم فرقتين: فقالت فرقة: « صدقت والله وبرّت وجاءت والله بالمعروف. » وقال الآخرون: « كذبتم والله ما نعرف ما تقولون. » فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا . .

أوقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان نفسه ، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا من المربد في موضع الدبّاغين . وبقي أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة وبقي بعضهم مع عثمان . وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدبّاغين استقبلوا الناس فأخذ عليهم بفمها .

كاد الأمر يقف عند هـــذا ، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا حينئذٍ قتالاً ، ولكن جماعة في أصحاب عثمان ـ ولعل أكثرهم ممن اشترك في دم الخليفة الشهيد ـ تعجلوا الحوادث وأرادوا بدء القتال ، وكان حكيم بن جبلة على الخيل وهو أول من أقبل يُنشب القتـال ، وأشرع أصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم ، وأمسكوا ليمسك أصحاب عثمان ، فلم ينته حكيم ولم يُثْنَ ، وقاتلهم ، وأصحـاب عائشـة كافون ، إلا ما دفعوا عن أنفسهم ، وحكـيم

يُذَمِّرُ[1] خيله ويركبهم بها ويقول : « إنها قريش ، ليُرْدِيَنّها جبنها والطيش . » واقتتلوا على فم السكة . وأشرف أهل الدور - والموقعة بجوارهم والمربد يومئذٍ سوق داخلة في البلد حولها البيوت - ممن كان له في واحد من الفريقين هوى ، فرموا الآخرين بالحجارة . وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها طويلاً وثار إليهم الناس حتى حجز الليل بينهم[2] . »

هذا حادث من حوادث كثيرة وقعت في المربد واستمرت حتى انتهت حرب الجمل باندحار أصحاب عائشة . ذكرتُه ليقف القارىء على صورة من هذه المأساة الفادحة التي كانت وما بعدها سبباً في فُرقة المسلمين وحدوث طوائف ونحل يلعن بعضها بعضاً ويحمل بعضها على بعض ، تتناكر وتتقاذف وترى كل منها أن غير المسلم أقرب إليها من أهل الطائفة الثانية، وكثيراً ما استعان بعضها على بعض بالأجنبي عدوهما معاً ، بل كثيراً ما عمل الدخيل على توسيع الشقه بينهما وقوّى بعضاً على بعض وأمدّ الفريقين من وراء وراء ، بالسلاح والمال ليفنيا جميعاً .

---

(١) التذمير : الحثّ والحضّ .

(٢) ارجع في تفاصيل هذه الموقعة ومعرفة أسبابها ومسببيها الحقيقيين إلى كتابي (عائشة والسياسة) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ م

وتمضي عشرات السنين ويصلى العراق بسطوة الحجاج وإرهابه ، وتشتد الوطأة فلا يكون المتنفس إلا في المربد ، حيث يخطب الناس الزعيم الثائر عبد الرحمن بن الأشعث قائلا :

« أيها الناس ! إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذَنَب الوزَغة تضرب به يميناً وشمالاً فلا تلبث أن تموت . » فتقوى بهذا الكلام نفوس الثائرين إلا رجلاً من بني قشير لا يعجبه كلام ابن الأشعث فيقول :

« قبّح الله هذا ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ويعدهم الغرور[1] » فيكون أشد على الحجاج من ابن الأشعث إذ أراد التي هي أحزم .

كان في المربد إذن أدب وتجارة وحرب[2] وسياسة كما كان في عكاظ . وأستطيع أن أقسم الكلام على المربد أقساماً ثلاثة كان

(١) الكامل للمبرد ١/١٥٩ .

(٢) ثم كان مسرحاً لفتن قبلية يذكر إحداها الفرزدق مفتخراً :

عشية سال المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف الصوارم

والمربد واحد لا اثنان وإنما أراد الفرزدق: المربد وما يليه مما جرى مجراه والعرب تفعل هذا في الشيئين جريا في باب مجرى واحداً . — الكامل للمبرد ص ٨٢ طبعة ليدن .

شأنه في كل منها مختلفاً . أما الأول فعلى عهد الراشدين إذ كان يقتصر أمره على التجارة غالباً وإن لم يعدم يوماً أن كان ساحة حرب ومسرح مآسٍ . وقد عرفنا مما ذكر الطبري أن به موضعاً للدباغين . فالمربد إذن سوق البصرة أيام الراشدين وأغلب ما يتـــاجر فيه التمر وما إليه والإبل والسلاح والغنائم مما كان يقسم على المحاربين ، فيبيعه هؤلاء في المربد .

ثم يأتي العهد الثاني أيام الأمويين وقد اتسعت السوق وكثر قاصدوها من الأطراف وازدهت بالشعراء والأدباء والعلماء ووفود القبائل ، مما لم يكن في العهد الأول ، لانشغال الناس آنئذٍ بالجهاد والفتوح ، وعدم فراغ لهذه الألوان من الأدب التي لاتغزر وتتهيأ إلا بعد استتباب حال الدولة ، ولم نعهد حركة أدبية نشأت إبان الفتوح حين تتأسّس الدول .

وازدان هذا العهد بأفحل رجّاز وشعراء أخرجهم العهد الأموي وأخص بالذكر جريراً والفرزدق والأخطل والبعيث ، وراعي الإبل وذا الرمة ، ومن الرجّاز رؤبة وأباه العجاج وأبا النجم العجلي وهذا الفريق .

أما في العهد الثالث أي بين آخر العصر الاموي والقرن الثاني

للهجرة ، فقد نضجت حركة المربد الأدبية والعلمية نضجاً يتسق هو وما وصلت إليه الدولة من حسن الحال وسعـة الأفق ومرافق الحضارة وبسطة العلم وسعة السلطان . وكان من أبطال المربد أكابر النحاة ورواة الشعر والأدب والشعراء . والذي كان جديداً في هذا العهد ولم يكن قبل ، الناحية العلمية وأعني بها ما كان يصنعه أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وقبيلهما من غشيانٍ لفصحاء[1]

(١) كان المربد مدوسة عملية تعلم الفصاحة ويُهرع إليه طلابها من كل وجه ونبغ منهم عدد غير قليل ،والنظام والجاحظ من مشهوريهم فقد ذكر المؤرخون أن الثاني تلقف الفصاحة شفاهاً بالمربد . وأهل البصرة في الجملة من أفصح أهل الأمصار ، بل إن الجاحظ ليذهب أبعد من ذلك فيزعم أنهم أفصح أهل الأمصار عامة ، ولسنا نستطيع أن ننسب هذا منه إلى عصبية لبلده . جاء في كتابه البيان والتبيين (١ : ٣٣ السندوبي) :

[قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر : « ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة . » فقال ابن مناذر : « أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم :

أنتم تسمون القدر : بُرمة ، وتجمعون البُرْمة على برام ،ونحن نقول : قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل « وجِفَانٍ كالجَوَابِ وَقُدُورٍ راسياتٍ . » سورة سبأ . الآية ١٣

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية ،وتجمعون هذا الاسم على =

الأعراب وصبر على لوثتهم وجفائهم ، وتلقّف لما ينطقون به وإثبات له في الصحف ، يروونه ليبني عليه الاساس في وضع القواعد العربية .

قال صاحب ضحى الإسلام (٢ : ٨٠) وفي قوله إجمال ماقدّمت:

كان المربد في عصر الخلفاء الراشدين والامويين مركزاً سياسياً وأدبيا ، نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه وتؤلّب الناس على عليّ ، وكان المربد مركزاً للمهاجاة بين جرير والاخطل والفرزدق ، وأنتج ذلك نوعاً من أقوى الشعر الهجائي كالذي نقرؤه في النقائض ، وكان لكل من هؤلاء الشعراء حلقة ينشد فيها شعره ، وحوله الناس يسمعون . جاء في الاغاني « وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد في البصرة . »

واستمر المربد في العصر العباسي ، ولكنه كان يؤدي غرضاً

= علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف ، وقال الله تبارك وتعالى: « غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ » الزمر ، الآية ٢٠ وقال : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » سبأ ، الآية ٣٧

وأنتم تسمون الطلع : الكافور والاغريض ، ونحن نسميه الطلع وقال الله عز وجل : « وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » الشعراء ، الآية ١٤٨

فعدّ عشر كلمات ولم أحفظ أنا منها إلا هذا .]

آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الاموي ، ذلك أن العصبية القبلية ضعفت في العصر العباسي بمهاجمة الفرس للعرب ، وأحس العرب بما هم فيه جميعاً من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنانيهم وقحطانيهم ، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة ، فقوي نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم ، وبدأ الناس في المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هي أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حياة العرب ، وانصرف الخلفاء والامراء عن مثل النزاع الذى كان يتنازعه جرير والفرزدق والاخطل ، وظهرت العلوم تزاحم الادب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالي الذين دخلوا في الإسلام ، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ، فتحوّل المربد يؤدي غرضاً يتفق (هو) وهذه الحياة الجديدة .

أصبح المربد عرضاً يقصده الشعراء لا ليتهاجوا ، ولكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج إلى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج إلى المربد اللغويون يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون . روى القالي في الامالي عن الاصمعي قال : « جئت إلى أبي عمرو ابن العلاء فقال لي : من أين أقبلت يا أصمعي ؟ » قلت : « جئت من المربد » ، قال : « هات ما معك » فقرأت عليه

ما كتبت في ألواحي ، فمر به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجة وقال : « شمّرت في الغريب » أي غلبتني .

والنحويون يخرجون إلى المربد يسمعون من أهله ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة في النحو وتعصب كل لمذهبه ، وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد[1] ، وفي تراجم النحاة نجد كثيراً منهم كان يذهب إلى المربد يأخذ عن أهله . ويخرج الادباء إلى المربد يأخذون الادب ، من جمل بليغة وشعر رصين وأمثال وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه عن آبائهم ، كما فعل الجاحظ : إن الجاحظ أخذ النحو عن الاخفش ، وأخذ الكلام عن النظّام ، وتلقّف الفصاحة من الاعراب شفاهاً بالمربد » اهـ

وكما كانت عكاظ يؤمها كل من أراد أن يفتخر أو يعلن أمراً تفرد به أو يشيع في الناس مأثرة أو خبراً ، كان المربد كذلك

(١) قلت : أقام الكوفيون « سوق كُناسة » بالكوفة لتقوم لهم بما يقوم المربد للبصريين فلم يفلحوا ولم تذكر سوقهم قط ولا قصدها مثل من يقصد البصرة من فصحاء العرب وخطبائهم وشعرائهم ورجازهم ، بل كانت إلى إفساد اللغة أقرب ـ انظر كتابي « في أصول النحو » ص ١٩٠ (طبعة ثانية) .

منشرة للمحامد والمساوىء ، مسرة الصديق وغيظ العدو ، فكل من أراد أن يكبت خصماً أو يحقر قبيلة أو يشهر محمدة طلب لها المربد يجعلها فيه ، لتكون أشيع وأسير وأبلغ في الإرضاء والاغاظة .وقد كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية واستغاثات وشكوى ورثاء وفخر كما كانت عكاظ . وأحفل ما كان المربد ، في النصف الثاني لعهد الأمويين والثلث الاول لعهد العباسيين . فلأشرع في عرض مناظر تكمل الصورة التي وصفت ليكون القارىء ملماً بجميع ما يعرض ويجري في المربد على اختلاف المناحي والغايات ، وقد تقدمت صورة على عهد الراشدين وهي حرب الجمل . ولاريب في أن المربد لم يستفحل أمره وتتعدّدْ مقاصده إلا فيما بعد ، في الزمن الذي ذكرت لك من أيام بني أمية وبني العباس .

* * *

١ - عوذ بقبر

عبد مكاتَب لبني مِنْقَر ، ضاقت حاله ولم يقدر على حيلة يجمع بها المال لسيّده حتى يعتقه ، فلما عيّ بالأمر أتى قبر غالب أبي الفرزدق ، فضرب قبة عليه علامة الاستعاذة والاستغاثة ، فقدم الناس فأخبروا الفرزدق أنهم رأو بناء على قبر غالب أبيه .

قصد المكاتب المربد وتقصّى الحلقات حلقةً حلقة ، حتى وقف على حلقة الفرزدق حيث يجلس فقال :

بقبر ابن ليلى غالبٍ عذت بعدما خشيت الردى أو أن أردّ على قسْر
فخاطبني قبر ابن ليلى وقال لي: فكاكك أن تلقى الفرزدق بالمصر

فقال له الفرزدق : « صدق أبي ، أنِخْ أنخ . » ثم طاف على الناس حتى جمع له كتابته وفضلاً فضل المكاتَب ، فانصرف وقد أنجح مسعاه .

٢ - مجنون في حب

كان بالبصرة مجنون قاعد على ظهر الطريق بالمربد، فكلما مر به ركب قال:

ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدكم وحبّ إلينا بطن نعمان واديا

فسألت عنه ، فقيل : هذا رجل من البصرة ، كانت له ابنة عم يحبها فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها ، فاستوله عليها[1].

٣ - إنهاب مال

كان زياد قد نهى أن يُنهب أحد مال نفسه ، وكان الفرزدق أنهب ماله بالمربد . وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها . فعقد عليه مُطْرَف خزّ كان عليه ، فقال قائل : « لشدّ ماعقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ، ما فعل هذا الفعل ! » .

فحلها الفرزدق ثم أنهبها وقال : « من أخذ شيئاً فهو له . »

وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب ، فلم يزل زياد في طلبه ، قد بلغ منه كل مبلغ ليعاقبه على ما صنع ، وقد نهى زياد في ذلك ألا يفعله أحد .

(١) الأمالي ٢ : ١٢٦ . والوله : ذهاب العقل من حزن ، والحيرة والخوف

وكان زياد إذا قال شيئاً وفى به . فلم يزل في هربه ذلك يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد[1] .

٤ - غلام يخجل الفرزدق

كان الفرزدق ينشد شعره بالمربد والناس يجتمعون حوله إذ مر به الكُمَيت وهو غلام فوقف ، فقال له الفرزدقُ : « ليسرك أني أبوك ؟ » فقال الغلام: « أما أبي فلا أريد به بديلا ، ولكن يسرني لو كنت أمي ليذوق أبي عُسَيْلتك ! » فقال الفرزدق : « اكتمها على عمك يا بن أخي فما مرّ بي مثلُها[2] ! » .

٥ - تهديم دور الهجائين

كان للبصرة والٍ متنسّك يروى عنه الفقه ، اسمه الحارث بن عبد الله المخزومي ولقبه القُباع[3] بلغه ما يكون في المربد من الشرّ بين جرير والفرزدق وبين حيّيْهما بسببهما ، ولما رأى أنهما غير منتهييْن عن ذلك ، أراد أن يخطو الخطوة الحسمة بحزم ، فأمر بالدار التي ينزلها جرير في المربد والدار التي ينزلها الفرزدق في المقبرة فهدمتا .

وكان القُباع قد أراد هدم دار الفرزدق قبل هذه المرة أيضاً في شيء بلغه، ثم إنه كُلّم فيه وهرب الفرزدق .

(١) النقائض ص ٦٠٧

(٢) المستجاد من فعلات الاجواد ص ٢٤٦ . العسيلة : ماء الرجل ، أو حلاوة الجماع.

(٣) القباع : المكيال الضخم . ولقب الحارث بن عبد الله والي البصرة بالقباع لانه اتخذ ذلك المكيال لهم ، أو لانهم أتوه بمكيال لهم حين وليهم فقال : « إن مكيالكم هذا لقباع » — القاموس .

ويظهر أن هذا الجزاء كان شديداً قد بلغ من نفسي الشاعرين مبلغاً ، حتى إن الفرزدق بعدها خنع وتملّق فقال :

أحارثُ داري مرتين هدمتَها ... وكنتَ ابن أخت لا تُخاف غوائلُه
وأنت امرؤ: بطحاء مكة لم يزل ... بها منكُم معطي الجزيل وفاعله
فقلنا له : لا تشمتنّ عدونا ... ولا تنس من أصحابنا من نواصله
فقبلك ما أعييتُ كاسر عينه ... زياداً فلم تقدر عليّ حبائله
فأقسمت لا آتيه سبعين حجة ... ولو نشرت عين القباع وكاهله

وقال جرير في ذلك :

أحارثُ خذ من شئت منا ومنهمُ ... ودعنا نقسْ مجداً تعد فواضله
فما في كتاب الله تهديم دورنا ... بتهديم ماخور خبيث مداخله

٥ - هجاء ابليس

كان الفرزدق قد أكثر من هجاء « باهلة » حتى عيّت هذه القبيلة بأمرها وكان مما قال فيهم :

أباهلُ لو أن الأنام تنافروا ... على : أيُّهم شرٌ قديماً وألأمُ
لفاز لكم سهما لئيم عليهم ... ولو كانت العجلان فيهم وجرهم

وقال أيضاً :

ألا كيف البقاء لباهلي ... هوى بين الفرزدق والجحيم
ألست إذا نسبت لباهلي ... بألأم من تركّض في المشيم[1]
وهل يستطيع أبكم باهلي ... زحام الهاديات من القروم[2]
فلا يأت المساجد باهلي ... وكيف صلاة مرجوس رجيم .. الخ

---

(١) المشيم : محل الولد في الرحم .
(٢) الهادي: المتقدم ، والهوادي من الإبل أول رعيل يطلع منها. والقروم: الفحول

إلا أن الله أراد أن يرحمهم ، فساق الفرزدق يوما الى المربد ، فلقي رجلاً يقال له حِمام من موالي باهلة ، ومعه نِحْيٌ من سمن يبيعه .

فسامه الفرزدق إياه فقال له : « أدفعه إليك وتهب لي أعراض قومي ! » فقبل وقال يهب له أعراض قومه ويهجو إبليس :

ألا بشّرا من كان لا يملك استه ... ومن قومُه بالليل غير نيـــام
يخافون مني أن يصُكَّ أنوفهم ... وأقفاءهم إحدى بنات صمام[1]
لعمري لنعم النِحْيُ كان لقومه ... عشيةَ عبَّ البيـع نحي حمام[2]
أطعتك يا إبليس سبعين حجة ... فلما انتهى شيبي وتم تمـــامي
فررتُ الى ربي وأيقنت أنني ... مُلاق لأيام المنون حمامي
ألا طالما قد بتُّ يوضع ناقتي ... أبو الجن إبليس بغير خِطام
يظل يمنّيني على الرَّحْل واركاً[3] ... يكون ورائي مرة وأمامي...
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي ... رضـــاه ولا يقتادني بزمام
سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني ... إليه جروحاً فيك ذات كِلام[4]
وان ابن إبليس وإبليس ألبنا ... لهم بعذاب الناس كل غلام[5]
همـــا تفلا في فيَّ من فمويهما ... على النابح العاوي أشد رجام[6]

(١) الصمام الداهية الشديدة . يقال صمي صمام أي زيدي يا داهية .

(٢) النحي : الزق وقيل ما كان للسمن خاصة . والعب : الكرع وتتابع الشرب

(٣) الوارك : المتمد على وركه ، والورك : ما فوق الفخذ .

(٤) الكلام : الجروح .

(٥) لبن القوم : سقاهم اللبن ، وألبن القوم : كثر عندهم اللبن ، ومن المجاز لبنه بالعصا والحجر : ضربه .

(٦) الرجام . الحجارة .

٦ - جرير يهجو قبيلة

بنو العم قبيلة ليست من صميم العرب ، نزلوا ببني تميم في أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال الناس : « أنتم وإن لم تكونوا من العرب ، إخواننا وأهلنا وأنتم الأنصار والاخوان وبنو العم . » فلُقّبوا بذلك وصاروا في جملة العرب . إلا أن الاسم الذي سُمّوا به يحمل في تضاعيفه سمة قوم لصقاء ، فكان فيه بعض الغضّ منهم وكانوا يُضرَبون مثلًا في رقة النسب وضعف الوشيجة حتى قال كعب بن معدان يهجو بني ناجية ويُعرّض بنسبهم في قريش :

وجدنا آل سامة في قريش ... كمثل « العمّ » بين بني تميم

حضرت هذه القبيلة المربد وقد تواقف لهجاء جرير والفرزدق ، يردّ هذا على ذلك ووراء كلٍّ قبيلتُه وحزبه ، فهاج الشر واقتتلت القبيلتان : بنو يربوع قوم جرير ، وبنو مجاشع قوم الفرزدق ، فأمدت بنو العم بني مجاشع وجاؤوهم وفي أيديهم الخشب فطردوا بني يربوع ، فقال جرير : « من هؤلاء ؟ » قالوا : « بنو العم . » فقال جرير يهجوهم ويعرّض بالفرزدق وأنصاره الوضيعين هؤلاء :

ما للفرزدق من عزّ يلوذ به ... إلا بني العم في أيديهم الخشب
سيروا بني العم فالأهواز داركمُ ... ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب[1]

٧ - والفرزدق لعبة

جرير والفرزدق ملأا المربد بأشعارهما ونقائضهما وظلاّ حديث أهلها ما عاشا . لا يألو أحدهما جهداً في خلق ما يعيّر صاحبه به ، فهما أبداً

(١) الاغاني ٣ : ٢٥٧ (دار الكتب) الاهواز : سبع كور بين البصرة وفارس لكل كورة منها اسم ويجمعها الأهواز . ونهر تيرى من نواحي الاهواز .

دائبان في أن يجدا من كل شيء موضوعاً للهجاء ، ألف منها ذلك أهل المربد عامة . وكانت لكلٍّ حلقة يملأ فيها ما ضِغْنَيْه فخراً بقبيله وهجاءً لقبيل خصمه ، وكانت عبقريتهما البعيدة الغور تفتق لهما من الشعر ألواناً تشغل بها السامعين من البدو والحضر .

هذا جرير ، وقف بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عبّاد بن حصين الحبطي . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشي وسواراً وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير ، والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما . فقال الفرزدق وقد وجد في لباس جرير السلاحَ والدرعَ ، مادةً لهجائه :

وإن كليباً إذ أتتني بعبدها ... كمن غرّه حتى رأى الموت باطله
رجوا أن يردوا عن جرير بدرعه ... نوافذ ما أرمي وما أنا قائله
عجبت لراعي الضأن في حُطَمِيَّة ... وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله
وهل تلبس الحبلى السلاح وبطنها ... إذا انطلقت عبء عليها تعادله
أفاخ وألقى الدرع عنه ولم أكن ... لألقي درعي من كميٍّ أقاتله
تركنا جريراً وهو في السوق حابس ... عطية : هل يلقى به من يبادله
فقالوا له رُدَّ الحمار فإنه ... أبوك لئيم رأسه وجحافله
وأنت حريص أن يكون مجاشع ... أباك ولكنّ ابنه عنك شاغله[1]
وما ألبسوه الدرع حتى تزيّلت ... من الخزي دون الجلد منه مفاصله

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق في ثياب وشي احتبلها فرصة فقال :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة ... عليه وشاحا كُرّجٍ وجلاجله![2]

---

(١) النقائض صفحة ٦٢٣ . الحطمية : الدرع . أفاخ . تفاج وفتح فخذيه وفسا وعطية : أبو جرير . والجحافل للخيل والبغال والحمير : بمنزلة الشفة .

(٢) الكرج : المهر . (معرب).

فعرف كيف يصوّب السهم ويحكم الضربة ويفوز بإضحاك النـــاس من الفرزدق : اللعبة .

٨ - ضجة بين فحلين

هاجى جرير ثمانين شاعراً ، وكان عمر بن لجأ أحدهم ، وكان جرير قد هجاه بقوله :

يا تيمُ تيمَ عديّ لا أبا لـكم　　لا يقذفنّكمُ في سوءة عمر
أحين صرتُ سماماً يا بني لجأ　　وخاطرتْ بي عن أحسابها مضر[1] ..

فبينا جرير واقف بالمربد وقد ركبه النـــاس وعمر بن لجأ مواقفه يتهيأ للردّ عليه ببيتيه ، هدأت الضجـــة فقال عمر هذين البيتين وكان قد رفده بها الفرزدق :

لقد كذبتَ وشر القول أكذبه　　ما خاطرت بك عن أحسابها مضر
ألبسـت فروة خوّار على لؤُم　　لا يسبق الحلبات اللؤم والخور

سمعها جرير ففكر ثم فطن للأمر فقال : « قبحاً لك يا بن لجأ ، أهذا شعرك ؟ كذبت والله ولؤمت ، هذا شعر حنظلي ، هذا شعر العزيز (يعني الفرزدق) . » فأبلس عمر وما ردّ جوابا .

وكان في الحلقة غنيم بن أبي الرقراق فطار حتى أتى الفرزدق فضحك له وأخبره الخبر ، فاستلقى الفرزدق يضحك حتى فحص الأرض برجايه ، وقال في ساعته يريد عمر بن لجأ ، هذا الذي دخل بين فحلين فسقط مطّرحاً بين أقدامهما :

---

(١) السمام : جمع سم . وخاطر : راهن . والحسب : مفاخر الآباء .

وما أنت إن قَرْماً تميم تساميا ‏ ‏ أخا التيم إلا كالوشيظة في العظم[1]

فلو كنت مولى الظلم أو في ثيابه ‏ ‏ ظلمت ولكن لايديْ لك في الظلم

ويرجع الخبر بذلك إلى جرير فتنبسط أساريره ويعلوه البشر إذ سمع هذين البيتين ، ورأى لأول مرة كلمة إنصـــاف من ذلك الذي ملأ عليه الارض هجاءً وشراً فيقول :

« ما أنصفني في شعر قط قبل هذا . » يعني قوله (إن قرما تميم تساميا).

٩ - الحكم في تنافر شاعرين

[لما دخل رسول الله ﷺ مكة قتلت بنو سليم وهم من قيس ، مقتلة من بني فهر وبني كنانة .

فلما وجه معاوية في خلافته بسر بن أرطاة الفهري لقتل شيعة علي ، نهضت وجوه قيس إلى معاوية وقالوا :

« نسألك بالله والرحم ألا تجعل لبسر على قيس سلطانا فيقتل قيساً بمن قتلت بنو سليم من بني فهر وبني كنانة يوم فتح مكة . » فقال معاوية: « يابسر ليس لك سلطان على قيس . »

سار بسر حتى أتى الطائف فقالت له ثقيف : « مالك علينا سلطان ، نحن من قيس . » فسار حتى أتى همدان وهم في جبل لهم يقال له شبام ، فتحصنت فيه همدان ثم نادوا : « يا بسر نحن همدان وهذا شبام . » فلم يلتفت إليهم ، حتى إذا اغتروا ونزلوا إلى قراهم أغار عليهم فقتل وسبى نساءهم فكن أول مسلمات سبين في الاسلام . ومر بحيٍّ من بني سعد نزول بين ظهري بني جعدة

---

(١) الوشيظة : قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم ، وهم وشيظة في قومهم : حشو فيهم ، والدعي لا يدخلونه عادة في القوم .

بالفلج (موضع لبني جعدة بنجد) فأغار بسر على الحي السعديين فقتل منهم وأسر فقال أوس بن مغراء في ذلك :

مُتَشرِّين تَوعون النجيل وقد غدت   بأوصال قتلاكم كلاب مزاحم[1]

فقال النابغة الجعدي يجيبه :

متى أكلت لحومكم كلابي   أكلت يديك من جرب تهام

وهاج الشر بين الشاعرين لما كان بين القبيلتين من ذحول وعداوة . ولم يكن أوس مثل النابغة ولا قريباً منه في الشعر . فقال النابغة : « إني وإياه لنبتدر بيتاً أينا سبق إليه غلب صاحبه . » فلما بلغه قول أوس :

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر   من اللؤم ما دامت عليها جلودها

قال النابغة : « هذا البيت الذي كنا نبتدر إليه . » فغُلِّب أوس عليه .]

كان مفهوماً أن يناضل كل شـــاعر عن حيّه ويدفع عنه ما يلصقه خصمه به ، فتأرّث الهجاء بين النابغة وأوس ، واستطال أوس بنسبه إلى معدّ ، ثم كانت الحكومة بين الشاعرين في المربد : سوق العرب في الاسلام . وهذه رواية الأغاني في القضاء بينهما :

اجتمع النابغة الجعدي وأوس بن مغراء في المربد ، فتنافرا وتهاجيا ، وحضرهما العجّاج والأخطل وكعب بن جعيل ، فقال أوس .

لما رأت جَعدة منـا وِردا   ولـّوْا نعَاماً في البلاد رُبْدا[2]

إنّ لنا عليكم معـــدّا   كاهلهـا وركنها الأشدا

فقال العجاج :

كل امرىء يعدو بما استعدا

(١) المتشر : الباسط ثوبه في الشمس ، والنجيل : جنس من الحمض .

(٢) الورد : الجيش . والربد : جمع ربداء وهي النعامة المختلطة السواد .

وقال الأخطل يعين أوس بن مغراء ويحكم له :

وإني لقاض بين جعدة عامر وسعد قضاء بيّن الحق فيصلا
أبو جعدة الذئب الخبيث طعامه وعوف بن كعب أكرم الناس أولا

وقال كعب بن جميل :

إني لقاض قضاء سوف يتبعه من أم قصداً ولم يعدل إلى أود[1]
فصلاً من القول تأتمّ القضاة به ولا أجور ولا أبغي على أحد
(تالت) بنو عامر سعداً وشاعرها كما (تنال) بنو عبس بني أسد[2]

وهكذا باء النابغة على فحولته بشرّ ما يبوء امرؤ إلى أهله ، وفاز أوس بحكومة هؤلاء القضاة غير العادلين .

١٠ - نقد سخف

تكوّف جماعة بمربد البصرة على الشاعر ذي الرمة ، وهو قائم وعليه برد قيمته مئتا دينار . فاجتمعوا إليه وهو ينشد ودموعه تجري على لحيته حزناً وأسفاً على عهد صاحبته خرقاء .

ما بال عينك منها الدمع ينسكب ... الخ

* * *

بينا ذو الرمة بالمربد والناس مجتمعون إليه ، إذا هو بخياط يقف ويقول: « يا غيلان » (اسم ذي الرمة) :

أأنت الذي تستنطق الدار واقفاً من الجهل : «هل كانت بكنّ حلول !»؟

فقام ذو الرمة وفكر زماناً ثم عاد فقعد في المربد ينشد فإذا بالخياط قد

(١) أم : قصد ، الاود : العوج والميل .

(٢) الاغاني ٤/١٣١ وفيها كلمة قبيحة مكان (تالت) ، (تنال) .

وقف عليه ، وكان ذو الرمة قد قال في خرقاء صاحبته هذين البيتين المشهورين :

أيا ظبية الوعساء بين جُلاجل وبين النقا آأنت أم أمّ سالم
هي الشبه ، لولا مِدْرياها وأذنها سواء وإلا مَشْقَةٌ في القوائم[١]

فقال الخياط يعرّض بهذين البيتين ويسخر من تشبيه هذا :

« أأنت الذي شبهت عنزاً بقفرة لها ذنب فوق استها أمّ سالم
وقرنان إما يلزقانك يتركا بجنبك يا غيلان مثل المواسم
جعلت لها قرنين فوق شواتها[٢] ورابك منها مشقة في القوائم »

فخجل ذو الرمة وبهت ، وقام فذهب . ولم ينشد بعدها في المربد حتى مات الخياط[٣] .

١١ - إعدام قبيلة

كان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها ، وكان الراعي قد ضخم أمره ، وكان من شعراء الناس ، فدخل في المنافرة بين جرير والفرزدق وقضى على الأول للثاني وكان فيما قاله :

يا صاحبيّ دنا المسير فسيروا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

وقال :

رأيت الجحش جحش بني كليب تيمّم حوض دجلة ثم هابا

(يعني جريراً) .

---

(١) الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول . والنقا من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة . المشقة : التفريج في قوائم ذات الحافر . المدرى : القرن ، والمشط.

(٢) الشوى : قحف الرأس .

(٣) الأغاني ١٦ : ١١٤

فلما أكثر الراعي من ذلك قال جرير لرجال من قومه : « هلاّ تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي الفرزدق عليّ وهو يهجو قومه وأنا أمدحهم. »

(٩)

ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته لئلا يعلم به أحد ، فتعرّض للراعي يريد أن يلقاه من حيال حيث كان يمر إذا انصرف من مجلسه بالمربد . فمر الراعي على بغلته وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى ، وإنسان يمشي معه يسأله عن بعض الأمر . فلما استقبل جرير الراعي قال له : « مرحباً بك يا أبا جندل . » ، وضرب بشماله على معرفة بغلته ، ثم قال يا أبا جندل: « إنك شيخ مضر وشاعرها وقد بلغني أنك تفضل عليّ الفرزدق تفضيلاً قبيحاً وهو ابن عمي دونك ، فإن كان لابد من تفضيل فأنا أحق به لمدحي قومك وذكري إياهم . ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول : كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولا منه لائمة . » فبينا جرير كذلك أقبل ابن الراعي جندل ، حتى ضرب عجز دابة جرير حتى كاد يقطع إصبع رجله وقال لأبيه : « لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيرا . » وضرب البغلة ضربة فرمحت جريراً رمحة وقعت منها قلنسوته ، قال جرير : « فوالله لو عرّج عليّ الراعي لقلت سفيه غويّ (يعني جندلاً ابنه) ولكن لا والله ما عاج ، فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي . »

فانصرف جرير غضبان حتى إذا صلى العشاء بمنزله في عليّة له قال : « ارفعوا لي باطية من نبيذ وأسرجوا لي . » ففعلوا . فجعل يهمهم ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرج حتى نظرت إليه فإذا هو : يحبو في الفراش عرياناً ، لما هو فيه ، فانحدرت فقالت: « ضيفكم مجنون ، رأيت منه كذا وكذا . . » فقالوا لها : « اذهبي لِطيّتك ،

نحن أعلم به وبما يمارس . » فما زال كذلك حتى كان السحر ، ثم إذا هو يكبّر : قد قالها ثمانين بيتاً في نُمَيْر ، فلما ختمها بقوله :

فغُضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

كبّر ثم قال : « أخزيته ورب الكعبة . »

(٢)

ثم أصبح ، حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد ، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فادّهن ، وكفّ رأسه ، وكان حسن الشعر ثم قال : « يا غلام أسرج لي . » فأسرج له حصاناً . ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان موقع السلام قال : « يا غلام . » ولم يسلم:

« قل لعُبَيْد : أبعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق ؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعنّ إلى أهلك بمِيرٍ يسوؤهن ولا يسرهنّ ، أمّا أنا فقد بعثني أهلي لأقعد على قارعة هذا المربد ، فلا يسبهم أحد إلا سببته . وإن علي نذراً : إن جعلت في عينيّ غمضاً حتى أخزيك . » ثم اندفع جرير في قصيدته :

أقلّي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

فأنشدها فنكّس الفرزدق وراعي الإبل ، وأزمّ القوم ، حتى إذا بلغ قوله :

بها برص بجانب إسكتيها . . .

وضع الفرزدق يده على فيه ، وغطّى عَنْفَقَته لئلا يفطن جرير فيخزيه في مجلسه ذاك ، ففطن لها جرير فأتمّ البيت هكذا وكأنّ الفرزدق لقّنه أياه :

بها بوص بجانب إسكتيهـــا كعنفقة الفرزدق حين شابا[1]

ولعله في الأصل على غير ذلك . فانصرف الفرزدق وهو يقول : « اللهم أخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالبيت أنه لا يقول غير هذا ، ولكن طمعت بالسلامة فغطّيت وجهي فما أغناني ذلك شيئاً . »

واسترسل جرير في الإنشاد حتى بلغ قوله مخاطباً الراعي :

فغضّ الطرف إنك من نُمَيْر فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فأسقط في يد الراعي وبني غير عامة . وقال الفرزدق : « غضّه والله فلا يجيبه ولا يفلح بعدها أبداً[2] . »

ومُرعان ما تناقل هذا البيت أهل المربد ، وانفضّ المجلس عليه . وسار الراعي فوجد البيت سبقه إلى أهله وقومه فاستحيا ورحل .

وهكذا انطفأت قبيلة غير آخر جمرات العرب في المربد ، أمام هـــذا المحفل الحاشد ، على يد جرير الشاعر .

١٢ - رد عدوان

قدم معن بن أوس المزني (البصرة) فقعد ينشد في المربد . فوقف عليه الفرزدق وأراد العبث به فقال : « يا معن ، من الذي يقول :

لعمرك ما مزينة رهط معن بأجفان تطاق ولا سنام[3] »

---

(١) الإسكة : جانب فرج المرأة ، وهما إسكتان والعنفقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن .

(٢) الاغاني ٤٧/٧

(٣) من معاني الجفن : الشجر الطيب الريح .

فقال معن : « أتعرف يا فرزدق من الذي يقول :

لعمرك ما تميم أهل فَلْج   بأرداف الملوك ولا كرام[1]»

فرآه الفرزدق صلباً فتنصل وقال له : « حسبك إنما جرّبتك . » فأجابه معن بلهجة الحازم : « قد جرّبت وأنت أعلم . » فانصرف وتركه

١٣ ـ سلاطة

كان المربد إلى ذلك يفسح مجالاً لمتعصبة الشعوبية وأراذلهم ، فينالون من الحسب الزاكي والأصل الكريم ويتطاولون ، وكانوا يدسّون سمومهم في أفكار الموالي والعبيد قال الاصفهاني :

« وقف رجل من بني زيدٍ شريف ، لا أحب أن أسميه ، على بشار فقال له : « يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء ، وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الاصل . » فقال له بشار :

« والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أزكى من عمل الابرار ، وما في الارض كلب يودّ أن نسبك له بنسبه . ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت ، ولكن موعدك غداً بالمربد . » فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهّم أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فإذا رجل ينشد :

شهدت على الزيدي أن نساءه   . . . . . .

(وأبعش بشار في تتمة البيت) فارتاع الشريف وسأل عمن قال هـــذا

---

(١) الردف : الرديف وكل ما تبع شيئاً فهو ردفه .

البيت فقيل له : « هذا لبشار فيك . » فرجع إلى منزله من فوره ولم يدخل المربد حتى مات .

فانظر في بضاعة المربد هـــذه ، واعجب كيف ينقبض فيه الاخيار ويتسلط الاشرار !

١٤ - معركة الرجاز

نترك حلبة الشعراء إلى حلبة أخرى أطرف وأظرف ، لان أصحابها ذوو أصول بدوية مقيمون في الحضر . تلك هي حلبة الرجاز أبي النجم العجلي ورؤبة وأبيه ، فننظر كيف يتنافس هؤلاء ، حتى إذا سكنت الريح بينهم أتت قبائلهم فأثارتها و كدّرت ما بينهم حتى يعود الشر جَذَعَة[1] كما كان بدأ ، ولعل المنظر الذي سنعرضه بعد قليل أروع منظر شهده المربد .

« قال فتيان من عجل لأبي النجم : هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع الناس شعره ، وينشد الناس ويجتمع إليه فتيان من بني تميم ، فما يمنعك من ذلك ؟ » فقال : « أوتحبون هذا ؟ » قالوا : « نعم » قال فائتوني بعُس[2] من نبيذ فأتوه به فشرب ثم نهض وقال :

إذا اصطبحتُ أربعاً عرفتَني ثم تجشّمتُ الذي جشمتَني

وأقبل إلى المجلس بالمربد فلما رآه رؤبة أعظمه وقام له عن مكانه وقال : « هذا رجّاز العرب » وسألوه أن ينشدهم فأنشدهم أرجوزته التي أولها :

الحمد لله الوهوب المجزل .

(١) أصل الجذع : ولد الشاة في السنة الثانية والأنثى جذعة وطعنت حرب بين قوم فقال أحدهم : إن شئتم أعدناها جذعة : يريد من اول .

(٢) العس بالضم : القدح الكبير .

وكان إذا أنشد أزبد وحتّش[1] بثيابه وكان من أحسن الناس إنشاداً ، فلما فرغ منها قال رؤبة : هذه أمّ الرجز .

إلا أن هذا الصفاء بين الرجازيْن واعتراف رؤبة وإقراره بفضل أبي النجم ورضى هـذا عن رؤبة لم يدم طويلا ، فسُرعان ما أهاج الشرّ بينهما غواةُ الرجز ، فما لبثا أن فسد ما بينهما واشتدت المنافسة إلى الغاية . وأنت إذا أردت أن تستمتع وتتسلى وتستفيد ، فأثِرْ خصومة أو منافسة ، أو هج شراً بين أديبين أو شاعرين أو عالمين ، تجد متعة وطرافة تنعم بها من حيث شقي الرجلان . هـذا ما صنع قوم أبي النجم لما رأوا العجاج (أبا رؤبة وقريع أبي النجم) خرج محتفلا عليه جبُبة خز وعمامة خزّ ، على ناقة له قد أجاد رَحْلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله : « قد جبر الدينَ الإلهُ فجبر »

فذكر فيها ربيعة قوم أبي النجم وهجاهم . فانطلق رجل من الناس من بكر بن وائل يشتدّ عدواً إلى أبي النجم في بيته ، فقـال له يستحثه وهو يلهث : « أنت جالس وهـذا العجاج يهجونا بالمربد ، قد اجتمع عليه الناس ! ؟ » فتحرك أبو النجم وقال : « صف لي حاله وزيّه الذي هو فيه . » فوصف له ، فقال : « ابغني جملا طحـاناً قد أكثر عليه من الهناء[2] فجاء إليه بجمل كله قروح وقطران » فأخذ أبو النجم سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها واتّزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خِطامه إلى من يقوده . فانطلق حتى أتى المربد وقد لحقه ما لا يحصى لما رأوا من الهيئة الغريبة ، حتى دنا من العجاج في حلقته فقال اقْدُد جمله : اخلع خطامه ، فخلعه

(١) أي رمى بها .

(٢) هنأ الإبل : طلاها بالهناء وهو القطران يضعونه منها مواضع الجروح .

وأخذ أبو النجم ينشد أرجوزته :

« تذكّر القلب وجهلا ما ذكر »

والعجاج على ناقته يسمع ، ونفسه تحدثه بشر يصيبه . وجعل جمل أبي النجم يدنو من ناقة العجاج يتشمّمها ، والعجاج يتباعد عنه لئلا يفسد ثيابه الخزّ ورحله الثمين الثقيل ، بالقطران . وما زال الجمل يتقرب من الناقة والعجاج يتقهقر حتى وصل أبو النجم في إنشاده إلى قوله :

« شيطانه أنثى وشيطاني ذكر[1] »

فثارت عاصفة من الضحك والاستحسان من كل صوب وضج بها المربد ، وتعلّق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه .

١٥ ـ صحابي بكتاب نبوي

وهذا رجل من ضرب آخر قديم ، أفلت منذ قرن ، ليكون في المربد كما تكون العاديّات في المعارض أو دور الآثار والمصانع :

روى الأصمعي عن يزيد بن عبد الله قال: « بينا نحن بهذا المربد جلوس، إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس فوقف علينا فقلنا : « والله لكأنّ هذا الرجل ليس من أهل البلد . » قال الأعرابي : « أجل والله .» وإذا معه قطعة من جراب أو أديم فقال: « هذا كتاب كتبه لي محمد رسول الله ﷺ.» فأخذناه فقرأناه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني زهير (حي من عكل) :

إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وفارقتم

---

(١) الاغاني ٧٤/٩

المشركين وأعطيتم الخمس من الغنائم وسهم النبي والصفيّ فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله ، لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم .»

فقال القوم وقد تكاثروا حوله : « حدّثنا أصلحك الله بما سمعت من رسول الله . » قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : «صوم شهر الصبر، وصوم ثلاثة من كل شهر ، يذهبن وحَرَ الصدر .»

فقال له القوم : « أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ » فأثاره شكهم هذا وأغضبه فقال : « أراكم تخافون أن أكذب على رسول الله ﷺ، لاحدّثتكم حديثاً . » ثم أهوى إلى الصحيفة وانصاع[1] مدبراً . »

قال المحدّث : فقيل لي لما تولّى : هذا النمر بن تولب العكلي[2] الشاعر !

١٦ - من نحو السياسة

أترك معركة الرجّاز تلك ، وأترك أبا النجم في زهو ظفره ونشوة

(١) انصاع : انفتل راجعاً مسرعاً .

(٢) كان النمر يسمى الكيس لحسن شعره . وهو جاهلي أدرك الإسلام وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنا أتيناك وقد طال السفر ... نقود خيلاً ضمراً فيها عسر

نطعمها الشحم إذا قل الشجر ... والخيل في إطعامها اللحم ضرر

عاش إلى أن خرف وأهتر وكان هجيراه أن يقول : « أصبحوا الركب ، أغبقوا الركب » كعادته التي كان عليها . ومن شعره قوله :

لا تغضبن على امرىء في ماله ... وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

وإذا تصبك خصاصة فارج الغنى ... وإلى الذي يعطي الرغائب فارغب

وقوله :

وأعلم أن ستدركني المنـــايا ... فإلا أتبعهـــا تتبعـــني

أهتر : خرف . وهجيراه : دأبه وعادته . — انظر طبقات الشعراء لابن سلام.

انتصاره وقد سرّه أن يولّي الحجـاج مدحوراً مقهوراً ، وأن يسري خبر ما صنع واخترع في أسواق البصرة كلها سريان الكهرباء ، وأجوز مشهد النمر بن تولب الأعرابي الغريب الزي ، وأقف بالقارىء على مشهد آخر يبعث العبرة ، ويهيج من النفس مكامن الثورة فيها والمقت للسياسة وما تجرّه من ويلات :

أوقع الخليفة أبو جعفر المنصور بالخراسـانية إذ قتل يعسوبها أبا مسلم ، وخلص من عمه الذي ناوأه ، وبقي عليه أن يستأصل شأفة العلويين الذين لهم في النفوس المكانة البعيدة والتجلّة والاحترام ، فشدّد عليهم وقيّدهم وحبس منهم وقتّل .

ونحن الذين رأينا بالمربد ، صورة من كل ما يجري فيه حينئذ من دين وأدب ، ومعرضاً لعادات اجتماعية وأساليب تجارية ، سنرى فيه أيضاً صدى لما يتردد في أمصار الاسـلام إذ ذاك من شدّة على العلويين وتضييق وأخذ بالخناق .

في مربد البصرة سليمان بن علي من رؤوس بني العباس الذين أوقعوا بالعلويين ، وحوله جماعة من أشراف الناس . فإنه لجالس مجلسه ، وإذ بكبير العلويين إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . شيخ عليه أمارات الحزن والمهابة والوقار معاً ، وإلى جنبه المفضّل الضبّي ، ويمشي مع الشيـخ صبيان من ولده قد ضمّهم إليه .

لمح إبراهيم مكان سليمان بن علي فوقف على رأسه وأمامه أطفاله ، وقال بصوت متهدّج تخنقه العبرة وأشار إلى سليمان :

« هؤلاء منا ونحن منهم ، إلا أنهم فعلوا بنا وصنعوا ... (وذكر كلاماً يعتدّ عليهم فيه بالإساءة) . » قال هذا فتحركت الرحمة في نفوس السامعين جميعاً لما آل إليه أمر بني علي ، وحدّثتهم أنفسهم بشيء على بني العباس وقسوتهم ،

على أبناء عمومتهم . ثم توجّه الرجل لوجهه وتمثّل بهذه الأبيات :

مهلاً بني عمنا ظلامتنا إنّ بنا سورة من القلق
لمثلكم تحمل السيوف ولا تغمز أحسابنا من الرّقق
إني لأنمى إذا انتميت إلى عزّ عزيز ومعشر صُدُق
بيض سباط كأنّ أعينهم تكحل يوم الهياج بالعلق[١]

فقال له المفضّل وهو يتبعه : ما أفحل هذه الأبيات فلمن هي ؟ قال : « لضرار بن الخطاب الفهري قالها يوم الخندق وتمثل بها علي بن أبي طالب يوم صفين والحسين بن علي يوم قتل ، وزيد بن علي .»

ثم لحق القوم فلم يمض قليل حتى أتاه نعي أخيه محمد قتله رجال أبي جعفر ، فتمثل إبراهيم :

نبئت أن بني ربيعة أجمعوا أمراً خلالهمُ لتقتل خالدا
إن يقتلوني لا تصبْ أرماحهم ثأري ويسعى القوم سعيا جاهدا
أرمي الطريق وإن صددت بضيعة وأنازل البطل الكميّ الجاحدا

فسأله المفضل لمن هذه الأبيات ؟ فقال : للأحوص بن جعفر بن كلاب تمثّل بها يوم شعب جبلة . ثم لم يلبثا أن أقبلت عساكر أبي جعفر واقتتلت مع أصحاب إبراهيم هذا . وقتل من الفريقين من قتل وكاد يكون الظفر لإبراهيم[٢] .

(١) سورة الغضب : وثوبه وحدته . والغمز : العيب . السباط : الحسان القد والاستواء . والعلق : الدم .

(٢) الاغاني ج ١٧ صفحة ١٠٩ :
وتتمة رواية المفضل هذه : [فلما رأى البياض يقل والسواد يكثر قال لي: « يا مفضل حركني بشيء يهون علي بعض ما أرى . » فأنشدته :

ألا أيها الناهي فزارة بعدما أجدت بسير إنما أنت حالم =

١٧ - مل سلمى

قتل بعض بني تميم مسعود بن عمرو العتكي فنهض أخوه زياد بن عمرو لثأره، فحشد الحشود في المربد وجعل في الميمنة بني بكر بن وائل وفي الميسرة بني عبد القيس وبقي هو في القلب .

بلغ ذالك الأحنف بن قيس سيد بني تميم فقال : « هـذا غلام حدث شأنه الشهرة ، وليس يبالي أين قذف بنفسه » ثم ندب أصحابه فجاءه حارثة بن بدر الغُداني وقد اجتمعت بنو تميم فجعلوا سعداً والرباب في القلب ورئيسهم عبس بن طلق الطعـان المعروف بأخي كهمس فجعل في القلب بحذاء الازد ، وجعل حارثة بن بدر في بني حنظلة بحذاء بكر بن وائل ، وجعلت عمرو بن تميم

= أبى كل حر أن يبيت بوتره ويمنع منه النوم إذ أنت نائم
أقول لفتيان العشي تروحوا على الجرد في أفواههن الشكائم
قفوا وقفة : من يحي لم يخز بعدها ومن يخترم لا تتبعـه اللوائم
وهل أنت - إن باعدت نفسك منهم لتسلم - فيما بعد ذلك سـالم ?

فقال لي:« أعد » فتنبهت وندمت ، فقلت : « أو غير ذلك? » فقال: « لا ، أعدها» فأعدتها ، فتطال على سرجه ، وتمطى في ركابه حتى خلته قد حطمها ، ثم حمل فطعن رجلا وطعنه آخر ، فقلت : « أتباشر الحرب بنفسك والعسكر منوط بك ? » فقال:«اليك عني يا أخا بني ضبة ، كأن عويفاً أخا بني فزارة نظر في يومنا هذا حيث يقول:

ألمت خنـاس وإلمامهـا أحاديث نفس وأسقامهـا
يمانيـة من بني مالك تطاول في المجد اعمامهـا
وإن لنا اصل جرثومة ترد الحـوادث ايامهـا
ترد الكتيبـة مفلـولة بهـا أفنها وبها ذامها

ثم حمل حملة جاءه فيها سهم عائر ، فشغله عني وكان آخر العهد به .] اه

ويخترم : يمت شاباً . والافن : ضعف العقل . والذام : الذم .

بجذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيكفيك عبس أخو كهمسٍ　　　مقارعة الازد بالمربد .. الخ

وكان المجتمعون من تميم وباديتها وحلفائها من الاساورة والزط والسبابجة وغيرهم زهاء سبعين ألفاً ، وفي ذلك يقول جرير :

سائل ذوي يمن ورهط محرق　　　والازد إذ ندبوا لنا مسعودا
فأتاهم سبعون ألف مدجّجٍ　　　متسربلين يلامقاً[1] وحديدا

فلما توافقوا بعث إليهم الاحنف :

« يا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة ! أنتم والله أحب إلينا من تميم الكوفة وأنتم جيراننا في الدار ويدنا على العـــدو ، وأنتم بدأتمونا بالامس ووطئتم حريمنا وحرّقتم علينا فدفعنا عن أنفسنا ، ولا حاجة لنا في الشر ما أصبنا في الخير مسلكاً ، فتيمموا بنا طريقة قاصدة . »

فوجه إليه زياد بن عمرو :

« تخير خلة من ثلاث : إن شئت فانزل أنت وقومك على حكمنا ، وإن شئت فخلّ لنا عن البصرة وارحل أنت وقومك إلى حيث شئتم ، وإلا فدوا قتلانا واهدروا دماءكم ، ولْيُودَ مسعود أخي دية المُشْعَرة . » أي: عشر ديات ، كما يودى أبناء الملوك في الجاهلية .

فبعث إليه الاحنف : « سنختار فانصرفوا في يومكم . »

فهز القوم راياتهم وانصرفوا . فلما كان الغد بعث إليهم :

« إنكم خيرتمونا خلالاً ليس فيها خيار : أما النزول على حكمكم فكيف يكون والكلم يقطر دما ؟ ! وأما ترك ديارنا فهو أخو القتـــل ، قال الله عز وجل : « ولو أنا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم

---

(١) دروعاً لامعات .

ما فعلوه إلا قليلٌ منهم»، ولكن الثالثة إنما هي حمل على المال فنحن نبطل دماءنا وندي قتلاكم ، وإنما مسعود رجل من المسلمين ، وقد أذهب الله أمر الجاهلية . »

فاجتمع القوم على أن يقفوا أمر مسعود ، ويغمد السيف ، ويودى سائر القتلى من الازد وربيعة . فتضمّن ذلك الاحنف ودفع إياس بن قتادة المجاشعي رهينة حتى يؤدى هذا المال ، فرضي به القوم .

فخر الفرزدق بهذا وعرّض بقوم جرير فقال :

ومنا الذي أعطى يديه رهينة — لغاريْ معدّ يوم ضرب الجماجم
عشية سال المربدان كلاهما — عجاجة موت بالسيوف الصوارم
هنالك لو تبغي كليباً وأيتها — أذل من القِردان تحت المناسم[1]

(١) الكامل للمبرد ١/٨١-٨٣ الغاران : القبيلتان العظيمتـــان ، وأراد بالمربدين المربد وما حوله .

وتتمة الخبر طريفة حقاً بما فيها من نبل ومروءة خالصين ، يرويها بطل السلام نفسه الأحنف قال :

« فكثرت علي الديات فلم أجدها في حاضرة تميم ، فخرجت نحو (يبرين) فسألت عن المقصود هناك فأرشدت إلى قبة ، فاذا شيخ جالس بفنائها مؤتزر بشملة محتب بحبل ، فسلمت عليه وانتسبت له ، فقال : « ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقلت : « توفي صلوات الله عليه » قال : « فما فعل عمر بن الخطاب الذي كان يحفظ العرب ويحوطها . » فقلت له : « مات رحمه الله تعالى . » قال : « فأي خير في حاضرتكم بعدهما ؟ »

فذكرت له الديات التي لزمتنا الأزد وربيعة فقال لي : « أقم » فاذا راع قد أراح ألف بعير ، فقال لي « خذها » ، ثم أراح عليه آخر مثلها فقال : « خذهـــا » فقلت : « لا أحتاج إليها » .

فانصرفت بالألف عنه ووالله ما أدري من هو ؟ إلى الساعة ». ! !

١٨ - عرض الأمم

إذا كانت المعارض اليوم تزخر بالناس من مختلف الأمم فإن المربد اقتصر على العرب والفرس فقط . وكان مضى على هذين الجنسين أكثر من قرن وهما يتمازجان دماً وطبائع وعادات ، حتى تعلم كثير من الفرس النازلين في بقاع أغلب أهلها عرب ، اللغة العربية وثقفوها وأحسنوا التكلم بها نظماً ونثراً. ولم يخل المربد من هذه الطبقة المولدة الجديدة، فقد كانت تغشاه وتضيف إلى ما به من ألوان ، لوناً حديثاً لا عهد الناس بمثله .

وقد رُوي أن أديب العرب وفارس : عبد الله بن المقفع ، دعا جماعة بالمربد ناحية وطرح عليهم هـذا السؤال : « أي الأمم أعقل ؟ » فكانت الأجوبة مختلفة ، وعرض المجيبون أحوال من يعرفون من الأمم ؛ فلا علينا وقد شهدنا مشاهد النضال في المربد من حروب وهجاء ، أن نشهد مجلساً علمياً هادئاً يضم نخبة من ذوي العقول الراجحة والآراء الحصيفة :

قال شبيب بن شيبة أحد بلغاء العرب وجليس الملوك :

« كنا وقوفاً بالمربد ، وكان المربد مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع فتبشبشنا به وبدأناه بالسلام ، فردّ علينا السلام ثم قال: « لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابّكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه . »

فقبلنا وملنا . ولما استقرّ بنا المكان قال لنا :

« أي الامم أعقل ؟ ! »

فنظر بعضنا إلى بعض ! فقلنا لعله أراد أصله من فارس فقلنا: «فارس».

فقال : « ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيراً من الارض ، ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم . »

قلنا : « فالروم » .

قال : « أصحاب صنعة . . . »

قلنا : « فالصين » .

قال : « أصحـــاب طُرْفة . . »

قلنا : « فالهند » .

قال : « أصحاب فلسفة . . »

قلنا : « فالسودان » .

قال : « شر خلق الله . . »

قلنا : « فالترك » .

قال : « كلاب مختلسة . . »

قلنا : « فالخزر » .

قال : « بقر ســـائمة . . »

قلنا : « فقل »

قال : « العرب » . . فضحكنا . .

فقال : « أما إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة إن العرب حكمت على غير مثال مثّل لها ولا آثار أثرت ، أصحـــاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم . يجود أحدهم بقوته ، ويتفضّل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسّن ما شاء فيحسن ، ويقبّح ما شـــاء فيقبح . أدّبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم . وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم . فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه

وخلافته بهم إلى الحشر ، الخير فيهم ولهم . قال سبحانه :

« إنَّ الارْضَ لِلهِ يُورِثُها مَنْ يَشَـــاءُ مِنْ عِبادِهِ والْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين[1] . »

فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم ، ودفع الحق باللسان أكبت الجنان . »

١٩ - اعلان مجلجل

وإليك بعد أن استمتعت بعلم ابن المقفع وأدبه ، صراعاً يخيَّل إليك إذ تقرؤه أنه كان في الأولمبياد ، لأحد أبطال يونان ، أو أنه جرى على غرار ما يجري في بلاد الإسبان ، على يد مصارعي الثيران ، بطله فارس عربي شجاع شاعر شديد البأس والبطش ،على خلاف ما تعهد في الشعراء . هو هلال بن الأسعر أحد الجبّارين العمالقة الضخام ، كأنه من قوم عاد . كان هلال هذا أعظم الناس غَناء في حرب ، يرد مع الإبل فيأكل كل ما وجد عند أهله ثم يرجع لا يذوق فيما بين ذلك طعاماً ولا شرابا . عُمّر طويلا ومات بعد بلايا عظام مرت على رأسه .

« كان يوماً في إبل له وذلك عند الظهيرة في يوم شديد وقع الشمس ، محتدم الهاجرة ، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس ، فبينما هو كذلك إذ مرّ به رجلان : أحدهما من بني نهشل والثاني من بني فُقَيْم ، كانا أشد تميميَّيْن في ذلك الزمان بطشاً ، يقال لأحدهما الهيّاج ، وقد أقبلا من البحرين ومعهما أنواط[2] من تمر هجر ، وكان هلال بناحية الصعاب ، فلما انتهيا إلى الإبل ، ولايعرفان هلالاً بوجهه

---

(١) سورة الاعراف ١٢٧/٧

(٢) النوط : الجلة الصغيرة فيها تمر والجمع أنواط .

ولا يعرفان أن الإبل له، ناديا : «يا راعي أعندك شراب تسقينا؟» وهما يظنانه عبداً لبعضهم . فناداهما هلال ورأسه تحت كسائه : «عليكما الناقة التي صفتها كذا في موضع كذا فأنيخاها فإن عليها وطْبَيْن من لبن ، فاشربا منها مابدا لكما» . فقال أحدهما : «ويحك ، انهض يا غلام فأت بذلك اللبن .» فقال لهما : «إن تك لكما حاجة فستأتيانها فتجدان الوطبين فتشربان» فقال أحدهما : «إنك يا بن اللخناء لغليظ الكلام ، قم فاسقنا .» ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال . فقال لهما هلال : «أراكما والله ستلقيان هواناً وصغاراً» فسمعا ذلك منه فدنا أحدهما فأهوى له ضرباً بالسوط على عجزه وهو مضطجع ، فتناول هلال يده فاجتذبه إليه ورماه تحت فخذه ثم ضغطه ضغطة ، فنادى صاحبَه : ويحك أغثني قد قتلني . فدنا صاحبه منه ، فتناوله هلال أيضـــاً فاجتذبه فرمى به تحت فخذه الاخرى . ثم أخذ برقابهما فجعل يصكّ برؤوسهما بعضاً ببعض ، لا يستطيعان أن يمتنعا منه . فقال أحدهما : «كن هلالاً ولا نبالي ما صنعت .» فقال لهما : «أنا والله هلال ، ولا الله لا تفلتان مني حتى تعطياني عهداً وميثاقاً لا تخيسان به : لَتَأتِيانِّ المربد إذا قدمتما البصرة ثم لَتناديانّ بأعلى أصواتكما بما كان مني ومنكما .» فعاهداه وأعطياه وَطْباً من التمر الذي معهما ، وقدما البصرة فأتيا المربد فناديا بما كان منه ومنهما . وكان إعلان طنّان دوّى في فضاء المربد .

وهكذا جمع المربد بطولة القوة والصراع والجبروت البدني ، إلى جانب بطولة الشعر والادب والخطابة ، فكان معرضاً تام الاداة وافي الفروع . وتمّ لأسواق العرب به خاتمة المزايا والكمال ، وأصبح في وسع من شـــاء الاستمتاع بأكثر عادات العرب وأخلاقهم ودينهم وسياستهم وحربهم وأدبهم وسباقهم وصراعهم ، أن يفوز بأمنيته من أقصر طريق ، إذا استذكر ما كانت عليه أسواقهم في الجاهلية والاسلام .

استدراك (١)

قرأ فريق من أهل الفضل ، مقدمة الكتاب عقب طبعها ، فرأوا من الحق الواجب علينا ، وقد عرضنا لذكر « معرض دمشق وسوقها » وأثنينا على ما فيه من كل نفيس معجب ، أن نثبت ما يلي :

أساءت إدارة هذا المعرض إلى الأمة وكرامتها كل الإساءة : في إباحتها القمار والخمر ، وفي غضها الطرف عن مفاسد كثيرة نشأت عن اختلاط الرجال بالنساء ، وفي إحيائها الليالي الساهرة تقيم فيهن الحفلات الراقصة ، يتصدرها أشخاص رسميون ، بينا كان العرب في فلسطين يخوضون الدماء ويسلط على رؤوسهم شواظ وقذائف وحمم ، وهم يكافحون ويجالدون ويصابرون ، عدوين ألدين ، الانكليز واليهود ، ويتعرضون لنار جيشين قويين . فليتنا إذ لم نقم بحق نجدة اخواننا ، راعينا المروءة والذوق على الاقل ، فنزهنا معرضنا عن المظاهر المزرية .

ولئن كان المعرض قد مثل الشام بمصنوعاته ونفائسه التي كانت بحق مفخرة من اعظم مفاخر هذه الأمة المجيدة ، إن إدارته لم تكن — فيما أباحت — تمثل البلاد بشيء ، فقد شذت عن كل إدارات المعارض التي سبقتها ، إذ خصصت هذه أياماً للنساء وأياماً للرجال ، ولم تندفع في سبيل التقليد السخيف اندفاع المعرض الاخير ، فكانت بذلك اصدق خبراً عن البلاد التي أقامتها .

ولكل أمة تقاليد كريمة وأخلاق وشعور ، لا تقوم لها قائمة ولا يحترم لها مكانة ، إلا إذا تمسكت بها تمسك الغريق بحبال النجاة ، وأيما امرىء خرج على شيء منها فقد خرج على امته وبلاده .

نقول هذا ونحن لا ينقضي عجبنا من ان تصدر تلك الكبائر عن معرض دمشق ، بينا

---

(١) هذا استدراك صدر في الطبعة الاولى لمناسبة خاصة ، يصف شعور الشاميين إزاء بعض ما كان جرى في معرضهم العام سنة ١٩٣٦ م أثبتناه هنا للتاريخ فقط .

مديره الذي أطلقت يده في ادارته وموظفيه ، رجل معروف بمتانة الخلق وصحة المبدأ ، والصلابة في تطبيقه .

ولكن يظهر أن الشأن ليس - دائماً - في إحسان اختيار الرأس .

. ان الناس كانوا اذا قرؤوا في الصحف اخبار فلسطين وما يدوي في اجوائهـــا من رصاص وبارود . . . قطع عليهم قراءتهم اصوات الاسهم النارية تطلق في جو المعرض ابتهاجاً بغير شيء ، فكان الالم يرتسم علائمه على وجوه اكثر الشـــاميين . وكان على الصحف التي تمثل الرأي العام ، وعلى الطبقات المثقفة واهل الحل والعقد ان ينكروا ما يثلم كرامة البلد ويمس مروءته ، لكنه لم يرتفع في استنكار ذلك - مع الاسف - صوت ، إلا صوت بعض الجمعيات الدينية ، التي استحيت لدمشق بلد الفضيلة ان تؤذى في سمعتها .

هذه كلمة نقولها للحق والتاريخ وقد مضى على انفضاض المعرض ثمانية اشهر [١]

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٦ م !

مسارد الكتاب

١ - مسرد الآيات الكريمة(*)

(*) على ترتيب ورودها في الكتاب ، رقم السورة إزاءها وبعد الخط المائل رقم الآية فيها .

٢ - مسرد الأحاديث النبوية(*)

(*) على ترتيب ورودها في الكتاب

ص	الحديث
٢٠٤	لك حج ..
٢٣٣	خذه يا بن عوف ... فتزوج بنت ملكهم
٢٣٤	كتاب النبي لأكيدر وأهل دومة الجندل
٢٥٣	إني لأعلم أرضاً من أرض العرب ..
٢٥٨	ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة ..
٣١٤	كأني أنظر إليه (إلى قس بن ساعدة) بسوق عكاظ
٣٢٦	يا أيها الناس قولوا : (لا إله إلا الله) تفلحوا .
٣٢٦	لا أكره منكم أحداً على شيء ..
٣٢٨	إني رسول الله فإن أتيتكم تمنعوني؟ .. هم أول من كذبني وطردني
٣٢٩	اللهم بارك على هؤلاء ..
٣٣٣	يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني ..
٤٤٢	كتاب النبي ﷺ لبني زهير (حي من عكل)
٤٤٣	صوم شهر الصبر وصوم ثلاثة من كل شهر يذهبن وحر الصدر

٣ - مسرد الأعلام (*)

(*) ١- أسقط في بحثك عن الاعلام الكلمات الآتية مراعياً الترتيب الابجدي فيا بعدها:
ال ، ان ، ابن ابي ، ابو ، ام ، بنو ، آل

٢- لا تحذف الألفات ولا الواوات من مثل الكلمات الآتية : إبراهيم ، إسحاق، إسماعيل ، الحارث ، هارون ، داوود . .

٣- اذا اشتهر العلم باسم آخر وجدته بعد إشارة = التي تعني (هو) فابحث عن الاسم الذي بعد الإشارة لانه الاشهر غالباً .

٤ ـ مسرد الجماعات (*)

(*) أكثر أسماء القبائل وردت هنا باسم جد القبيلة خالية من كلمة (آل) أو (بني)

٥ - مسرد الأماكن

٦ - صدور الأشعار(*)

(*) مرتبة على أحرف الروي ثم على أوائل الأبيات . وقد استغنينا عن القافية في الأبيات المصرعة كما فعلنا في الرجز .

٧ ـ مسرد الكتب (١)

(١) تشير الارقام الى مواطن الاستشهاد بالمصدر او ذكره في هذا الكتاب ، وننبه هنا الى ان بعض المصادر كالعقد الفريد وطبقات الشعراء مثلا صدرت لها طبعات جديدة ونقلنا عنها اضافات كما كنا نقلنا عن طبعاتها القديمة ، ومع انا اشرنا غالبا الى الطبعات في الحواشي فاتتنا الاشارة إليها احيانا كما سهونا عن العزو في بعض المواضع . فعلى المراجع ان لم يجد الرقم في نسخته ان يبحث عنه في طبعة اخرى .

٨ـ فهرس الموضوعات

الصفحة الموضوع

الباب الأول

شؤون العرب التجارية : بين الجاهلية والاسلام

الباب الثاني

الباب الثالث

اسواق العرب آ ـ في الجاهلية ب ـ في الاسلام

الصفحة	الموضوع
٣٥٦	نطاة خيبر
٣٥٨	سوق حجر

تصويب احطاء

ص	س	خطأ	صواب
١٦	٢	عنه	فيه
١٦	٩	شرقي	سلطتهم شرقي
٢٤	٧	المسلمون	المسلمين
٢٥	١٧	الشرق	المشرق
٢٧	١٦	الشرق	المشرق
٦٧	١٠	أوخر"	وأخر
٧٠	٨	رجب	رجباً
٧٤	٣	تتحفز	تتخفر
١٠٤	٤	حدثنه	حدثته
١١٠	٤	تميم	تيم
١١٣	١٥	عدا عن	عدا
١١٧	٩	القضية	القصة
١٤٧	١٨	إلبها	إليها
١٧٦	١٨	أوزان	أوزن
١٨٣	٨	لن	لم
١٨٤	١٦	لتعقدن	لنعقدن°
١٩٩	١٤	عفيف	عفيف بن
٢٠٥	٥	لتقضي	لتقض
٢١١	١٤	ولصديقي	لصديقي

ص	س	خطأ	صواب
٢٢٠	٩	آدم	أدم (١)
٢٣٦	٨	آكيدر	آكيدراً
٢٣٨	٨	يبيع	يبع
٢٥٣	٩	فمان	فعمان
٢٩٢	١٢	مفاخرة	مفاخر
٢٩٣	١٨	الفضل	المفضل
٢٩٤	٢	عمر	عامر
٣٠٣	١٣	هوزان	هوازن
٣٠٣	١٥	هوزان	هوازن
٣٢٧	١٢	بسمع	يسمع
٣٣١	٥	في	فيه
٣٦٧	٤	سلو	سلوا
٣٧٦	١٠	ومن الثاني	و
٣٨٧	١٨	في	، وفي
٤٢٤	١٦	رأو	رأوا
٤٣٠	٢١	أفاخ":تفاج	أفاخ:تفاج"
٤٣٣	٣	مَشرين	مُشرين
٤٣٦	١٣	حق	حتى
٤٨٠	١٨	ال	آل

آثار المؤلف المطبوعة

أ المؤلفات	الناشر
١ ـ أسواق العرب في الجاهلية والاسلام	المكتبة الهاشمية في دمشق ١٩٣٧
أسواق العرب (طبعة ثانية)	دار الفكر بدمشق
٢ ـ ابن حزم الاندلسي ورسالته (في المفاضلة بين الصحابة)	المكتبة الهاشمية ١٩٤٠
٣ ـ الاسلام والمرأة	١٩٤٥
٤ ـ عائشة والسياسة	لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٧
٥ ـ في أصول النحو	الجامعة السورية ١٩٥١
٦ ـ مذكرات في قواعد اللغة العربية	الجامعة السورية ١٩٥٥

ب المخطوطات التي عني بتحقيقها ونشرها :

١ ـ الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للامام الزركشي
المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٣٩

٢ ـ في المفاضلة بين الصحابة . لابن حزم المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٤٠
(نشرت في كتاب ابن حزم الاندلسي)

٣ ـ سير النبلاء للذهبي (جزء خاص بترجمة ابن حزم) = ١٩٤١

٤ ـ سير النبلاء للذهبي (جزء خاص بترجمة السيدة عائشة) = ١٩٤٥

٥ ـ تاريخ داريا : القاضي عبدالجبار الخولاني المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٠

٦ ـ الاغراب في جدل الاعراب
٧ ـ لمع الادلة
} لابن الانباري الجامعة السورية ١٩٥٧

٨ ـ ملخص إبطال القياس والرأي .. لابن حزم الجامعة السورية ١٩٦٠

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع

في القاهرة : مكتبة دار العروبة

في بغداد : مكتبة المثنى

SA'ID AL-AFAGANI

ASWAK AL-ARAB

FIL-JAHILIAH WAL-ISLAM

٦٠٠ ق س أو مايعادلها

DAR EL-FIKR